الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر

إعداد
عبد الحليم حسين جدوع الهروط

إشراف
الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة

قُدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير
في اللغة العربية وآدابها في كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

أيار، ١٩٩٤

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ...٢٨ أيار ١٩٩٤...... وأجيزت

لجنة المناقشة		التوقيـــع
الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة	مشرفاً	
الدكتور جاسر أبو صفيـــة	عضواً	
الدكتور صـــــلاح جـــرار	عضواً	

إهـــداء

إلى

الزوجة العزيزة مع التقدير والمحبة

إلى

روح والدي برد الله ضريحه ونزل عليه
شآبيب رحمته

إلى

الوالدتين العزيزتين والأخوة والأخوات
جميعا

المحتويات

مُلَخّص الرِّسالة

الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة
في
عصر بني الأحمر

اعداد الطالب :عبد الحليم حسين جدوع الهروط
اشراف الاستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة

تناولت في هذا البحث دراسة الرسائل الديوانية في غرناطة عند بني الأحمر، وقد جعلته في تمهيد وأربعة فصول وخاتمة.

بيّنت في التمهيد الامتداد الجغرافي، والتاريخي لدولة بني الأحمر ، وما كانت تواجهه من مصاعب، وأخطار تتهدّدها، سواء أكانت من الدول النصرانية المجاورة، أم من خلال الفتن والقلاقل التي ظلت تفتُّ في عضدها حتى انتهاء أمرها.

وفي الفصل الأوّل تناولت مفهوم الرِّسالة الديوانية وأهميّتها، وقصرت الحديث عمّا كان يصدر عن ديوان الإنشاء بالحضرة، مما يختصُّ بالعلامة السلطانية.

وفي الفصل ذاته حاولت رسْم هيكل وظيفي، لِخطط ديوان الإنشاء، مع المهام الموكولة لكل خُطة، والشروط الواجب توافرها فيمن يشغل كلّ خطة.

وفي الفصل الثاني اجتهدت في تصنيف الرسائل الديوانية إلى عدّة موضوعات هي :-

١- التهاني .
٢- الفتوحات.
٣- الشُكر على الهديا.
٤- المعاهدات، وتوكيد المعاهدات.
٥- الظهائر الرسمية.
٦- الاستنجاد.

٧- التعازي.

٨- الرسائل النبويّة.

٩- مخاطبة الرعية في موضوعات مختلفة.

أما الفصل الثالث، فقد تحدثت فيه عن ثلاثة كتّاب، من أبرز كتاب الانشاء عند بني الأحمر، والسمات المميزة لأسلوب كلٌ منهم في كتابة الرسالة الديوانية وهم :-

١- أبو الحسن بن الجياب.

٢- لسان الدين بن الخطيب.

٣- أبوعبد الله بن زمرك.

أما الفصل الرابع فقد تحدثت فيه عن السمات الفنية للرسالة الديوانية عند بني الأحمر من خلال :

١- البناء الخارجي.

٢- أساليب الكتابة.

٣- التضمين والاقتباس.

٤- الايجاز والاطناب.

٥- الجناس.

٦- الطباق.

٧- المقابلة.

٨ - العكس والتبديل.

٩ - الجُمل الدعائية.

كما بيّنت في هذه الرسالة أن بني الأحمر أعطوا الرّسالة الديوانية عناية خاصة، حيث كانت وسيلتهم الاعلامية، في تثبيت دعائم حكمهم، من خلال ابرازهم بصورة القوي، المحافظ على الدين، فامتزجت المسحة الدينية مع المسحة السياسية.

أما مضامينها فكانت تعكس معالم الحياة السياسية، والاجتماعية، والثقافية، وموقف السلطة من هذه القضايا .

كما أعطوا هذه الرسائل اهتماماً كبيراً من الناحية الفنية، وحشدوا إلى ديوانهم لفيفاً من الكتّاب، ممن ذاع صيتهم، وطارت شهرتهم. حتى أصبح ديوان انشائهم مدرسة فكرية وثقافية،

بسم الله الرحمن الرحيم

* المقـــدمة *

كانت الحقبة الطويلة، التي حكم فيها بنو الأحمر الأندلس، أحد البواعث لي في البحث في الرسائل الديوانية الصادرة عنهم، لإنها خَيْرُ شاهدٍ على الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية التي آلت إليها غرناطة، عشية سقوطها.

كما أنّ عناية الباحثين بالتراث الشعري للأندلس، أكثر من عنايتهم في التراث النثري، وما جاء من دراسات في موضوع الرسائل الديوانية عند بني الأحمر، لم يكن مستقلاً بذاته، بل هو وقفات سريعة، وإشارات خاطفة، لا تشفي غليلاً، حيث جاءت هذه الإشارات والوقفات في سياق التأريخ الأدبي؛ ومن هذه الاشارات ما ورد في كتاب الدكتور شوقي ضيف" الفن ومذاهبه في النثر العربي"، والدكتور مصطفى الشكعة في كتابه "الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه"، والدكتور محمد كمال شبانه في كتابه "يوسف الأول ملك غرناطة"، والدكتور محمد رضوان الداية في كتابه "أبحاث في الأدب الأندلسي والمغربي" ... وغيرهم.

لذلك فإنني أرمي في هذا البحث إلى استجلاء صورة الرسائل الديوانية الأدبية، وموضوعاتها ، وأبرز أعلامها ، وخصائصها الفنيّة.

وقد جاءت هذه الدراسة في تمهيد وأربعة فصول وخاتمة. ففي التمهيد أوجزت امتداد دولة بني الأحمر، جغرافياً، وزمنياً. فكانت مملكة غرناطة مجالها الجغرافي، أما مجالها التاريخي فيمتد منذ بداية أمرهم حتى انتهاء دولتهم يوم تسليم غرناطة . وتَحَدثتُ فيه عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية .

أما الفصل الأوّل ، فقد تناولت فيه مفهوم الرسالة الديوانية، وأهميتها، ومواصفاتها عند بني الأحمر، كما تحدثت عن ديوان الإنشاء عندهم، وتراتيبه الإدارية، والكتابية، كي يكون هناك صورة واضحة المعالم عن هذا الديوان آنذاك.

وأما الفصل الثاني فقد اجتهدت فيه بتصنيف الرسائل الديوانية، حسب موضوعاتها. وقد اخترت من الموضوعات ما حِسبْتُ أنه يمثل تلك الفترة. فقد صنفتها إلى رسائل التهاني، والفتوحات، والشكر على الهدايا ، والمعاهدات ، والظهائر الرسمية، والاستنجاد، والتعازي، والرسائل النبويّة، ومخاطبة الرّعية في موضوعات مختلفة.

وقد استشهدت لكل موضوعٍ من هذه الموضوعات برسالتين أو أكثر، ما ارتأيت أنها تُغني في ذكرها عن غيرها في الموضوع ذاته، كما ذيّلت كُلَّ موضوعٍ منها بموجزٍ عن أهم ما يركز عليه الكُتّاب، وطريقتهم في عرض ذلك الموضوع.

أما الفصل الثالث فقدْ عرضت فيه إلى ثلاثة من أبرز كتاب الإنشاء عند بني الأحمر، وهم أبو الحسن بن الجيّاب، ولسان الدين بن الخطيب، وأبو عبد الله بن زمرك. مترجماً لحياتهم، واصفاً السمات الفنية الخاصة لكل منهم في كتابة الرِّسالة الديوانية، ومساهمة كُلٍّ منهم في كتابتها.

أما الفصل الرابع فقد تحدثت فيه عن السمات الفنيّة للرسائل الديوانية، من حيث بناؤها وأساليبها، وطرائق كتابتها، ومحسّناتها البديعية، مقتصراً الحديث على بعض القضايا التي حسبتُ أنها تفي بالحاجة، وما كنت أشعر به من أنّ هذه القضايا هي السّمات الحقيقية لهذه الرّسائل في هذا العصر. وربما انماز بها عن غيره من العصور التي مرّت بها الأندلس.

أمّا الخاتمة فقد أوجزت فيها أهمّ النتائج التي توصلت إليها. من خلال تطوافي في هذه الرّسائل من حيث أهميّتها، وأساليبها، وسماتها.

وقد تنوّعت مصادر الرسائل الديوانية، وفي مقدّمتها، مؤلفات لسان الدين بن الخطيب مثل "ريْحانة الكُتّاب"، و" كناسة الدُّكان"، التي قصرهما على الرسائل الديوانية التي كتبها بنفسه، وكتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة"، الذي ترجم فيه لكثير من أعلام الكتابة الديوانية، وبث فيه كثيراً من الرّسائل الديوانية لعددٍ منهم. ويأتي بعد مؤلفات ابن الخطيب كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" لشهاب الدين أحمد بن محمد المقّري، الذي وقفه على لسان الدين بن الخطيب، وعلى الرغم من ذلك فقد أورد فيه كثيراً من الرسائل الديوانية، والمعلومات التاريخية، التي قد لا نجدها في مصدر آخر، لاسيما فيما يتعلق بالحقب التي ضنّت علينا بها المصادر. ثم كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي الذي ضمنه كثيرا من الرسائل الديوانية التي كتبها لسان الدين بن الخطيب، كما ذكر فيه أسلوب كتابة الرسالة الديوانية عند لسان الدين بن الخطيب. ثم تأتي المصادر الأخرى مثل كتاب "العبر" لابن خلدون، و"نثير فرائد الجُمان"، لاسماعيل بن الأحمر، وغيرها من المصادر الأخرى.

أما ما واجه البحث من عقبات فيكمن في ندرة النصوص التي تختصُ بحقبةٍ معينة، فحاولت ما استطعت أن أتلمس هذه الرسائل -على قلتها- وأنوع بالاستشهاد بها من خلال ما هو متوافر منها في المصادر والمراجع التي بين يدي.

كما أن القرن الأخير من حكم بني الأحمر، وهو القرن التاسع الهجري، ما يزال غائماً لقلة المصادر التي تحدثت عنه، وفي ذلك حاولت الرجوع إلى كثيرٍ من المصادر؛ المشرقيّة منها والمغربيّة، لإلقاء بعض الضوء على هذا العصر، وإزالة بعضٍ ما انبهم منه.

وقد حاولت ما وسعتني الحيلة أن التزم الحياد في دراستي هذه، خشية الوقوع في هوى النّفس، والتعصب لرأي دون دليل أو حُجّة.

ولا أدعي أنني أحطت بجميع جوانب هذا الموضوع، وإن نتائجه خالية من العثرات، بريئة من الخلل، بل إن كل ما فيه قابلٌ للمناقشة، والتمحيص. لكنني آمل أن أكون قد ساهمت بجهدٍ متواضع في الدراسات الأندلسية الأدبيّة. فإن أصبت فالمنّة لله سبحانه وتعالى وللأستاذ المشرف، وإلاّ فحسبي أنني اجتهدت، ولكل مجتهد نصيب.

وبعد : فلا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر، وعظيم الامتنان للأستاذ المشرف، أستاذي الجليل، العالم، الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة، الذي أولاني رعايته، واهتمامه، وأعطاني من وقته وجهده، في تتبع كثيرٍ من القضايا، لاسيما التراثية منها، وتقويم ما اعوج منها، وكبح جماح القلم كلما اشتطّ . ووسعني بحلمه، وعلمه، ما عقل به لساني.

كما أجد نفسي مديناً للدكتور الفاضل صلاح جرار، على ما أسداه لي من ملاحظات قيمة، أغنت البحث في كثيرٍ من المواضع، حيث كنت أفِرُّ إليه كلما استغلق عليَّ أمر .

كما أقدم شكري وعرفاني للدكتور جاسر أبو صفية على ملاحظاته القيّمة ، وما أسعفني به من نفائس المصادر من مكتبته الخاصة، التي تفتقر اليها مكتبة الجامعة الأردنية.

وأتقدم بشكري للأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الأردنية على ما أولاني إياه من مساعدة، وما أسعفني به في بعض المصادر .

كما أتقدم بالشكر الجزيل لكل مَنْ ساعدني في كتابة هذا البحث، مهما كان حجم هذه المساعدة، وأخص منهم الأستاذ الدكتور حاتم الضامن من جامعة بغداد، والاستاذ العلاّمة هلال ناجي من بغداد، والاخوة الأفاضل في مكتبة الجامعة الأردنية.

التمهيـــــــد

عصـــــر بني الأحمـــر

الإطـــار الجغرافي والسياسي والاجتماعي والثقافي

تقع مملكة غرناطة في عهد بني نصر في الجَزءَ الجنوبي من بلاد الأندلس، على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوباً، وتحيط بها سلسلة من الجبال الشاهقة والوغرة في طرفها الشمالي، على حدود النهر الوادي الكبير .(١)

ومن أهم مدنها غرناطة " قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها " (٢)، وتقع الى الجنوب الشرقي من قرطبة (٣)، وهي مبنية على جبل .(٤) قام ببناء قصبتها حَبّوس الصنْهاجي وولده باديس . وانتقل اليها أهل البيرة بعد خرابها في الفتنة عام ٤٠٠هـ بين العرب والبربر. (٥)

يشق غرناطة نهر هدرُه (Darro) (٦)، ويشرطها الى قسمين، يصل بينهما الجسور والقناطر المنصوبة على هذا النهر.(٧) وفيها جبل شِلِّير –سييرا نيفادا– الذي لا يفارقه الثلج، ويمكن مشاهدته من اكثر بلاد الأندلس، وعدوة المغرب، ويمتد حتى يتصل بالبحر المتوسط. (٨)

---

١ – انظر حدود مملكة غرناطة : د. عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق ، ط٣، ١٩٧٨. ص ٥١٨؛ كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي، دار العلم الملايين، ط٥ ، ١٩٦٨ ، ص ٣٣؛ ويوسف فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢– ص٢٥؛ د. محمد عبده حتاملة، محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، مطابع دار الشعب ، عمان ١٩٧٧ .

٢ – ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله ٧٧٩هـ، رحلة ابن بطوطة، تحقيق طلال حرب ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧ م، ص ٦٧٩ ؛ ابن جبير ، ابو الحسين محمد بن أحمد ، رحلة ابن جبير ، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٩م ، ٢: ٧٦٨ .

٣ – ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد ٧٧٦هـ ، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان ، دار المعارف ، مصر ، ١ : ١٠٢ .

٤ – الغزال، محمد بن مهدي ، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد ، تحقيق اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٨٤م، ص ١٩٩–٢٠٠ .

٥ – ابن سعيد ، ابو الحسن علي بن موسى، ت ٦٨٥هـ ، المُغْرِب في حُلَي المَغْرِب، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف ، القاهرة، ط٣ ، ١٩٧٨، ٢ :٩٣ وتبعد غرناطة عن قرطبة ١٦٨كم انظر: د. عيسى الناعوري، رحلة في ربوع الاندلس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، ١٩٧١، ص ٦١. وتبعد عن اشبيلية ٢٥٥كم انظر : أحمد عبدالرحمن السماوي ، رحلة مصورة الى بلاد الأندلس، دار الفكر، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٣، ص ١٠٤

٦ – الإحاطة في أخبار غرناطة ١: ٩٩

٧ – المقّري، شهاب الدين احمد بن محمد ١٠٤١هـ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ٤ : ٣٨٥

٨ – البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، جغرافية الأندلس وأوروبا، من كتاب المسالك والممالك، تحقيق د. عبدالرحمن علي الحجي، دار الارشاد، بيروت، ١٩٦٨ ، ص ٩٤–٩٥ .

ومدينة مالَقة المعروفة قديما بـ " ريّة "، (١) تقع بين الجزيـرة الخضـراء والمريّـة. (٢)علـى شاطيء البحر، وهي في غاية الحصانة والمَنعة. (٣) وتُعَدُّ إحدى قواعد الأندلس الحِسان،وتشـتهر بزراعة التين وصناعة الفخار المذهَّب. (٤)

والَمريَّة تقع على جبلين، يوجد على أحدهما قصبتها المشهورة، كما يوجد بهـا قلعـة حصينـة تعرف بقلعة خَيْران العامري. (٥) وقد قام ببنائها الناصر لدين اللـه عبدالرحمـن بـن محمـد عـام ٣٤٤هـ (٦)، وكانت مقراً للأسطول الإسلامي، ومركز انطلاقه، وتُعَدُّ " أشـهر مراسـي الأندلـس وأعمرها" (٧) .

ورُنْدة مدينة قديمة بها آثار كثيرة، تقع الى الجنوب الغربي من مدينة غرناطة. (٨) بين اشبيلية ومالقة (٩)، على نهر يُنْسَب إليهـا، وجبالهـا وَعـرة مثـل جبـل طَلَوبِـيرَة Talavera الواقـع غربيها، (١٠) وهي من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وَضْعاً.(١١)

تأسست مملكة غرناطة بعد أن ضَعُف أمْرُ الموحدين، وأصبحت الأندلس في مهب الريح يتنازعها الولاة والحكام .

وقام بتأسيسها محمد بن يوسف بن نصر، المعروف بالشيخ، الذي يرجع نسبه الى سعد ابن عبادة من الخزرج، وقد بويع له عام ٦٢٩هـ. (١٢)

---

١ – المغرب في حلى المغرب١ : ٤٢٣، وتقع مالقة على مسافة ١٢٩كم،انظر رحلة في ربوع الأندلس ص ٦١

٢ – ابن الحموي ، ياقوت بن عبد الله ٦٢٦ هـ ، معجم البلدان ، تحقيق فريد بن عبد العزيز الجندي، دار الكتـب العلمية، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٠ ، ٥ : ٥٢ ويقول إنّها من اعمال " رية" .

٣ – الحِمْيَري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. احسان عباس، مكتبة لبنـان، بيروت، ط٢ ، ١٩٨٤ ، ص ٥١٧ – ٥١٨ .

٤ – رحلة ابن جبير ، ٢ : ٧٦٨ ، رحلة ابن بطوطة ٦٧٩.

٥ – المغرب في حلـى المغرب ٢: ١٩٣ ، الـروض المعطـار ٥٣٨ ، وتقـع المريّـة علـى مسـافة ٢٢٢كـم، إلـى الشرق من مالقة : انظر : ابن الخطيب لسان الدين ، ديوان الصيب والجهام ، تحقيق د. محمـد الشـريف قـاهر، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ، ط١ ، ١٩٧٣ مقدمة المحقق ص ١٩ .

٦ – الروض المعطار ٢٦٩.

٧ – نفسه ٥٣٧.

٨ – نفسه ٢٦٩ .

٩ – معجم البلدان ٣ : ٨٤ .

١٠ – الروض المعطار ٢٦٩ .

١١ – رحلة ابن بطوطة ٦٧٨ .

١٢ – ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتـاب اللبنـاني، بيروت، ط٣، ١٩٦٦م ، ٤ : ٣٦٧ .

القلقشندي، أحمد بن علي ٨٢١هـ، صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرحه وعلق عليـه نبيل خـالد القطـب، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧ ، ٥ : ٢٥١ .

واستطاع السيطرة على قرطبة واشبيلية، إلا أنهما عادا إلى سيطرة أبي عبد الله بن هود. (١) الذي استقل بشرق الاندلس، وخرج عن طاعة الموحدين آنذاك. (٢) كما أعلنت جَيَّان وشريش طاعتهما إلى محمد بن نصر عام ٦٣٠هـ. (٣)

كما أرسل أهل غرناطة بيعتهم الى محمد بن يوسف نصر عام ٦٣٥هـ وهو في جيان. (٤) فقدم إليها وبنى بها حصن الحمراء (٥)، لتكون عاصمة ملكه. وبعد مقتل ابن هود في المرية، سار اليها وتملكها عام ٦٣٥هـ. (٦) وأرسل أهل مالقة بيعتهم له عام ٦٣٦هـ. (٧) وهو يراوح - في كل ذلك - في ولاءاته، طمعا في كسب الدعم المادي والمعنوي لدعوته، فتارة يدعو للموحدين، وتارة الى ابن هود، وأخرى للمستنصر العباسي، كل ذلك حسب ما تقتضيه الضرورة والمصلحة، حتى إذا اشتدّ عودُهُ ترك هذا الأمر واستقل بذاته. (٨)

عرف النصارى مدى خطورة ابن نصر ، فحاربوه وشددوا عليه بالقتال، وهاجموا غرناطة نفسها مما اضطره لمهادنتهم، والاتفاق معهم على بعض الشروط ، من بينها ان يحكم باسم سلطان قشتالة،وأن يدفع جزية سنوية،ويساعدهم في حروبهم اذا ما احتاجوا لذلك.(٩) وكان قد تنازل لهم عن بعض المدن والحصون من بينها جيان،عام ٦٤٣هـ،لإتمام هذا الاتفاق. (١٠)

---

١ - الإحاطة ٢ : ٩٤، صبح الاعشى ٥ : ٢٥١ يقول انه دخل اشبيلية عام ٦٣٢هـ ، وتبعه في ذلك المقّري في نفح الطيب ١ : ٤٤٨ والفاسي، علي بن أبي زرع، الأنيس المُطْرِب، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢م، ص ٢٧٦، يقول إن ذلك كان عام ٦٣١هـ .

٢ - الإحاطة ١ : ١٢٩ ، نفح الطيب ١ : ٤٤٧ .

٣ - صبح الاعشى ٥ : ٢٥١ ، نفح الطيب ١ : ٤٤٧، وتقع جيان على جبل، وهي كثيرة الأعين، على بعد ٥٠ ميلا من قرطبة، انظر : المقدسي، شمس الدين عبد الله بن أحمد بن أبي بكر البنا البشادي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مكتبة خياط ، بيروت ، ص ٢٣٤ وشريش من كور - شذونة بالأندلس، انظر الروض المعطار ٣٤٠ ، وتقع شمال قادس، رحلة الناعوري ص ١٢٥ .

٤ - ابن الخطيب، لسان الدين، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، تحقيق لجنة احياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٠ ، ص٢٢ ، ابن عذاري ، ابو عبد الله احمد بن محمد ت ٦٩٥هـ، البيان المُغْرِب في اختصار ملوك الاندلس والمغرب ، نشرة أمبروسي هويسي مراندة ، مساهمة محمد بن تاويت، ومحمد ابراهيم الكتاني ، ق ٣ : ٣٣٦ .

٥ - صبح الأعشى ٥ :٢٥١ ، نفح الطيب ١ :٤٤٨ . البيان المغرب ٣ : ٣٦٧ .

٦ - البيان المغرب ٣ : ٣٣٧ ، و : لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، لبنان، ط٢، ١٩٥٦، ص٢٨٧ وفي صبح الأعشى ٥ : ٢٥١ كان ذلك عام ٦٤٣ هـ، ونفح الطيب ١: ٤٤٨ كان ذلك ٦٤٣هـ. ٧ - البيان المغرب ٣ : ٣٤٥. ٨ - الإحاطة ٢ : ٩٥

٩ - البيان المغرب ٣ : ٣٤٧ ، تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٣ .

١٠ - اللمحة البدرية ٣٦،الإحاطة ٢ : ٩٩ الانيس المطرب ص٢٧٧ يقول ان تسليم جيّان كان ٦٤٤هـ.

وقد قامت ثورة عليه يتزعمها أعيان الأندلس لخَلْعه، إلا أنه قضى عليها. (١) وأثناء عودته من اخماد هذه الفتنة توفي، وذلك في جمادي الآخرة ٦٧١هـ.(٢) وتولى الحكم ولده ابو عبد الله محمد المعروف بالفقيه، وكان والده عقد له البيعة لولاية العهد في حدود عام ٦٦٢ هـ (٣)، ليقرر وراثة الحكم من بعده .

سار هذا السلطان على نهج ابيه في "اختيار أجناسه، ومُداراة عدوّه" (٤)، واتباع سياسة انتهاز الفُرص التي تُرسم حَسب المصلحة العامة (٥)، وقد بقيت هذه السياسة مُتّبعة عند سلاطين غرناطة حتى سقوط الاندلس برمتها بيد النصارى .

استعان السلطان محمد الفقيه ببني مرين سلاطين المغرب لنصرته على النصارى،فأجابوه إلى ذلك، بعد أن اتخذ سلطانهم مقرا له بالاندلس (٦)، وجعل مجموعة من المجاهدين من اقاربه فيها، وجعل عليهم رئيسا سموه شيخ الغزاة. (٧) وكان لبني مرين وقائع كبيرة على النصارى، منها المعركة التي وقعت في ظاهر استُجّة ، قُتِل فيها القائد النصراني ذُنّونة Don Nuno عام٦٧٤هـ. (٨)

ومع أن بني مرين ظلوا الساعد القوي في امداد الأندلس بالعون والمساعدة، إلا أن سلاطين غرناطة كانوا- في بعض الأحيان - يتوجسون خيفة من ازدياد النفوذ المغربي في الأندلس، فكانوا يعملون للانحراف عنهم وموالاة النصارى، فقد أعاد السلطان محمد الفقيه رأس ذنّونة لسلطان قشتالة بعد أن قام بتطييبه. (٩)

---

١ - اللمحة البدرية ٣٦

٢ - نفسه ٣٦، الإحاطة ٢ : ١٠٠ ، والذخيرة السنية في الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوارقة، الرباط ١٩٧٢م، ص ١٣٦ (مؤلف مجهول) .

٣ - اللمحة البدرية ٣٦ ، الاحاطة ٢ : ٩٩، وفي البيان المغرب ٣ : ٤١٥ كانت البيعة عام ٦٦٥هـ

٤ - اللمحة البدرية ٣٨ ، الاحاطة ١ : ٥٦٥ .

٥ - ليفي بروفنسال، أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥١ ، ص ٦٠ .

٦ - الذخيرة السنية ٩٠ .

٧ - نفح الطيب ٤ :٣٨٥ ، وكانت أول اجازة للمغاربة للأندلس عام ٦٦٠هـ ، أونحوها، ثم رجعوا إلى المغرب، ثم عادوا ثانية للأندلس واستقروا بها ومعظمهم من بني عبدالحق أنظر العبر ٤ : ٣٦٩.

٨ - العبر ٧ : ٤٠٨ ، واستجه Ecija بين القبلة والغرب من قرطبة، وهي مدينة قديمة ، انظر: الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبد الله ت ٨٦٦هـ ، صفة جزيرة الأندلس، عني بنشره ليفي بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف ، القاهرة ، ١٩٣٧م ، ص ١٤.

٩ - اللمحة البدرية ٤٤ ، الانيس المطرب ٣١٨-٣١٩ .

استطاع السلطان محمد الفقيه السيطرة على جميع انحاء الأندلس عام٦٨٧هـ، بعد أن ساعده سلطان المغرب في انهاء تمرد ابناء اشقيلولة عليه.(١) ليخلو له الجو ولم "يبق له بالأندلس منازغ من قرابته والله أعلم".(٢)كما عقد السلطان محمد الفقيه معاهدة صلح مع ملك أراغون عام ٦٩٥ هـ(٣)،ليتفرغ لقتال قشتالة التي ناصبته العداء،وتمكن من استعادة قيجاطة،ومدينة القبذاق.(٤) لكن المَرض لم يُمهله طويلاً فتوفي في٨/ شعبان/٧٠١هـ،وتولى الحكم ابوعبد الله محمد الثالث الملقب بالمخلوع. (٥)

استمر السلطان محمد الثالث في مقارعة النصارى، واستولى منهم على مدينة المنَظر، وأسر صاحبتها، وأرسلها إلى سلطان المغرب الذي اتخذها لنفسه، (٦) توكيدا للمودة التي بينهما. لكنه كعادة اسلافه في اتباع سياسة انتهاز الفرص، عاد لمعاهدة قشتالة،ومعاداة سلطان المغرب، فوجّه الجيش الى احتلال مدينة سبته، وقام باحتلالها عام ٧٠٥ هـ (٧)، إلا

---

١ - استعان محمد بن يوسف أول السلاطين ببني اشقيلولة في بداية امره . واتفق معهم على قسمة ما يتحصل لهما من الملك ، الا أنه حصل خلاف بينهم بعد ان تمّ الأمر، فتمنّعوا عليه في مالقة ووادي آش، واستقلوا بهما، عام ٦٦٤هـ ، انظر : الذخيرة السنية ١١٢ ، البيان المغرب ٣ : ٤١٥ .

٢ - العبر ٧ : ٤٤٠ والسلاوي : أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا في اخبار المغرب الأقصى ، تحقيق محمد وجعفر الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م ، ٧: ٦٨ .

٣ - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصّرين ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٨٧م،ص ١١٢ ، شكيب أرسلان ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، المطبعة الرحمانية، مصر، ط١، ١٩٣٦ ، ولكنه نسب هذا الإتفاق إلى السلطان محمد المخلوع.

٤ - اللمحة البدرية ٤١ -٤٢ ، وقيجاطة مدينة من عمل جيسان، الروض المعطار ٤٨٨ وفي الحاشيةQuesada إلى الجنوب الشرقي من أبده ٣٠كم . والقبذاق من أعمال قرطبة، الإحاطة ١ : ٥٦٩ حاشية ٦ .

٥ - المقري ، أحمد بن محمد ، أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق احياء التراث الاسلامي المشترك بين المغرب والإمارات العربية المتحدة،١٩٧٨ ، ٢ : ٣٤١ .

٦ - اللمحة البدرية ٥٠ .

٧ - العبر ٧ : ٣٧٢ ، أزهار الرياض ٢ : ٣٧٧ .

النباهي، أبو الحسن بن عبد الله، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ١٣٣ ابن خلدون، ابو زكريا يحيى، بُغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٠ ، ١: ١٤ يقول ان ذلك كان عام ٧٠٣هـ وقد تبعه في ذلك الناصري السلاوي في الاستقصا ٣ : ٧٤ . وسبتة على شاطيء البحر الأبيض المتوسط في المملكة المغربية . وما تزال تحت الاستعمار الإسباني .وكان احتلالها سنة ٨١٩هـ . انظر أزهار الرياض ١ : ٤٦.

أنها عادت إلى سلطان المغرب، بعد خلع السلطان محمد الثالث، وتوليّة أخيه ابي الجيوش نصر الحكم، بمساعدة كبار رجال الدولة عام٧٠٨هـ، (١) لتأخذ الأمور بعد ذلك تسير في منحىً آخر، فقد كثُرت الثورات والفتن داخل البيت النصري، فقلّما نجد سلطانا وصل إلى الحكم، إلاّ وكان ذلك بعد ثورة دموية-غالباً-، ففي ٢٦ رجب عام٧٢٥ هـ قُتل أبو الوليد اسماعيل بن فرج، وهو في غمْرة انتصاراته - بعد عودته من غزوة مُرتُش واحتلالها- أثناء استقباله في الحمراء. (٢) لتعصف هذه الفتنة بهذه المملكة، ويُقتل القاتل وأعوانه. (٣) وفي الأعوام ٧٦٠-٧٦٣ هـ، كان هناك ثلاث ثورات،كلُ ثورة يُخلع فيها سلطان ويُنصّبُ سلطانٌ آخر. (٤) كذلك السلطان محمد التاسع المُلقّب بالأيسر نُحّي عن السلطة غيرَ مرّة، كلما خُلِع مرة عاد ثانيةً. (٥)

---

١ - اللمحة البدرية ٥٨ .

٢ - اللمحة البدرية ٧٤- ٧٥ ، الاحاطة ١: ١٤٨، ٤٠٢ ، أعمال الأعلام ، ص ٢٩٥، العسقلاني، شهاب الدين أحمد ٨٥٢هـ ، الدُرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة،القاهرة ، ١ : ٤٠٢ يقول في ذي القعدة /٧٢٦هـ ابن تغري بردي، أبو المحاسن كمال الدين، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، تحقيق محمد محمد امين،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ ، ٢: ٤١٦ يقول في ذي الحجة /٧٢٦هـ، الصفدي ، صلاح بن أيبك،الوافي بالوفيات،تحقيق أسد بن إبراهيم و أيد لكن البندقدار،دار النشر،فرانس شتايز،فسبادن، ٩: ١٨٤، يقول: في ذي القعدة/ ٧٢٦هـ. ومُرتُش Martos جنوب غربي جيان الإحاطة ٢١ : ٣٩٩ حاشية ١، نهاية الاندلس ٤٢حاشية ١ محقق ديوان الصيب والجهام ٢٩ ، وقد ضبطها المقدسي في أحسن التقاسيم ص ٢٣٥ مارْتُشْ .

٣ - الدرر الكامنة ١ : ٤٠٢ ، الوافي بالوفيات ٩: ١٨٤ ، المنهل الصافي ٢ : ٤١٦ .

٤ - عام ٧٦٠هـ خلع محمد الخامس واستولى على الحكم أخوه اسماعيل، الإحاطة٢ : ٥٣٢، عام ٧٦١هـ قتل اسماعيل وتولى الحكم محمد بن اسماعيل البرميخو، الإحاطة ١ : ٤١٢، عام ٧٦٣ هـ عاد محمد الخامس ثانية الى الحكم بمساعدة سلطان المغرب، وسلطان قشتالة، اللمحة البدرية ١١٧ ، الاحاطة ١ : ٥٣٤ - ٥٣٥ .

٥ - ابن عاصم، أبو يحيى محمد بن محمد ٨٥٧هـ، جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق د. صلاح جرار، دار البشير للنشر والتوزيع ، عمان، ١٩٨٩، ٢ : ٣٠٧ لم يذكر عدد المرات وقال : "تمالأت عليه اصناف الناس مرّات متعددة "، إلا أن محقق جنة الرضا ذكر انه تولى الأمر خمس مرات، جنة الرضا ١ : ١٤-١٥، السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن ت ٩٠٢هـ ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدس، القاهرة ١٣٥٤هـ ، ١٠: ٦٨ يقول انه تولى الحكم ثلاث مرات.

و كانت هذه الثورات غالبا ما تدور في البيت النصري، إلا أن هناك ثورات أخرى تحاول الوصول إلى السلطة، مثل ثورة يوسف المُدَجَّن عام ٨٣٤هـ، التي قُضي عليها في حينها. (١) وثورة أبي الحجاج يوسف بن المَوّل الذي استطاع الاستيلاء على الحكم عام ٨٣٥هـ بمساعدة سلطان قشتالة. (٢)

وكان لنفوذ كبار رجال الدولة اثر كبير في هذه الفتن، اذ كان باستطاعتهم -أحياناً- خَلْع سلطان وتنصيب سلطان آخر مكانه، فقد دبّر شيوخُ الغزاة أمْرَ مقتل أبي عبد الله محمد بن أبي الوليد اسماعيل بن فرج، وتركوه مطروحا، بعد مقتله، وبايعوا أخاه يوسف بن اسماعيل أبا الحجاج عام ٧٣٣هـ. (٣) .

كما كان لهم اليد الطولى في ادارة البلاد والأموال، وكانوا غالبا سيئيالتصرف في ذلك، مما أدى الى نقمة الناس عليهم وعلى سلاطينهم، فقد أسند السلطان أبو الحسن علي بن سعد الأمر الى وزيره أبى القاسم بن رضوان بنّيغش،الذي استبدّ بالأمور، وأخذ المغارم، وجمع الاموال، وقتل كثيرا من أهل الرأي والتدبير، مما جعل الناس تنقم عليه وعلى سلطانه. (٤)

كما كان للنساء دورٌ مهمٌ في هذه الثورات، بسبب تدخلهن في السياسة والحكم، خاصة الجواري (٥)؛ فقد تزوج أبو الحجاج يوسف الأول امرأتين من جواريه "بُثَيْنه" و "ريم"، وكان يخصُّ ريم بمحبته، التي تزوج احد بناتها أبو عبد الله محمد المعروف بالبرميخو (٦). وقد حاولت ريم ان تستغل ودَّ أبي الحجاج، وتطلب ولاية العهد لابنها اسماعيل، بدلاً من أخيه محمد من الجارية الأخرى، لكنها فشلت في ذلك. (٧) ليكون ذلك من الأسباب الرئيسية في الثورات التي حصلت في الأعوام ٧٦٠-٧٦٣هـ.

---

١ - جنة الرضا ١: ١٨٦-١٨٨ .

٢ - جنة الرضا ١: ٣٠٠ ، الضوء اللامع ١٠ : ٦٨ .

٣ - اللمحة البدرية ٨٣ - ٨٤ ، أعمال الأعلام ٢٩٨ ، الاحاطة ٢ : ١٤٨ .

٤ - مؤلف مجهول، نبذة العصر في دولة بني نصر، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٤ م ، ص ٥٠ ويُنْسَبُ الكتاب الى علي بن أبي زرع الفاسي

٥ - د. وائل أبو صالح، الجواري في الأندلس منشورات دار القلم، رام الله، ط١، ١٩٨٥م، ص ٧٢

٦ - أعمال الأعلام ٣٠٨ .

٧ - أزهار الرياض ١: ٢٠٢ .

كما برز اسم عائشة ، وثُريّا زوجتي أبي الحسن علي بن سعد في الأحداث التي عصفت بالدولة في نهاية دولة بني نصر، وذلك أن ثريا - وهي جارية- حرضت السلطان على عائشة -وهي حرة وابنة عمه محمد الأيسر- وأولادها. ونجحت في ايداعهم السجن ، إلا أنهم استطاعوا الهروب منه الى وادي آش،الذي قام بدعوتهم، وتدور الحرب بين الاب والابناء بسبب ذلك (١)، ويسُطّر هذا التشتت والانقسام نهاية الدولة.

لقد عاشت مملكة غرناطة أكثر من قرنين ونصف من الصراع المرير على البقاء، مع الدول النصرانية المجاورة، قشتالة واراغون والبرتغال، والتي كانت تفوقها قوّة، مُجتَمعة ومنفردة أيضا. وقد اجتهد سلاطين غرناطة في التعامل مع هذه الدول بالجهاد تارة، يعاونهم في ذلك سلاطين المغرب، والمهادنة أحياناً أخرى.

وكانت الدول النصرانية لا تألو جهدا في سبيل الاجهاز على هذه الدولة، بالحرب تارة، وإثارة الفتن والقلاقل داخل المملكة تارة أخرى، وقد قال المقّري(٢) : " ... وكان طاغية النصارى الملعون لكثرة ما مارس من أمور ملوك الأندلس، وسلاطين فاس، كثيرا ما يدس لأقارب الملوك القيام على صاحب الأمر، ويزين له الثورة، ويعِده بالإمداد بالمال والقوة، وقصده بذلك كله توهين المسلمين، وافساد تدبيرهم، ونسخ الدول بعضها ببعض، لماله في ذلك من المصلحة، حتى بلغ -أبعده الله تعالى- من أمله الغاية.

وكانت بين المسلمين والنصارى أيام بني الأحمر معارك كبيرة، فقد هاجمت الجيوش القشتالية غرناطة سنة ٧١٩هـ وكانت الدائرة فيها على النصارى، قتل فيها الوصيان على العرش القشتالي "بطرة ودون جوان عمه" (٣)، كما كانت الوقيعة الكبرى على المسلمين -الأندلسيين والمغاربة- عام ٧٤١هـ في طريف، انهزم فيها الجيش المسلم شرَّ هزيمة (٤)، واستمر النصارىبعدها بالاستيلاء على بعض المناطق المسلمة، حتى مهلك سلطانهم بالطاعون

---

١ - نفح الطيب ٤: ٥١٤، نبذة العصر ٦١، وادي آش Gaudix، ويقال وادي الآشات، نفح الطيب ١: ١٤٩، هي مبنية على جبال ، نتيجة الاجتهاد ١٩٣. "وتقع الى الشمال الشرقي من غرناطة على بعد ٦٠ كم منها انظر: محمدعبد الله عنان، الآثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، مطبعة الخانجي القاهرة، ط ٢ ، ١٩٦١م، ص ٢١٥ .

٢ - نفح الطيب ٤ : ٤٢٠ .

٣ - أعمال الاعلام ٢٩٥ ، الإحاطة ١: ٣٩٧ ، صبح الأعشى ٥: ٢٦٥ ، نفح الطيب ١: ٤٥١، وقد ذكر محمد عنان أن هذه المعركة كانت عام ٧١٨هـ ، نهاية الأندلس ١١٨ .

٤ - الاستقصا ٣ :١٣٧، نهاية الأندلس ١٢٨ ، يقول إنّ النصارى غنموا علمين كبيرين من اعلام أبي الحسن المريني .

وهو محاصر لجبل طارق الذي كاد يسقط بأيدي النصارى عام ٧٥١ هـ. (١)

بعد ذلك اخذت غرناطة قسطا من الراحة، واتسمت علاقاتها مع النصارى بالمسالمة لمدة من الوقت "قلّما يُعلَم أنه جرى بين الملّتين منها في طول المدة، واستِصْحَاب المُسالَمة".(٢) أصبحت فيها غرناطة تعيش عصرا مليئا بالسؤود والرخاء والدّعة، حتى وفاة السلطان محمد الخامس الغني بالله عام ٧٩٣هـ (٣)؛ إذْ عادت قشتالة من جديد الى محاولة السيطرة على الاندلس ، يعاونها في ذلك الدول النصرانية الاخرى. وسلاطين غرناطة يدافعون عن وجود دولتهم، ويستغيثون بالدول الاسلامية الأخرى،فقد أرسل السلطان محمد الايسر رسالة إلى جقمق سلطان مصر عام ٨٤٤هـ، يستنجده فيها لِما رآه من وطأة النصارى، وانتشار مرض الطاعون. (٤) إلا أن السفارة لم تسفر عن شيء. (٥)

بعد ذلك أصبحت المدن الاندلسية تتهاوى وتسقط بيد النصارى، بعد أن فقدت غرناطة أقوى حلفائها دولة بني مرين، الذي انتهى وجودها عام ٨٦٩هـ (٦)، واتحاد مملكتي قشتالة واراغون عام ١٤٧٩م "٨٨٣هـ"، الذي تم بعد زواج فرناندوا، وايزابيلا. (٧) فقد احتل النصارى جبل طارق عام ٨٦٧هـ(٨)، وكان ضربة شديدة للمسلمين، بعد ذلك سقطت رُنْدَة عام٨٩٠هـ (٩)

---

١ - اللمحة البدرية ٩٥ ، المرقبة العليا ١٥٥ ، إلا أنه يذكر ان ذلك كان في ١٠/ محرم /٧٥٠هـ

٢ - المرقبة العليا ١٥٥ .

٣ - صبح الأعشى ٥: ٢٥٣ ، أزهار الرياض ٢: ١٨٢ وانظر :

ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث القاهرة، المكتبة العتيقة ، تونس، ط ١، ١٩٧٠م، ٢: ٢٧٧ لقط الفرائد، تحقيق محمد الحجي، دار الرباط للتأليف الترجمة والنشر، الرباط ، ١٩٧٦م، ص ٢٢٦، وهذا الكتاب ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات.

٤ - التنبكتي، أبو العباس أحمد بن أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، طبع عباس بن عبد السلام ابن شقرون بالفحامين، مصر، ط ١، ١٣٥١هـ ، ص٢٠٧ ، القلصادي، أبو الحسن علي الأندلسي ٨٩١هـ، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٨م، ص ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٠ .

٥ - نبذة العصر ٧٦-٧٨ ، نهاية الاندلس ١٦٢ .

٦ - الاستقصا ٤: ١٠٠ .

٧ - نهاية الاندلس ١٩٤ - ١٩٥ ، ١٨٤ .

٨ - الاستقصا ٤ : ٩٨ .

٩ - نبذة العصر ٧٠ - ٧١ ، نفح الطيب ٤: ٥١٦ .

ومالقة عام ٨٩٢ هـ (١)، وبَسْطَةَ عام ٨٩٥ هـ. (٢) وحاصرت الجيوش النصرانية غرناطة ذاتها وضيقوا عليها الخناق، واتفق مع ذلك ان حاصرتها الثلوج، وانسدت الطرق، وانقطعت المؤن عنها، لتدفع نفسها ثمنا لذلك، ويتم تسليمها للملكين النصرانيين في ٢/ربيع ٢/٨٩٧هـ.(٣) وفي ذلك اليوم لفظت دولة بني الأحمر أنفاسها، وغَرُبَت شمس الاسلام عن تلك البلاد، وطُوِيَت آخرُ صفحة من صفحات التاريخ الاسلامي هناك، بعد أن أعطت الحضارة الاسلامية لتلك البلاد خَيْرَ ما عندها، وسَمَت بأهلها، عِلْماً وأدباً وحضارةً.

△ كان المجتمع الأندلسي -ابتداءً- متعدِّد الأصول واللغات والدين والحضارة، إلا أن هذه العناصر امتزجت معا، وانصهرت في إطار العروبة والاسلام، حتى أصبح لهذا المجتمع شخصيته المميزة، إلا أن هذا التمازج لم يختف تحته التفاخر بالأنساب، وخاصة العربية منها، وقد كانت أنساب هذا المجتمع "عربية، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير، يكثر فيها القرشي، والفهريّ،والأمويُّ، والأنصاريّ، والخزرجيّ... وكفى بهذا شاهدا على الأصالة، ودليلا على العروبية".(٤)

ومذهب أهل غرناطة،هو مذهب أهل الأندلس، المذهب المالكي،(٥) وكانوا لا يتساهلون مع مَنْ غيره،"فان ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه،وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه".(٦) فقد كان أبو جعفر أحمد بن صابر القيسي (٧) يرفع

---

١ - نبذة العصر ٩٣ - ٩٤ ، نفح الطيب ٤ : ٥٢٠ - ٥٢١ ، لقط الفرائد ٢٧٠ .

٢ - نبذة العصر ٩٧، نفخ الطيب ٤: ٥٢٢ ، لقط الفرائد ٢٧١ وبسطة Baza تقع قرب وادي آش، وهي منيعة ذات أسوار، تابعة لجيان ؛ الروض المعطار ١١٣ ؛ الاحاطة ١: ٥١١ ، حاشية ٦ تقع شمال شرق غرناطة .

٣ - نبذة العصر ١٢٥ ؛ نفح الطيب ٤: ٥٢٥ ، أزهار الرياض ١: ٦٥ وقد ذكر المقري في أزهار الرياض أنه قرأ للوادي آشي أن تسليمها كان في محرم ٨٩٧هـ. وقد يكون ذلك ابتداء المفاوضات لتسليم المدينة التي اسفرت عن تسليمها في شهر ربيع الثاني من السنة ذاتها .

٤ - الاحاطة ١: ١٤١ .

٥ - نفسه ١: ١٤١ .

٦ - احسن التقاسيم ٢٣٦ .

٧ - هو أبو جعفر أحمد بن صابر القيسي كاتب مترسل ، شاعر ، حسن الخط ، على مذهب أهل الظاهر ، خرج إلى مصر وسمع بها الحديث ، وكان نبيلا فاضلا كتب للسلطان أبي سعيد فرج بن الأحمر ، انظر ترجمته في المنهل الصافي ١: ٣١٧ ؛ نفح الطيب ٢: ٦٥٥-٦٥٦ ؛ الدرر الكامنة ١: ١٤٠ .

يديه في الصلاة على مذهب أهل الظاهر، فتوعده سلطانه بقطع يديه، مما أدى إلى هروبه من الأندلس (١)، خشية البطش به.

وكان للفقهاء حضور مميز في غرناطة، يشاركون في الحكم وصياغة القرارات، وكان الحكّام يهتمون ببعض رجال الدين، والتبرك بهم. فجعفر بن أحمد بن علي الخزاعي كان متصوفا على طريقة الحسين بن منصور الحلاج، وكان له جماعة يشايعونه " ... وربما استدعاهم السلطان إلى مقره في لطايف نعيمه، باخشيشانهم، مُبْدياً التبرك بهم". (٢)

وكانت الجماعات الاخرى التي لا تدين بالاسلام تستوفي حقوقها حسب ما هو معروف بالشرع، إلا أنهم أُبْعدوا عن وظيفة الجباية، لما لها من مدلول ديني. فالسلطان اسماعيل بن فرج جعل لليهود شارة يُعْرَفون بها، عبارةً عن "شواشي صُفر" ليوفيهم حقوقهم. (٣) وقد عومل اليهود معاملة جيدة في غرناطة، فقد استقبل السلطان محمد الخامس ثلاثمائة عائلة يهودية فرت من الدول النصرانية، بسبب اضطهادهم، فآنس روْعَهم، وهدّأ خواطِرَهم. (٤)

أما النصارى فلم يعد لهم وجود في عصر بني الأحمر، إلاّ ما كان يَفدُ إلى المملكة من تُجّار وسفراء من الدول المجاورة (٥)، أما مَنْ أسلم منهم، فقد سُمُّوا بالمماليك، وكان لهم دور مميز في القصر، كما تَسنَّموا أعلى المراتب، أمثال القائد أبي النعيم رضوان. (٦)

---

١ - الإحاطة ١: ١٤١ .

٢ - الإحاطة ١ : ٤٦٨ ، هوجعفر بن أحمد بن الخُزاعي توفي عام ٧٦٥هـ ، انظر ترجمته في الإحاطة ١ :٤٦٧ - ٤٦٨ .

٣ - اللمحة البدرية ٤١، الإحاطة ١ : ٣٩٦ ، والشواشي عبارة عن غطاء يوضع على الرأس .

٤ - غرناطة في ظل بني الاحمر ١١٦ - ١١٧ .

٥ - د. عبد العزيز الأهواني، الزجل في الأندلس، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية ١٩٥٧م، ص ١٢٠

٦ - أبو النعيم رضوان رومي الأصل، رسم له الحجابة والوزارة والنيابة أبو عبد الله محمد بن ابي الوليد ٧٢٥-٧٣٣هـ ، كان عارفا للسياسة ، مكرما للعلماء متركا للهوادة، أحدث المدرسة العظمى بغرناطة - بأمر من السلطان ابي الحجاج يوسف الاول ، ولم تكن بها بعد ت ٧٦٠هـ، انظر ترجمته في الإحاطة ١ : ٥١٩

وكانت المرأة في عصر بني الأحمر ذات نفوذ كبير. ولم يلتزم المجتمع تجاهها حدودا صارمة، فقد كانت تشارك في الحياة العامة، وربما فصلت بين المتخاصمين: "يحكى أنه كان بلوشة قاض له زوجة ظريفة، وكان أهل الخصومات ربما جاءوا فلم يجدوا القاضي، فيتحاكمون إليها فتفصل بينهم كما يجب".(١) كما كانت تشارك في المناسبات العامة. كاستقبال السلاطين في زياراتهم للأقاليم ، فقد استُقبِل السلطان محمد الخامس في احدى زياراته لوادي آش حيث :"اختلط النساء بالرجال، والتفّ أرباب الحِجابريّات الحجال"، (٢) وهُنّ في ذلك "لا يمنعهن مانع"(٣)، أما التّبرُّج فكانت النساء تُغالي فيه بدرجة كبيرة، حتى قال عنهن لسان الدين بن الخطيب(٤) "... فقد بلغن من التفنُّن والزينة لهذا العهد، والتماجُن في أشكال الحُلي، إلى غاية نَسأل الله أن يغضّ عنهن فيها عَيْن الدهر ".

وعلى الرغم من صراع البقاء الذي كانت تعيشه غرناطة، إلا أن الثقافة والأدب لم يخْبُ نورهما، وكان لسلاطينها أثر واضح في تشجيع الثقافة والأدب، فقد كان جُلُّهم لهم اهتمام ومشاركة في الأدب والثقافة، فأبو عبد الله محمد بن يوسف ٦٢٩-٦٧١هـ" يفهم الشعر، ويكثر مطالعة التاريخ ". (٥) والسلطان محمد الثاني ٦٧١-٧٠١هـ " يقْرِضُ الشعر، ويُؤثر الشُعراء والكُتّاب". (٦) كما يوجد للسلطان أبي الحجاج يوسف الثالث ٨٠٩-٨٢٠ هـ ديوان شعر. (٧) وكان للهبات والصِلات التي يغدقها السلاطين والأمراء على الشعراء والأدباء أثر كبير في وفود هؤلاء على الحَضْرة، فمحمد بن الحاج البضيعة (٨) " كان يتردد على الحضرة مسترفداً ومنشداً "(٩)، كما اشتهر من الشعراء ما ذاع صيته في الشرق والغرب،

---

١ - التنسي ، محمد بن عبد الله بن عبد الجليل ت ٦٩٩هـ ، نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، تحقيق نوري سودان ، فرانس شتاينر بفسبادن ١٩٨٠ ، ق٤ : ٣١٤ - ٣١٥ ولوشة Loja من اقليم البيرة، بينهما ٣٠ ميلا، انظر الروض المعطار٥١٣، وهي على نهر شنيل اللمحة البدرية ص ١٨ - بينها وبين قرطبة عشرون فرسخاً وبينها وبين غرناطة عشرة فراسخ. معجم البلدان ٥ : ٣٠ وهي غربي غرناطة ، على بعد ٥٠ كم منها . انظر : الاثار الاندلسية الباقية ص ٢٣٥ .

٢ - ابن الخطيب ، لسان الدين ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد الاندلس والمغرب ، وهي مجموعة من رسائله ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٥٠

٣ - المصدر نفسه ٤٤ .

٤ - الإحاطة ١ : ١٤٥ .

٥ - المغرب في حلى المغرب ٢ : ١٠٩ .

٦ - الإحاطة ١ : ٥٦٥ .

٧ - حقّق هذا الديوان .

٨ - ترجمته في الاحاطة ٢ : ٤٤٢ - ٤٤٣

٩ - الاحاطة ٢ : ٤٤٢

وربما أربوا على نظرائهم المشرقيين، أمثال لسان الدين بن الخطيب، وأبي الحسن علي بن الجيّاب، وأبي عبد الله ابن زَمْرك، وابن خاتمة (١)، وابن خميس(٢) الذي بَهَر المشرقيين بشعره أمثال ابن دقيق العيد (٣)، حيث كان عنده قصيدة جعلها بخزانة تعلو جلوسه للمطالعة ، وكان يُخرجها ، ويُكْثِر تأمُّلَهَا والنظر فيها. (٤) كما اعتنى الغرناطيون بالموشح ، إلا أن ذلك لم يكن منفصلا عمّن سبقهم، بل كان يسير على

---

١ - هو أحمد بن علي بن محمد بن علي بن خاتمة الأنصاري، يكنى أبا جعفر، من أهل المريّة، كتب عن الولاة ببلده، وتردد على غرناطة ، واتصل بسلاطين بني الأحمر، وكان بينه وبين لسان الدين بن الخطيب مراسلات، وله ديوان شعر، كما ألّف كتابا في الطاعون الذي حدث عام ٧٤٩ هـ، وذكر لسان الدين بن لخطيب انه كان "بقيد الحياة وذلك في الثاني عشر لشعبان /٧٧٠هـ. انظر ترجمته في: الإحاطة ١: ٢٤٧-٢٦٧؛ درة الحجال ١: ٨٦- ٨٨؛ ابن الأحمر أبو الوليد اسماعيل بن يوسف، نثير فرائد الجُمّان في نَظْم فحول الزمان، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر-بيروت ، ١٩٦٧م، ص ٣٣١-٣٣٢ ؛ نيل الابتهاج ٧٢ ؛ لسان الدين بن الخطيب ، الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه في الأندلس من شعراء المائة الثامنة ، تحقيق د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣، ص ٢٣٩؛ محمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت ص ٢٢٩؛ اسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد ١ : ١١٣ .

٢ - هو محمد بن خميس بن عمر بن محمد ... بن خميس الحجري ، التلمساني ، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن خميس ، من أهل تلمسان، رحل الى سبتة ، وثم إلى غرناطة عام ٧٠٣هـ ، واختصّ بالوزير ابي عبد الله بن الحكيم ، وله فيه امداح كثيرة ، وكان ابن خميس من فحول الشعراء، واعلام البلغاء، قعد لاقراء العربية بحضرة غرناطة ، ومال بآخره إلى التصوف، وجمع شعره أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الحضرمي وسماه " الدُرّ النفيس في شعر ابن خميس " . توفي لست من شوال ٧٠٨ هـ انظر ترجمته في الاحاطة ٢ : ٥٢٨ - ٥٦٢ ؛ نفح الطيب ٥ : ٣٥٩ - ٣٧٨ ؛ أزهار الرياض ٢ : ٣٠١ ؛ درة الحجال ٢ : ٢٧ - ٣٣ .

٣ - ابن دقيق العيد تقي الدين أبو الفتوح محمد بن أبي الحسن القشيري، ولد قرب ينبع بالحجاز ٦٢٥هـ ، كان من أذكياء زمانه، واسع العلم كثير الكتب، قلّ أن ترى العيونُ مثلَه ، عَزَل نَفْسَه عن القضاء غير مرة كلّ مرة يُسأل ويعاد . صنف شرح العمدة ، وكتاب الإلمام في الاحكام ، وله كتاب مطبوع " الإلمام بأحاديث الاحكام"، حققه محمد سيد المواوي ، دار الثقافة الاسلامية – الرياض ١٩٦٣ ، وتوفي ٧٠٢هـ . انظر ترجمته درة الحجال: ١٥ - ١٦ ؛ و الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد ، ٧٤٨ هـ ، تذكرة الحفّاظ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ص ١٤٨١ - ١٤٨٤ .

٤ - أزهار الرياض ٢: ٣٢٢؛ نفح الطيب ٥: ٣٧٠ .

النسق ذاته الذي اختطه أسلافهم، الا أن الموشح -في هذا العصر- تميز بطوله، فما كان حجم الموشح يَطُولُ كالقصيدة إلاّ في العصر الغرناطي. (١)

أمّا النثر الفني فقد كان لهم فيه باعٌ طويل ، من رسائلَ ومقامات وخطبٍ .. الخ ، إلاّ أنه كان يغصُّ بالصور والألوان البلاغية، والإسراف في السجع.

والكتابة غير الفنية لم تسلم هي الأخرى من ذلك -غالباً-. فالفِكرة تكاد تضيع بين تزاحم الألفاظ والصور.وتفنّنوا في هذه الصّنْعة. فأحمد بن الحسن الكلاعي(٢) كتب خطبة، لم يذكر فيها حرف الألف على كثرة تردده في الكلام(٣)، ولسان الدين بن الخطيب كتب رسالة التزم فيها حرف السين في كل لفظة.(٤) وهكذا فإن هذا النوع من الكتابة جاء استجابة لذوق ذلك العصر، فقد كانت تقاس جودة الأدب بما يحويه من ألوان بلاغية، وسَجْع، وصنْعة وإنْ كانت مُتكلّفة.

لم تنشأ عند الأندلسيين مدارس خاصة لتلقي العلوم، حيث كان المسجد هو المكان المخصّص للدراسة (٥) ، حتى جاء أبو الحجاج يوسف الأول ٧٣٣-٧٥٥هـ، وأمر ببناء المدرسة العظمى بغرناطة عام ٧٥٠هـ (٦)، وعملت مع المسجد في رَفْد مملكة غرناطة بالأدباء والعلماء ، وكانت بمنزلة جامعة -إن صح التعبير - تُدرِّسُ فنوناً من العلم.

وكان للأدباء والعلماء الأندلسيين مساهمات كبيرة في شتى العلوم، والمعارف والآداب، وألّفوا كثيراً من الكتب، فقد بلغ مجموع ما أحرقه النصارى عند تسلّمهم غرناطة مليون ونصف كتاب -تقريباً-، جُلُّها من الكتب الدينية. (٧) إلاّ أنّ العلوم الفلسفية لم يكن لها حضور في عهد بني الأحمر، وذلك لهجرة الكثير من العلماء منها،واستمرار سلطان الفقهاء على منتحلي هذه العلوم، والطعن على أصحابها. (٨)

---

١ - الزجل في الأندلس ١٤١ .

٢ - أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الكلاعي البلنسي يكنى ابا جعفر ، ولد بحدود ٦٥٠هـ ، كان خطيب بلده، نظم قصيدة في أصول الدين وله قصيدة القراءات سميت "لذة السمع في القراءات السبع" ت ٧٢٨ هـ، ترجمته في الدرر الكامنة ١: ١٢١-١٢٢، والإحاطة ١: ٢٩٥-٣٠٤ .

٣ - الإحاطة ١ : ٢٩٨ .

٤ - نثير فرائد الجمان : ٢٨٩ - ٢٩٢

٥ - د. احسان عباس، تاريخ الأدب الاندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٠، ص١٤١ .

٦ - الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ص ١٧٢، وقد ورد نص اللوحة المكتوبة آنذاك والخاصة ببناء المدرسة، وهي موجودة في متحف غرناطة كما ذكر المؤلف .

٧ - د. محمد عبده حتاملة، التنصير القسري لمسلمي اسبانيا في عهد الملكين الكاثوليكيين، ساعد في طبعه الجامعة الأردنية، ط ١، ١٩٨٠، ص ٦٠ .

٨ - د. منجد مصطفى، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، جامعة الموصل، ١٩٨٨، ص ١٩٤

فقد مُقِتَ الطبيب أحمد بن محمد الكِرِياني، (١) ذو الباع الطويل في صناعة الطب، لغلبة العلوم الفلسفية عليه. (٢) كما أن التشريعات التي كانت قائمة آنذاك كانت تقف سداً منيعاً لمن أراد الولوج في هذا المجال. (٣)

كما كان الاهتمام كبيرا في جميع مظاهر الحضارة وأفانينها، حيث كانت غرناطة، جمّاعة لطاقات أهل الأندلس من كل لون وميدان (٤)، كما أفادت من الفن الرسمي للموحدين -إلى حد ما-، والفنون المجلوبة من الشرق. (٥) وأبدع الغرناطيون في فنهم حتى بلغ ذروة التحرر والافتتان، فكثير من عناصر حضارة قشتالة، وهندستها المدنية، وفنونها الزخرفية الدينية، كانت -غالبا- قائمة على الاقتباس من الأندلس (٦)، وأن الصلبان والتيجان الملكية تزدان بنقوش عربية، وبعض الآيات القرآنية المحرفة. (٧)

وأهم معلم حضاري في غرناطة، الحمراءُ "ذلك الصرْح الذي يمثل ... عصراً بأسره، وحضارة بأسرها".(٨) وأهم ما فيها قصر الحمراء، الذي أبْدع فيها الصنّاع، أيّما ابداع، وازدانت جنباته بالنقوش والزخارف، وقد نقشت الأبيات الشعرية في ردَهاته، حتى يُخيّل للناظر أنه يحتوي ديوان شعر، يتغنى بجماله، وروعة بنائه. (٩) وسيبقى هذا القصر وما يحتويه من الزخارف والصور والنقوش" رمزاً خالدا للعمارة الاسلامية ولروعة الفن الاسلامي في الأندلس". (١٠)

---

١ - احمد بن محمد شعيب الكرياني ، من أهل فاس ، ومن اهل المعرفة بصناعة الطب، دخل غرناطة في عهد السابع من ملوكها أبي الحجاج يوسف الاول ، وحقق بها تغيير الأدوية المنفردة التي عزّ نظيرُها، وتهتّك في الكيمياء، والغالب عليه العلوم الفلسفية. ت ٧٤٩هـ انظر ترجمته في الإحاطة ١ : ٢٨٠ - ٢٨٥ .

٢ - الإحاطة ١ : ٢٨٠ .

٣ - المرقبة العليا ١٢١ ، وقد ذكر المؤلف الاحكام المتعلقة بمنتحلي هذه العلوم بشكل مفصل .

٤ - التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ٥٢١ - ٥٢٢ .

٥ - ج . س. كولان، الاندلس، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٠ ، ص ١٧٢ .

٦ - نهاية الأندلس ٥١٣ .

٧ - ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ص ٨٧ .

٨ - نهاية الأندلس ٢٨٨ .

٩ - انظر في وصف قصر الحمراء: نهاية الأندلس ٢٩٤ - ٢٩٨، أحمد أمين ، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط ٣، ١٩٦٩م، ٣: ٢٩٦، ورحلة في ربوع الأندلس ص ٣٦ .

١٠ - نهاية الأندلس ٥١٤ .

ومن المعالم الشهيرة في غرناطة القصر الذي شيده السلطان محمد الخامس حيث : "جاء في القصور الملكية فذا نسيج وحده، لم يُنْسج فيما شهدناه .... من هذه القصور ... على منواله ، ولا احتوى على مثال غيره ، تدخل الشمس الى جميع نواحيه ، لهندسة في عَمَلِه رائعة رائقة". (١)

١ - جنة الرضا ٢ : ٢٥، ووصف القصر في ٢: ٢٨، ويقول محقق جنة الرضا ان هذا القصر هو المسمى بالدشار، وهو مقر السبيكة الموجود في جنة العريف الموجود في الحمراء جنة الرضا ٢ : ٢٤ - ٢٥ هامش ١٠.

جدول سلاطين بني الأحمر ملوك غرناطة

الغالب بالله محمد بن يوسف بن نَصْر	٦٢٩ – ٦٧١ هـ
أبو عبد الله محمد الثاني بن محمد بن يوسف "الفقيه"	٦٧١ – ٧٠١ هـ
أبو عبد الله محمد الثالث بن محمد الثاني "المخلوع"	٧٠١ – ٧٠٨ هـ
نَصْر بن محمد بن محمد "أبو الجيوش"	٧٠٨ – ٧١٣ هـ
أبو الوليد اسماعيل بن فرج	٧١٣ – ٧٢٥ هـ
أبو عبد الله محمد الرابع بن أبي الوليد اسماعيل بن فرج	٧٢٥ – ٧٣٣ هـ
أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل	٧٣٣ – ٧٥٥ هـ
الغني بالله محمد الخامس بن أبي الحجاج يوسف بن اسماعيل	٧٥٥ – ٧٦٠ هـ
أبو الوليد اسماعيل بن يوسف	٧٦٠ – ٧٦١ هـ
أبو عبد الله محمد السادس بن اسماعيل بن نَصْر "البرميخو"	٧٦١ – ٧٦٣ هـ
الغني بالله محمد الخامس "للمرة الثانية"	٧٦٣ – ٧٩٣ هـ
يوسف الثاني بن محمد الخامس	٧٩٣ – ٧٩٤ هـ
محمد السابع بن يوسف بن محمد الخامس	٧٩٤ – ٨٠٩ هـ
يوسف الثالث بن يوسف الثاني بن محمد الخامس	٨٠٩ – ٨٢٠ هـ
محمد الثامن بن يوسف الثالث	٨٢٠ – ٨٢٢ هـ
الغالب بالله محمد التاسع بن نَصْر "الأيسر"	٨٢٢ – ٨٣١ هـ
محمد الثامن "للمرة الثانية"	٨٣١ – ٨٣٣ هـ
محمد التاسع "للمرّة الثانية"	٨٣٣ – ٨٣٥ هـ
أبو الحجّاج يوسف بن المَوّل	٨٣٥ – ٨٣٥ هـ
محمد التاسع "المرّة الثالثة"	٨٣٥ – ٨٤٨ هـ
محمد الأحنف	٨٤٨ – ٨٤٩ هـ
محمد التاسع "المرّة الرابعة"	٨٤٩ – ٨٤٩ هـ
أبو الحجّاج يوسف بن أحمد بن نَصْر	٨٤٩ – ٨٥١ هـ
محمد التاسع "المرّة الخامسة"	٨٥١ – ٨٥٨ هـ
سعد بن الأحمر	٨٥٨ – ٨٦٨ هـ
أبو الحسن علي بن سعد	٨٦٨ – ٨٨٧ هـ
أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن	٨٨٧ – ٨٨٨ هـ
أبو الحسن علي ين سعد "المرّة الثانية"	٨٨٨ – ٨٨٨ هـ
أبو عبد الله محمد بن سعد "الزغل"	٨٨٨ – ٨٩٢ هـ
أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن "المرّة الثانية" وعلى يده سقطت غرناطة وانتهى حكم بني الأحمر.	٨٩٢ – ٨٩٧ هـ

الفصل الأول

- الرسائل الديوانية في عصر بني الأحمر المفهوم والشكل والأهمية

- ديوان الإنشاء وتراتيبه في غرناطة في ظل بني الأحمر

اعتنى المسلمون بالكتابة منذ بداية دعوتهم ، وأعطوها جلّ اهتمامهم ، حتى أصبحت " هي الحرفة التي لا يليق بطالب العلم سواها ، ولا يجوز له العدول إلى ما عداها". (١) وعدّوها " من أشرف الصنائع وأربحها " .(٢) وكلام الكُتّاب " أشرف بضاعة " .(٣) وفاضلوا بين الكاتب وصاحب السيف وجعلوا الفضل للكاتب إذ " أن صاحب السيف يزاحِم الكاتبَ في قلمِه ، ولا يزاحمه الكاتبُ في سيفه " (٤) .

ومع مرور الزمن وتطور الدولة الاسلامية ازداد اهتمام المسلمين بالكتابة ، وألّفوا فيها المؤلّفات المتخصّصة ، مثل كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة الدِّينَوريّ (٥)، الذي تحدث فيه على ما يتوجب على الكاتب معرفته لتستقيم كتابته . وأصبح للكتابة مَدلولُها الخاص، وصارت رُكْناً رئيساً من أركان أجهزة الدولة، إذ لا تستطيع الدولة أن تستغني عن التوثيق- بعد أن اتسعت رقعتها، وتعددت مهامها،وعلاقاتها-لتقييد كلّ ما يصدر عنها في تصريف أمورها في كافة المجالات،المالية والإدارية والعلاقات الخارجية...الخ، وفي السلم والحرب.

وقد قَسمّوا الكتابة الرّسمية إلى قِسمين، كتابة الرسائل وكتابة الاموال .(٦) لتختصّ كلٌّ واحدة منهما بمهمات محددة، من مهام الدولة وأعمالها . وعدّوا كتابة الرسائل والإنشاء أفْضلَ مراتب الكتابة .(٧) ، و "هي بمنزلة سلطانها، وانسان عينها". (٨) كما كانت " أعلى مناصب الوجاهة وأعلى مراتب النباهة". (٩)

وقد خصّ المسلمون الرسائل الرسمية بديوان سَمّوه ديوان الرسائل ، ثم تطور فيما بعد إلى ديوان الإنشاء .(١٠) ، بعدما تعددت مهماته، وأصبح لا يقتصر على كتابة الرسائل فحسب، بل

١- صبح الأعشى ١٤: ١٢٦ . ٢- المصدر نفسه ١ : ٣٠ .

٣- ابن الأحمر ، أبو الوليد اسماعيل بن يوسف ٨٠٧هـ ، مستودع العلامة ومُستَبْدع العلاّمة ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ١٩٦٤ ، ص ١٧ . ٤- صبح الأعشى ١ : ٦٧ .

٥- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ، ٢١٣هـ ، أدب الكاتب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ط ٤ ، ١٩٦٣ م .

٦- نَفح الطيب ١ : ٢١٧ ، صبح الأعشى ١ : ٨٤ ، وقد ذكر الحريري في مقامته الفراتية " أن صناعة الإنشاء ، ارفع وصناعة الحساب انفع " انظر : الحريري ، القاسم بن علي ، مقامات الحريري ، دار صادر ، بيروت ١٩٩٢م ، ص ١٨٤ ، والمقامة موجودة من صفحة ١٨٢ – ص ١٨٩ .

٧- علي بن خلف الكاتب ، مواد البيان ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية ، طبع بالتصوير عن مخطوطات (فاتح ٤١٢٨) ، مكتبة السليمانية ، استنبول ص ٣٠

٨- صبح الأعشى١ : ٣٠ ،كما ذكر القلقشندي تفضيل كتابة الإنشاء على غيرها في المصدر نفسه ١٤ : ١٦٢

٩- المَوْصلي ، موسى بن حسن ٧٠٠هـ ، البُرْد الموشّى في صناعة الإنشا ، تحقيق د. عفيف سيد صبرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٠ ، ص ٤٥ . ١٠ – صبح الأعشى ١: ١٥، ١: ١٢٤

اصبح يضم جهازا مستقلا،كل واحد يختص بمهمة محددة،مثل الكتابة والمراجعة والختم ...الخ، كما سيأتي ذكره في تراتيب ديوان الإنشاء في هذا الفصل ان شاء الله . كما كان يوجد دواوين اخرى في الولايات والأقاليم التابعة للدولة، أو ما يختصُ بشيء مُحدَّد مثل ديوان الجُنْد، وديوان الخراج، وغيرها،وكان يصدر عنها كُتب ورسائل تُعَدُّ بمفهومها العام رسائل ديوانية، باعتبارها رسائل صادرة عن ديوانٍ رسميٍ تابع لإحدى الخُطَط التي تَختَصُ بتسيير شؤون الدولة الداخلية، فيما يخصُ مَجال عملها. إلا أنها تحتاج في كثير من الأمور الى موافقة السلطان، أو نائبه على ما يصدر عنها من كتب ورسائل، لذلك كانت هذه الدواوين تصدر في تلك الامور المخاطبات الى السلطان الذي يقوم بدوره في التوجيه المناسب لذلك، وفي ورود هذه المخاطبات وتصديرها يكون ديوان الإنشاء في الحَضْرة هو المسؤول عنها. (١)

ولم تقتصر الرسائل الديوانية على الكتب المُرْسَلة الى الدول المجاورة، سواء أكانت تهنئة، ام استنجاداً، أم رداً على رسائل تلك الدول فحسب، بل تشمل المعاهدات التي تعقدها الدولة، مع تلك الدول، والظهائر الرسمية التي تُعنى بإشغال المراتب الادارية، أو التكليف بمهمة محددة يوكلها السلطان إلى أحدهم ليقوم بأمر ما نيابةً عن السلطان. لذلك فان ما يصدر عن ديوان الإنشاء من رسائل لا يتعلق بأمور الدولة الداخلية فحسب، بل يتعلق أيضا بالعلاقات الخارجية وسياسة الدولة تجاه غيرها من الدول. فما يصدر عنه أعمُّ وأشملُ مما يصدر عن الدواوين الأُخرى. لذلك فسوف تقتصر هذه الدراسة على تلك الرسائل الصادرة عن ديوان الإنشاء بالحضرة، لان في ذلك ما يَفي بالحاجة والغرض، ويعطي الصورة الواضحة والكاملة، على خِلاف ما يصدر عن الدواوين الأُخرى على أهميتها.

كما لم تقتصر الرسائل الديوانية الصادرة عن الحضرة على الرسائل المكتوبة فحسب، بل كان هناك رسائل شفوية ينقلها مندوبو السلطان وسفراؤه الى الدول الأخرى، لذلك فهي رسالة ديوانية، وإنْ لم تُكْتَب باعتبارها صادرة عن السلطان/ فقد بعث سلطان غرناطة رسالة شفاعة الى سلطان المغرب يتشفع بها الى ابي عبد الله محمد بن محمد المقَّري(٢)، وذكر خلالها

١- صبح الأعشى ١ : ١٢٤ .

٢- هو أبو عبد الله محمد بن محمد المقَّري ، تلمساني المولد والمنشأ ، فاسي المسكن، كان عالما، نبيها ذكياً مكبٌ على الدّرس والقراءة ، يقوم أتمّ القيام على العربية والفقه والتفسير ، ويحفظ الحديث. له مشاركة في الأصلين والجدل والمنطق ، ويكتب الشعر ، مصيبا غرض الإجادة ، شرّق وحجّ ثم عاد الى بلده، ولي قضاء الجماعة بفاس ، ثم أُخّر عنها واستُعْمِل في الرسالة الى الأندلس ، وهناك عزف عن الخدمة وانقطع للعبادة. كان حيا عام ٧٨٤هـ . انظر ترجمته في الإحاطة ٢ : ١٩١ - ٢٢٦ نفح الطيب ٥ : ٢٠٣ - ٣٤١ ، نيل الابتهاج ٢٤٩ ، المرقبة العليا ١٩٦، وابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ، ٨٠٨هـ، التعريف بابن خلدون، ورحلته شرقاً وغرباً، تحقيق محمد بن تاويت الطّنجي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، للقاهرة ، ١٩٥١، ص ٥٩.

أنّ حاملي الرسالة سوف ينوبون عنه بمشافهة سلطان المغرب بهذا الغرض، حيث قال(١) : "وقد بعثنا من ينوب عنا في مشافهتكم بها" وفي رد سلطان مصر على رسالة الغني بالله سلطان غرناطة التي كان قد بعث بها اليه " ... فقد وصل رسول الحضرة العليّة إلينا ، وأدّى إلينا المشافهة الكريمة، ورسائل المحبة والمودة القديمة".(٢) إلا أنّ هذا النوع من الرسائل كان يُنقَل بمعناه، لا بلفظه وشكله وبذلك يصعب دراستها أدبياً، في حين تبقى مجالاً خصباً للدراسات التاريخية والاجتماعية، وغيرها. لذلك سيبقى مجال هذا البحث لا يتّسع إلاّ للرسائل المكتوبة فقط.

لقد تعرض الدارسون قديما لتحديد مفهوم الرسائل الديوانية فابن خلدون يقول إنها : "تعني المخاطبات لمن بَعُد عن السلطان،وتنفيذ الاوامر فيمَنْ حُجب عنه".(٣)في حين أن القلقشندي أعطى مفهوما لها أكثر وضوحاً وتفصيلاً، إذْ يقول إن المُراد بكتابة الإنشاء " كُلُّ ما رجع الى صناعة الكتابة، وإلى تأليف الكلام، وترتيب المعاني،من المكاتبات والولايات والمسامحات، والاطلاقات، ومناشير الاقطاعات،والهُدَن، والأمانات والأيمان وما في معنى ذلك ".(٤) لذلك نستطيع أن نجمل مفهوم الرسائل الديوانية بأنها تلك الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء ، متضمنة غرضا محددا، يكون فيها اسم السلطان او ما ينوب عنه صريحا أو ما يشير إليه،باعتبارها صادرة عنه، وبأمره،كما تتضمن اسم المرسل اليه صريحا، باعتباره المقصود بهذه الرسالة، ولا بد من كتابة تاريخ الرسالة، وعلامة السلطان عليها(٥) تلك هي أركان الرسالة الديوانية التي لا تستغني عنها ، حتّى اذا ما اجتمعت هذه العناصر معا ، عندها نستطيع أن نسمي هذه الرسالة بالرسالة الديوانية. أو هي الرّسالة التي تختصُّ بالعلامة السلطانية.

تُعَدُّ الرسائل الديوانية مصادر قيمة تؤرخ للدولة، وتبين علاقة الحاكم بالمحكوم، والعلاقات الاجتماعية، وعلاقة الدولة بالدول الاخرى، كَونها وثائق رسمية صادرة عنها، وتختصُّ بها، فهي تبيّنُ حالَ الدولة في الداخل، وسياستها الخارجية وهي بذلك من أهم المصادر وأفضلها التي يرجع إليها المؤرّخون، لدراسة فترة معينة، لدولة ما.

١-الإحاطة٢: ٢٠٠، والرسالة موجودة في الإحاطة ٢ : ١٩٧ - ٢٠٠ ،وفي ريحانة الكتّاب١ : ٣٥٣ - ٣٥٧

٢- صبح الاعشى ٧ : ٤٤٣

٣- ابن خلدون،عبد الرحمن محمد الحضرمي ، المقدمة ، تحقيق على عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي ، ط١ ، ١٩٥٨ ، ١ : ١٥٩ .

٤- صبح الاعشى ١ : ٨٤

٥- مقدمة ابن خلدون ٢ : ٦١٨

كما تَفْضُل غيرها من المصادر كَوْنها شاهد عصر تنبض بالحياة، ترصد للدولة سكناتها، وحركاتها، على الرُغم من أنَّ كلَّ رسالة منها تُكْتَب في أمرٍ ما، وغايتها محددة، قد لا يكون لها صفة الدوام فيما يَهمُّ الناس فيما بعد. (١)

وترجع أهمية الرسائل الديوانية إلى خطورتها، فهي لسان حال الدولة، وعليها يعتمد ترتيبها، وتسيير أُمورها، وتحديد علاقتها مع الدول الأُخرى، ولرُبما كانت وَبَالاً عليها اذا ما أُسيءَ انشاؤها، وقد تكون مصدر خَيْر ويُمْنٍ ومَنعةٍ اذا ما أُحْسِن انشاؤها، فعليها تَعتمِد هَيْبةُ الدولة، وتستند عليها أركانها " فبالكتابة والكُتّاب قامت السياسة والرياسة".(٢) كما أنّ كتابة الإنشاء هي: " قوام المُلْك، وضَبْط قواعده" وهي : "اليد التي بها الأَخْذ والعطاء، والمنع والإمْضاء، والبَسْط والقَبْض، والوَصْل والقطع، والسِّر والجَهْر، والنَّهْي والأمْر". (٣)

لم يكن عصر بني الأحمر أقلَّ اهتماماً من غيره في الكتابة الديوانية، فقد اعطوها جُلَّ اهتمامهم، ولأهميتها عندهم ضَمّنُوها مؤلَّفَاتِهم، باعتبارها ركنا هامًّا في الدولة، فلسان الدين بن الخطيب ألف كتابا سَمّاه " بُستان الدول " يحتوي على عشر شجرات، من بينها شجرة الكتابة، وكل شجرة تعني جهازا معينا في الدولة، مثل الوزارة والقضاء والحسبة ...الخ .(٤) وهي عندهم حِرْفَة كغيرها من الصنائع، ولعلها أفضلها، فعلي بن محمد بن فرج القيسي ت ٦٦٤(٥)، "تحرّف عمره في الكتابة السلطانية وكان أَنْفَذ أَهْل وَقْته فِيها " (٦). لذلك نجدهم كثيري الانتقاد على كاتب الرسائل، لا يتساهلون معه فيما لو خَلَّ بشيء من مقوماتها، ولا يغفرون له زَلّه، فهو عندهم محلُّ تعظيمٍ وإجلال ، ما دام يرتفع ويسمو في أسلوبه وعلمه، وعلى قدر ما يكون متمكّنا من أدواته. وإن نَقَص عن ذلك درجة : " لم يَنْفَعهُ جاهه ولا مكانه من سلطانه، من تسلُّط الألسُن في المحافل، والطعن عليه وعلى صاحبه." (٧) لذلك اعطوا هذا النوع من الرسائل جل عنايتهم واهتمامهم، حتى أنهم تخيّروا من الرسائل أجودَها، وأعلاها، وجمعوها في مَجْموع كما يُجْمَع

---

١ -د.عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦ ، ص٤٤٩

٢ - صبح الأعشى ١ : ٦٦ .

٣ - ابن الأثير ، ضياء الدين نصر الله ت ٦٣٧هـ ، المفتاح المنشا في حديقة الإنشا ، تحقيق هلال ناجي، الموصل ١٩٨٣ ، ص ١٤

٤ - نفح الطيب ٧ : ٩٧ - ٩٨ ؛ الإحاطة ٤ : ٤٦٠ ، والكتاب لم يصلنا .

٥ - هو علي بن محمد بن فرج القيسي ، يكنى أبا الحسن من أهل قيجاطة ، نزيل غرناطة ، كان كاتبا بارعا له مشاركة واعتناء بالحديث و الاسناد .. اعتنى بالاخذ من الشيوخ ، وكان على خيرة وسُنّة ، ومنافرة للبِدَع . انظر ترجمته في: ابن الزبير : أبو جعفر أحمد ، ٧٠٨ هـ ، صلة الصلة ، مكتبة خياط ، بيروت ، وهي نسخة مصورة ، ص ١٤٠ ترجمة رقم ٢٨٢ .

٦ - صلة الصلة ١٤

٧ - نفح الطيب ١: ٢١٧ .

ديوانُ شِعْر، لتعمّ فائدتُها الكُتّاب جميعهم، ويهتدوا بأسلوبها، وطرائق كتابتها، وما يناسب كلّ موضوع من الموضوعات من الكتابة. حتى لا يكون هناك مجال للطعن في الكُتّاب والانتقاص من مكاتباتهم، ومن هذه المجاميع رسائلُ أبي بكر محمد بن عبد الله بن الخَطّاب الغافقي(١)، التي جمعها احدهم، وقدمها لذي الوزارتين أبي عبد الله محمد بن الحكيم (٢)، (٣). وقد تُخيّرت هذه الرسائل بسبب أسلوبها الرّفيع المميّز، حَريٌ ممن يعاني الوظائف الرفيعة أن يَطّلع عليها، لمزيد فائدة قد يَحصُل عليها بسببها، لِما وقَع لابن الخطاب "في بعض رسائله من إصابة الأغراض، وإجادة المقاصد، السالم أكثرها من الانتقاد والاعتراض".(٤) ومن هذه المجاميع كتاب "رَيْحانة الكتّاب" للسان الدين بن الخطيب الذي جمع فيه الرسائل التي كتبها عن سلاطين بني الأحمر، وأصبح في المغرب"قبلة أرباب الإنشاء التي إليها يُصلّون".(٥) وكتاب كناسة الدكان للمؤلف ذاتِه وقد ذكر في مقدمته لهذه الرسائل الموجودة في الكتاب"... وفيها تحميد، وغرض للبلاغة سديد، وتاريخ لم يهتد اليه تقييد، وأساليب يَنْتفع بها كاتب الدول ويستفيد".(٦) إضافة إلى كثير من الرسائل المدوّنة والمبثوثة في بطون الكتب التاريخية، أو الادبية التي تختص بتلك الحقبة.

وكانت الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة –تكتب– غالبا على ورق أحمر، فقد ذكر القلقشندي أنه ورد إلى سلطان مصر رسالة من غرناطة مكتوبة على ورق أحمر، فكتب سلطان مصر ردا عليها ، يقول فيه (٧) " ... فانا نوضح لعلمه الكريم أن كتابه ورد علينا ... معربا لنا

١– هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن داوود، كان من أبرع الكتّاب خَطا وأدبا وشعرا، ومعرفة بأصول الفقه، كتب بغرناطة عن ملوكها، وبعد أن اختلت اموره، رحل الى تلمسان، وكتب عن امير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زياد توفي يوم عاشوراء٦٨٦ هـ، انظر ترجمته في بغية الروّاد١: ١٢٩، الإحاطة ٢: ٤٢٦ –٤٣٣

٢– أبو عبد الله ، محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم ... ابن الحكيم اللخمي ، رُنْدي النشأة ، اشبيلي الأصل، قدم حضرة غرناطة ايام السلطان محمد الفقيه ، فألحقه بكتّابه ، الى أن توفي ، وتولى بعده ولي عهده محمد المخلوع ، فقلده الوزارة والكتابة ، ولقبه ذا الوزارتين، واعطاه العلامة، كان كاتباً بليغا أديبا شاعراًحسن الخط، وكتابته مرتفعة عن شعره ، مولده برندة ٦٦٠ هـ ، وتوفي قتيلا يوم مقتل السلطان عام ٧٠٨ هـ. ترجمته في الإحاطة ٢ : ٤٤٤ – ٤٧٦ ، درة الحجال ٢ : ٩٣ – ٩٦ ، أزهار الرياض ٢ : ٣٤٠ –٣٤٧ ، وفيات الونشريسي ص ٩٩ ، يقول انه توفي قتيلا يوم عيد الفطر ٧٠٧هـ الكتيبة الكامنة ١٩٥ – ١٩٦ .

٣– مجلة دعوة الحق ، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، الرباط . العدد ٢٤٩ ، وقد عرض لهذا المجموع الاستاذ العلوي البلغيثي ص ٩٠ – ١٠٠

٤ – نفسه ٩٢

٥ – نفح الطيب ٦ : ١٦٤

٦ – لسان الدين بن الخطيب، كناسة الدكّان بعد انتقال السُكّان، تحقيق د. محمد كمال شبانة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٤٤.

٧ – صُبح الأعشى ٧: ٤٤٢ .

بحمرة لونه أنّ نسبته الى الحمراء".

كما ذكر لسان الدين بن الخطيب في بعض رسائله إلى ما يشير الى لون الورق المستعمل للكتابة، ففي رسالة الى سلطان مصر يقول : (١) " ولما ضاق نطاق الصبر ... أصدرنا هذه المخاطبة الحمراء، قد ورّد خدّها الخجل، وقصّر عن القيام بحضورها المرويّ، والمُرتجل." وفي رسالة أخرى الى سلطان المغرب : (٢) " ... وكتبنا هذا الكتاب، فلو ان حمرة لونه معتادة، حسب ما اقتضاه عرف وعادة، لقلنا خجل من تقصيره."

وقد يكون موضوع الرسالة –في أهميته – أحد دواعي استعمالهم الورق الأحمر في الكتابة. فمن قصيدة في رثاء أبي الحسن بن الجيّاب. (٣)

مَنْ للرقاع الحمر يجمع حسنها   خجل الخدود وصبغة الاحداق
تغتال احشـــــاء العدو كأنها   صفحات دامية الغرار رقــاق

وقال لسان الدين بن الخطيب في مخاطبة شيخه ابن الجيّاب (٤) :

بين السهام وبينَ كُتْبِك نسبةٌ   مهما يُصاب من العدو المقتل
وإذا أردتَ لها زيادةَ نسبـــةٍ   هذي وهذي في الكنانة تجعل

وقال يوسف الثالث سلطان غرناطة : (٥)

أنا الذي إن لاذ بـي خائف   صدعتُ بالحق على الباطل
أصـــدرها حمراءَ مرهوبةً   أمضى من المُرْهَفِ والذّابل

كما كتب ابن هذيل الفزاري (٦) للغني بالله (٧) :-

ليس يا مولاي لي من جابر   إذْ غدا قلبي من البلوى جذاذا
غيـــرَ صكٍّ أحمرٍ تكتب لي   فيه يمناك اعتناءً " صـحَّ هذا "

١-ريحانة الكتاب ١ : ٤٩٣   ٢- المصدر نفسه ١ : ٤٠٧

٣- نفح الطيب ٥ : ٤٤٦   ٤ - الإحاطة ٤ : ٥١٧

٥- أبو الحجاج يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، تحقيق عبد الله كنون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٢ ، ١٩٦٥، ص١٠١

٦- هو أبو زكريا يحيى بن احمد بن هذيل التجيبي،ارجذوني الأصل، كان آخر حَمَلَة العلوم العقلية بالأندلس ، وخاتمة العلماء بها ، من طب وهندسة ، وهيئة، وحساب وأصول وأدب، خدم بباب السلطان لصناعة الطب ، وقعد بالمدرسة بغرناطة يقرىء الاصول والفرايض والطب، لـه ديوان شعر اسمه "السليمانيات والعربيات" لم يصلنا، وله "الاختيار والاعتبار بالطب" و"التذكرة في الطب". توفي بالفالج ٧٥٣هـ ـ انظر ترجمته في نفح الطيب٥: ٤٨٧ –٤٩٧ ،الإحاطة ٤ : ٣٩٠ –٤٠١ ونثير فرائد الجمان٣٢٠– ٣٢٣ ، الدرر الكامنة ٤ : ٤١٢

٧ – نفح الطيب ٤ : ١٩ ، و" صح هذا" علامة سلطان الأندلس في عهد بني الأحمر

وقال لسان الدين بن الخطيب :(١)

وجهٍ غرست البَذْرَ فيه بنظرة   فياليت كفي مُتّعَتْ بجنى غرسي

كأن احمرار الخد تحت عذاره   علامة مولانا علىأحمر الطرس

وأيا كانت الاسباب الداعية لاستعمالهم اللون الأحمر في مكاتباتهم، فقد كان هذا اللون اضافة إلى المداد الاسود المستعملِ في الكتابة، يعطي جمالية شكلية تسر لها النواظر، لتشكّل مع جمالية البناء الفني للرسالة وحدة متكاملة من الفن والذوق الرفيع . فهذا صاحب مصر يذكر في رسالته إلى سلطان غرناطة تذوقه لجمالية الشكل بقوله " ... أن كتابه ورد علينا .. مُشَبِّها وَرْد الخدود والنقس فيه كالخال، أو شقائق النعمان". (٢) فقد شبه لون الورق بحمرة الخدود، وعليه الحبر كالخال على الخد. مما يدل على حس رفيع في تخيرهم لهذه الألوان ومزجها معا، لتخرج بأبهى حُلّة، وأجمل شكل.

إلا ان الغرناطيين لم يقتصروا في استعمالهم للورق الأحمر فحسب ، بل كانوا يستعملون الورق الأبيض أيضا، وفي ذلك لم ينسوا أبدا جمالية شكله والتغني به ، يقول لسان الدين بن الخطيب في مدح شيخه ابن الجياب : (٣)

تخالُ صباح الطِّرْسِ يَرْقم بالدُّجى   ويرقش بالمسك المفتّق كافورُ

فقد وصف بياض الورق، ومداد الكتابة بالليل المظلم، لتخرج بصورة جمالية، ذات مذاق خاص، يحبب الناظر اليه .

ولرُبّما كانت تسميتهم ببني الأحمر لغلبَة هذا اللوْن عندهم، إذ لم نجد في تسلسل نسبهم ما يشير إلى هذه التسمية في بداية أمرهم، بل كان يشار إليهم ببني نَصْر. فهذا لسان الدين بن الخطيب لم يذكرهم في مؤلفاته جميعها بنسبتهم لبني الأحمر، بل كان ينعتهم ببني نصر، وقد وَسَم إحدى مؤلفاته باسمهم، وسمّاه " اللمحة البدرية في الدولة النصرية"، وكتاب آخر "طرفة العصر في دولة بني نَصْر".

كما أن أحد المؤلفين المجهولين ألف كتابا باسمهم سماه " نبذة العصر في دولة بني نصر".

كذلك فإن الرسائل التي صدرت عنهم منذ بداية امرهم حتى القضاء على دولتهم لم تنعتهم ببني الاحمر، بل ببني نصر .

---

١ – ديوان الصيب والجهام ، والماضي والكهام ، ٦٤٨

٢ – صبح الأعشى ٧ : ٤٤٢ ، والرسالة موجودة في ٧ : ٤٤٢ – ٤٤٤ ، والنقس الحبر ، انظر مادة نقس معجم لسان العرب

٣ – ديوان الصيب والجهام ٥٣٨ .

لكننا نجد في كتاب البيان المغرب للمراكشي أن أحد العناوين الفرعية يذكرهم ببني الأحمر يقول العنوان:(١) " ذِكْر وصول الأمير أبي عبد الله بن الأحمر إلى غرناطة، واستيلائه عليها" ولربما كان ذلك من ناسخ الكتاب ، لأننا لا نجد في درج الكلام هذه التسمية، بل نجده ينعتهم ببني نصر حيث يقول عن غرناطة: "... أجمع أهلها على خلع ابن هود وبيعة ابن نصر" . وفي موضع آخر من الكتاب يقول : (٢) " وفي سنة ٦٣٩هـ قوي أمر الأمير محمد بن يوسف بن نصر ببرّ الأندلس ، وطاعت له بعض بلادها".

وقد جاءت تسميتهم ببني الأحمر فيما بعد عند ابن خلدون، والقلقشندي، واسماعيل بن الأحمر الذي كان يؤكد في ذكر نسبهم أنهم يعودون إلى بني الأحمر ، كلما مرّ ذكر لأحد سلاطينهم. (٣) وسار على هذا النهج من جاء بعدهم .

ومما يدلل على غلبة اللون الأحمر عندهم، خلاف استعمال الورق الأحمر في مكاتباتهم، أنّ قاعدة ملكهم الحمراء في غرناطة، وراياتهم حمراء، يقول أبو البقاء الرندي من قصيدة يمدح بها الغالب بالله أول سلاطين بني الأحمر .(٤) "

له الراية الحمراءُ يخفق ظلها ويعبق ريح النصر في نشره عرفا

وقال يوسف الثالث سلطان غرناطة :(٥)

لمن رايـة حمراء ترتاح بالنصر تطيف حواليها حُماة بني نصر

إلى جبلٍ للفتح يُصدق فالـه فبعد تولّي العسر لابد من يسر

كما أن بلدتهم الأصلية أرجونة Arjona من حصون قرطبة (٦)، وتعني اللون الأحمر .
وكانت الرسالة الديوانية في عهد بني الأحمر تكتب–غالباً– على صحيفة واحدة، يزيد طولها على عرضها قليلا (٧)، وعلى وجه واحد من الصحيفة، واذا زاد الكلام المراد كتابته عنها كتب في الحاشية (٨)، حيث كان الكاتب يترك حاشيتين عريضتين إلى يمين الرسالة، وفي أسفلها. (٩)

---

١ – البيان المغرب ٣ : ٣٣٦

٢ – المصدر نفسه ٣ : ٣٥٦

٣– نثير فرائد الجمان ٢٩٨ ومواضع اخرى في الكتاب .

٤ – ابن الخطيب ، لسان الدين الخطيب ، الإحاطة ، نصوص لم تنشر ، تحقيق عبد السلام شقور ، كلية الاداب ، المغرب ، ١٩٨٨ ، ص ٥ ، ومطلع القصيدة

أواصلتي يوما وهاجرني الفا وصالك ما أحلى وهجرك ما أجفا

٥ – ديوان ملك غرناطة ٦٥ .

٦ – العبر ٤: ٣٦٦ ، الإحاطة ٢: ٩٣ .

٧ – صُبح الأعشى ٦: ١٨٤ .

٨ – المصدر نفسه ٧: ٤١ .

٩ – غرناطة في ظل بني الأحمر ٧٨ .

وكان لهم في طيّ الرسالة وإقفالها طريقتان :-

الأولى : ان يُخَزَّم الكتاب بعد طَيّه طياً عريضا من وسطه، بواسطة سكين معدٌ لهذه الغاية، حتى تنفذ من طيات الكتاب، ويدخل فيه قطعة من الورق كالسير الصغير، ويُقْطع حرف هذه القطعة، ثم يلصق على ذلك بشمع أحمر، ويختمون عليه بخاتم مُعدٌ لهذه الغاية. (١)

والثانية : طريقة السحو، وهو أن يلصق مع الرسالة قصاصة من الورق، كالسير وتلف على الكتاب، ثم يلصق رأسها، بالشمع الأحمر ، قال ابو عبد الله ابن الحكيم :- (٢)

سَحْ الكتاب وعَنّه   واختُم على مُكَتَّه
واحذر عليه من مخا   لسة الرقيب بِجَفْنِه
واجعل لسانك سجنه   كي لا تُرى في سِجْنِه

وقد قال لسان الدين الخطيب في خاتم الكتب (٣):

الخَتْمُ يَحْفَظُ مضمُون الكتابِ به   وهو الدَّليلُ على مَضمُون عِزّتِه
قُفْلٌ مِنَ الشَّمع تُثنى العينُ هَيْبَته   فَضلاً عَنِ أن تَدْنو لحوزتِه

وذلك لأهمية مضمون الرسالة، وحتى يؤمن معها فَتْح الرسالة، والاطلاع على ما فيها (٤)، وبذلك لا تُفَضُّ إلا على يَد صاحبها .(٥) بعد ذلك يكتب عنوان المُرسل اليه - ان كان شخصا معينا - بِشَكْلٍ واضِحٍ ظاهرٍ، وتُكْتَب الألقاب ذاتُها التي في صَدْر الرسالة (٦)، والتي وسَمَ بها الكاتب المرسل اليه .

---

١ - صبح الأعشى ٧ : ٤١ ، مقدمة ابن خلدون ٢ : ٦٤٥

٢ - أزهار الرياض ٢ : ٣٤٦ ، وسحا الكتاب وسحّاه وأسحاه ، شدّه بسحائه / لسان العرب " سحا" ، وعنْ الكتاب، عَنْونه، لسان العرب مادة " عنْ ".

٣ - ديوان الصيب والجهام ٣٣٠ .

٤ - مقدمة ابن خلدون ٢ : ٦٤٥ .

٥ - غرناطة في ظل بني الأحمر ٧٨

٦ - صبح الاعشى ٧ : ٤١ وانظر عنوان الرّسالة الصادرة عن السلطان على بن أبي الحسن سلطان غرناطة ، إلى أحد قادة النصارى المؤرخ في ٢٤ ربيع ١ /٨٨٠ هـ عند : الامير شكيب أرسلان ، خلاصة تاريخ الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر بيروت،١٩٨٣ ص ٣١٨ - ٣١٩

" ديوان الإنشاء وتراتيبه في غرناطة في ظل بني الأحمر "

ذكر الدارسون أن أول من دَوّن الدواوين في الاسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١)، وأنّ ديوان الإنشاء أول ديوان وضع في الإسلام.(٢) وقد تطوّر هذا الديوان تطورا كبيراً، وازداد الاهتمام به، باعتبار ان " الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تنشأ عنه وتبدأ منه" (٣)، وبذلك فهو أهم ما يدور عليه محور السياسة للدولة. (٤)

وفي بلاد المغرب والأندلس لم يكن لديوان الإنشاء وجود،ولا عناية لهم به، منذ الفتح، حتى اذا ما استولى الأمويون على الحكم بالأندلس اتخذوا ديوان الإنشاء، واستخدموا بُلغاء الكُتّاب، وبعد أن استقر الأمر بيد بني الأحمر اخذوا بترتيب هذا الديوان، والعناية به، وأعطوه جُلّ اهتمامهم (٥)، وجعلوه ادارة مستقلة تابعة للسلطان، ومركزها قصر الحمراء، وكان اداتهم للاتصال بالشعب والولاة وغيرهم من الدول.(٦) وكانوا يحسنون انتقاء الكُتّاب الذين ينتظمون في سلكه . فلا يُعْهد به إلاّ لذوي الشرف والنباهة من الثقات. (٧) الذي يتساوى فيه الباطن والظاهر، وحَسُنَت سيرته، ونقت سريرته .

ولعلّ اهتمام بني الأحمر بديوان الإنشاء ، وحُسْن اختيارهم كتّابهم كغيرهم من دول المغرب، جعلهم مرهوبي الجانب في مخاطبتهم من الدول الاخرى، فلا يُخاطبهم ولا يكتب لهم إلا مَنْ تمرّس بالبلاغة والفصاحة فقد ذكر القلقشندي أن " الذي تراعى الفصاحة، والبلاغة فيه من المكاتبات من الأبواب السلطانية في زماننا مكاتبات ملوك المغرب، كصاحب تونس وتلمسان، وفاس، وصاحب غرناطة بالأندلس... ممن تشتمل بلاده على العلماء بالبلاغة وصناعة

١- الجهشياري : أبو عبد الله محمد بن عبدوس ٣٣١هـ ، الوزراء والكُتّاب ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري ، عبد الحفيظ شلبي ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٣٨ ص ١٦ القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي ، مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، الكويت ، وزارة الارشاد ، ١٩٦٤ ، ص ٣ : ٤٤٣

٢- صبح الاعشى ١ : ١٢٥

٣- نفسه ١ : ١٢٤

٤- هناء دويدري ، لسان الدين حياته وادبه ، واثر المشرق فيه ، جامعة دمشق ، كلية الاداب قسم اللغة العربية وآدابها ١٩٨٧ عبارة عن رسالة جامعية ، ص ١٥٦

٥- صبح الاعشى ١ : ١٢٨ - ١٢٩

٦- غرناطة في ظل بني الأحمر ، ٧٨

٧- لسان الدين ـ حياته وادبه ، ١٥٦

الكتابة".(١) وبذلك فقد كان لكتّاب بني الأحمر مدْرستهم الخاصة بهم بالإنشاء والكتابة يُحتذى بها، وقد ذكر المقّري في ذكره أبي الحسن بن الجيّاب:"... كان أبو الحسن بن الجياب رئيس كُتّاب الأندلس، وهم رؤساءُ غيرهم". (٢) فهم أئمتها والسابقون في ميدان حلبتها، لا يشُقُّ لهم فيها غبار. ولم يكن لهم ذلك لولا أنهم تَخيّروا من الكتّاب ما ذاع صيته، وطارت شهرته، وما يستحق هذه الرتْبة الجليلة والخطيرة، باعتبار أن "كُتّاب الرسائل تراجم الملوك" (٣) كما كان يسميهم الفرس، ولإنهم سند الدولة والمدافعين عنها في السلم والحرب، وهم الذين يقومون بالدعاية لها عن طريق المكاتبات التي تصدر عنهم الى غيرهم من السلاطين والملوك(٤)، فهم عُدّتهم ولسان حالهم، فقد قيل إن "الملوك أحوج الى الكتّاب من الكتّاب إلى الملوك"(٥)، "وهم السنة الملوك بكل أوان، ومقاول الدُول، وصدور كل ديوان، وأقلامهم المصيبة كم أذْهَبَتْ من مُصيبة ... فكم كتيبة جرّارة لم تزل نفّاعة ضرّارة، فضّ جَمْع جُموعها كِتاب" (٦)، وقد ذَكَر الحريري في مقامته الفراتية خطورة كاتب الإنشاء بقوله " ... المنشيء جهينة الأخبار ... وقلمه لسان الدولة ... وهو البشير والنذير، والشفيع والسفير، به تُستَخلص الصياصي، وتُملك النواصي، ويُقتاد العاصي ويستدن القاصي".(٧) كما ذكر علي بن خلف الكاتب أن "صاحب هذه الرُتبة هو لسان الملك الناطق بحججه، المترجم عن عقله ومقالته، وحِلية المملكة وزينتها، يرفع ذكرها، ويُعلي قدْرها، ويعظِّم خطرها، ويدلُّ على فضل ملكها ورئيسها، وهو المتصرف عن السلطان في الوعد والوعيد،والترهيب والترغيب والاحماد والاذمام،واقتضاب المعاني التي تقرُّ الوليَّ على ولايته وطاعته،وتُبعد العدو القاصي عن عداوته،ومعصيته."(٨) لذلك لم يَتبوّأ هذا المنصب إلاّ مَنْ يوثق بهم، حتى أصبحت في بعض الاحيان تَختَصُّ ببعض البيوتات، ممن عُجِم عودها،وأثبتت اخلاصها، وولائها لبني الأحمر؛ فمحمد بن أحمد بن جُزّي(٩) " لما فقد والده

١- صبح الاعشى ٦ : ٢٨٧
٢- ازهار الرياض ، ١ : ١٩٢
٣- الوزراء والكتاب ص ٣
٤- مقدمة البرد الموشي ص ٧
٥- صبح الاعشى ١ : ٧٣ ونقل ذلك عن ابن المقفع كما ذكر
٦- مستودع العلامة ١٨
٧- مقامات الحريري ، المقامة الفراتية ١٨٤ - ١٨٥
٨- مواد البيان ٤٦ - ٤٧ .
٩ - هو ابو عبد الله محمد بن محمد أحمد بن جُزّي الكلبي، من أهل غرناطة ، واعيانها، نشأ بكنف والده، مقصور التدريب عليه، ارتسم في الكتابة فبذّ جلة الشعراء، اكثارا واقتداراً، كان معتدلا في الكتابة، نشيط البنان، شرع في تأليف تاريخ غرناطة بعدّة اجزاء ، وانتقل إلى عدوة المغرب، وكتب عن بني مرين وهناك توفي ٧٥٧ او ٧٥٨ هـ ، وهو الذي الف رحلة ابن بطوطة، انظر ترجمته في : نفح الطيب ٥ :٥٢٧، الكتيبة الكامنة ٢٢٣ - ٢٢٨ ، درة الحجال٢ : ٢٦٥ ، الإحاطة٢: ٢٥٦ ، الدرر الكامنة ، ٤ : ١٦٥ - ١٦٦ ، أزهار الرياض ٣ : ١٨٩ نثير فرائد الجمان ٢٩٢ - ٣٠٧ .

ارتسم في الكتابة "(١)، وابو عبد الله بن الحكيم (٢) الذي تبوأ كتابة الإنشاء (٣) ومن بعده ولده ابو بكر بن الحكيم، (٤) (٥)، وأبو القاسم محمد بن الحكيم (٦)، كان كاتبا في ديوان الإنشاء. (٧) كذلك أبو عبد الله بن عاصم(٨)، كتب للسلطان محمد المخلوع (٩)، وأبو بكر محمد بن عاصم. (١٠) ومن بعده ولده أبو يحيى (١١) وقد ذُكِر في الظهير الذي ولاّه فيه السلطان قضاء الجماعة، ما نصه بعد ذكر أسباب هذا الظهير."... الى أن خصّه بالكتابة

١- الإحاطة ٢ : ٥٦ ٢- مرت ترجمته

٣- الإحاطة ١ : ٥٦٨ ، اللمحة البدرية ٤١

٤- هو الشيخ الوزير القائد الكاتب ابو بكر بن ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم، برز في الحديث وروايته، ودوّن الفهارس ، كان كاتبا بليغاً ، حسن الخط ، كتب بالدار السلطانية أكثرعمره، وله شعر دون مقداره ، توفي عام ٧٥٠ هـ ترجمته في الإحاطة ٢ : ٢٧٢ – ٢٨٠ ، الكتيبة الكامنة ١٩٥ – ١٩٦

٥- الإحاطة ٢ : ٢٧٣

٦ – هو ابو القاسم محمد بن محمد بن محمد بن الحكيم وهو ولد ابي بكر ، له أدب حسن الشارة ، ومعان لطيفة الاشارة،وكان حييًا خجولاً، ت٧٥٠هـ ،انظر ترجمته في الإحاطة٢ : ٢٦٧ ، الكتيبة الكامنة ١٩٦- ١٩٧

٧ – الإحاطة ٢ : ٢٦٧

٨- هو الشيخ الكاتب ابو عبد الله محمد بن محمد بن ابي عاصم القيسي ، من أهل غرناطة ، كتب بالدار السلطانية ، وناب عن كاتب السر ، حسن الخط ، اخلاقه سمحة ، وكان له شعر يتكلّف بنظمه . انظر ترجمته في الإحاطة ١ : ٥٧٧ ، الكتيبة الكامنة ١٧٢ – ١٧٤ ، الدرر الكامنة ٤ : ١٨٠ .

٩ – الإحاطة ١ : ٥٧٧

١٠ – هو ابو بكر محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم،ولد عام ٧٦٠هـ في غرناطة عين كاتبا في ديوان الإنشاء عام ٧٩٤ هـ لمدة عام،كما عمل قاضيا للجماعة في غرناطة توفي عام ٨٢٩هـ ترجمته في نفح الطيب ٥: ١٩-٢٢، لقط الفرائد ٢٤٣، نيل الابتهاج ٢٨٩

١١ – هو أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسي الأندلسي الغرناطي قاضي الجماعة بغرناطة ، وكان من أكابر فقهائها وعلمائها ، وقد قيل انه ابن الخطيب الثاني. ، له مؤلفات منها الروض الاريض(لم يصلنا)، وكتاب جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى ، ت ٨٥٧هـ . انظر ترجمته في ازهار الرياض ١ :١٤٥ ، نيل الابتهاج ٣١٣ ، هدية العارفين ٢ : ١٩٩ ، نفح الطيب ٦ : ١٤٨، شجرة النور الزكية ١ : ٢٤٨، اسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم، ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، طُبع بعناية وكالة المعارف الجليلة، ومطبعتها البهية ، ١٩٤٥م. ١: ٣٦٩ .

المولوية، ورأى له ذلك حق الأولويّة، إذ كان والده المقّدس-نعّم الله ثراه ومنحه السعادة في أخراه مشرّف ذلك الديوان، ومُعلّي ذلك الإيوان ... فحلّ ابنه هذا الكبير شرفا، الشهير سلفا مرتبته ... فهو اليوم في وجهها غُرّه، وفي عينها قُرّه". (١)

وقد تنافس بنو الأحمر مع غيرهم من الدول - خاصة عدوة المغرب - باستئثار خيرَة الكُتّاب، وضَمّهم إلى ديوان انشائهم، الذي أصبح عبارة عن مدرسة فكرية وأدبية، لما انماز به كُتّابهم من البلاغة، والأدب، والعلم والفكر. فقد كتب للغالب بالله محمد بن يوسف أول سلاطين غرناطة، أبو موسى بن تامحجلت (٢)، وعلي بن محمد الرُعيني (٣)، ومحمد بن عبد الله بن خطاب الغافقي. (٤) أما السلطان محمد الفقيه، فقد استدعى أحمد بن ابراهيم بن صفوان (٥) إلى الكتابة (٦) ، كما أن محمد بن أحمد بن شبرين (٧) تلقاه ذو الوزارتين ابو عبدالله بن الحكيم (٨) ونَظَمه مع الكُتّاب .

١- نفح الطيب ٦ : ١٥٩.

٢- ابو موسى بن تامحجلت ، عيسى بن يوسف بن أبي بكر الصنهاجي ، كان ذا حظ وافرٍ في الرواية والأدب والكتابة وقَرْض الشعر ، جيد الخط ، ضابطا ، وكان قد كتب عن سلاطين عَدوة المغرب ، توفي عام ٦٤١هـ . انظر بغية الرّواد ١ : ١٠٢

٣- هو علي بن محمد بن علي بن محمد عبد الرحمن الرُعيني، غلبت عليه الكتابة واعتمدها وتقدم فيها كتب لابن هود ، ثم لابن الأحمر ، ثم رحل الى مراكش فكتب لأمير سبتة، وقد كان محدثا ،عارفا بالرواية ، مشاركا في كثير من المعارف ، وكان ممن ختم به اهل الكتابة توفي عام ٦٦٦هـ انظر ترجمته في صلة الصلة ١٤٠ - ١٤١ ، الإحاطة ٤ : ١٦٣ - ١٦٧

٤- الإحاطة ٢ : ٤٢٧ ، وقد مرت ترجمة ابن الخطاب

٥- هو ابو جعفر أحمد بن ابراهيم بن احمد ويعرف بابن صفوان ، ولد عام ٥٩٢ هـ ، من أهل مالقة ، كان مشاركا في الفلسفة والتصوف ، له ديوان شعر جمعه لسان الدين بن الخطيب وسمّاه " الدرر الفاخرة ، واللجج الزاخرة " لم يصلنا ، كتب عن محمد الفقيه ، وعن ابي الوليد اسماعيل ، وقلده العلامة ، ورياسة الكُتّاب . توفي عام ٧٦٣هـ . انظر ترجمته في الإحاطة ١ : ٢٢٩ - ٢٤٠ ، الكتيبة الكامنة ٢٢٣-٢٢٦ ،درة الحجال ، ١ : ٧٨ - ٧٩ ، نثير الجمان ١٣١ - ١٣٧ .

٦- الإحاطة ١ : ٢٣٠

٧- هو أبو بكر محمد بن احمد بن محمد بن شبرين، اصله من اشبيليه، ولد بسبتة، وانتقل إلى غرناطة، فارتسم في الكتابة السلطانية، وولي القضاء لعدة جهات، وشعره مُتعدد الأسفار، كثير الأغراض. ترجمته في: الإحاطة ١: ٢٢٩ - ٢٤٠ ، الكتيبة الكامنة ٢٢٣ - ٢٢٦ ، درة الحجال ١ : ٧٨ - ٧٩ ، نثير الجمان ١٣١- ١٣٧

٨- مرت ترجمته

وبعد ان استقام الديوان على عوده – بسبب حاجة الدولة له –، أصبح الولوج فيه عَصيّاً على الكُتّاب، ولربُما دخل الواحد منهم اختبارا، للانضمام في سِلْكه. فهذا ابن البناء (١) قدم من بلده يريد اللحاق بكتاب الإنشاء، بعد أن وَجد في نفسه ما يؤهله، من شعر، وذكاء، وطبع طليق، "وقد كادت وسائله ان تَنْجح ، ودليلُ رجائِه أن يُصبح، اغتاله الحِمَام ، وخانَتْه الأيام، وتوفي بالطاعون عام ٧٥١ هـ" (٢) وأبو القاسم الشريف الغرناطي (٣)، انتظم في سلك كتّاب غرناطة، لما كان له من الادب وصالح الأعمال، وغوامض اسرار العربية والرسائل السلطانية، فجذبه الشيخ ابو الحسن بن الجياب رئيس الديوان إليه " فقلّما كان به رَسْم الكتابة اذ ذاك يفنّن عن أدب معتبر"(٤)، لذلك فقد كان لابُدَّ من أن تتوافر في من يَرُوم اللحاق به بعض الشروط، تؤهله لذلك، سواء أكانت معرفّية أم شخصيّة ومن هذه الشروط :–

١– الإسلام : أي أن يكون الكاتب مسلما (٥) ، لئلاّ يكون عَيْنا على المسلمين لغيرهم، فيحصلون على ما يريدون، بأسهل طريقة، والوصول الى هدفهم عن طريق معرفتهم إلى مواطن الضعف والقوة في الدولة. والكاتب عن الدولة الاسلامية من أحوج الناس الى الاستشهاد بالقرآن الكريم، والأحاديث النبويّة الشريفة (٦)، لذلك نجد ان جُلّ الرسائل الديوانية عند بني الأحمر إنْ لم تكن كلها غنيّة بالآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة وأقوال الصحابة والتابعين، وهذا الأمر لا يتأتّى إلا لكاتب مسلم عالم، يستطيع أن يوظّف هذه الأمور في مكاتباته، ومحاوراته، وإيراد حُججه، وقد ذكر القلقشندي عن أبي فضل الصولي إن القرآن الكريم "...حِلْية الرسائل وزينة

١– هو علي بن محمد بن علي بن البناء يُكنّي أبا الحسن ، من أهل وادي آش ، توفي في الطاعون ، ولم يبلغ الثلاثين . ترجمته في الإحاطة ٤ : ١٦٧ – ١٦٩ ، نفح الطيب ٦ : ١٣١

٢– الإحاطة ٤ : ١٦٩ ، نفح الطيب ٦ : ١٣١ .

٣– هو أبو القاسم محمد بن احمد بن محمد الحسني السبتي، الشهير بالغرناطي، له كتاب "رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة"، وكان آية الله الباهرة في العربية والبيان والأدب، إلى العقل الذي لا يُدرك، والفضل الذي حُمِد منه المسلك . عمل قاضيا للجماعة بغرناطة وله ديوان شعر سماه " جهد المقل " لم يصلنا توفي عام ٧٦١هـ. انظر ترجمته في نفح الطيب،٥: ١٨٩– ١٩٧، الإحاطة٢: ١٨١– ١٨٧ والمرقبة العليا١٧١ – ١٧٧، ابن الخطيب ، لسان الدين محمد بن عبد الله، التاج المحلّى في مساجلة القدح المعلى، وهو ملحقٌ بكتاب ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب، تحقيق د. محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٨١، صفحة ٣٩٩– ٤٠٠. الديباج المذهب ٢٩٠، درة الحجال ١ : ٢٨٤ ، التعريف بابن خلدون ٦١

٤– المرقبة العليا ١٧١

٥– صبح الأعشى ١ : ٩٣

٦– الحلبي ، شهاب الدين محمود ٧٢٥هـ ، حُسن التوسّل إلى صناعة الترسل . تحقيق اكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٧٢ .

الإنشاء ات، وهـو الذي يشدُّ قويّ الكلام، ويثب صحته في الافهام، فمتى خلت منه، كانت عاطلة من المحاسن، عارية من الفضائل، لأنه الحجة التي لا تدحـض، والحقيقة التـي لا ترفـض "(١)، "وكفى بذلك مُعيناً في قَصْده ، مُغنياً له عن غيره".(٢)

٢- أن يكون الكاتب بالغاً عاقلاً، راشداً، فلا يجوز أن يتولى الكتابـة صبـي، دون سـن التكليـف لأنه لايعوّل عليـه (٣)، ولا يستطيع تدبير امور مكاتباتـه، لأنـه لم تكـن قد تـأتّت لـه التجربـة والحِنكة، ولقصوره قد يُدخِل الضّرر والوهن على المملكة، من حيث لا يَدْري. والصبـي لـم تكـن عنده الكفاية فيما يكتب، وما يدع وما يذر في المهمة التي يتولاها، والقيام بهـا أحسـن قيام، دون المساس بمصلحة الأمة والدولة، فمتى كان قادرا على ذلك، ذا عقل تام أدرك مدى خطـورة مـا يكتب، فيتجنب ما يؤدي إلى الضرر، ويتطرق الى ما فيـه منفعـة الدولـة، ومـا فيـه دفـع الضـرر، والشر عنها. كما أنه يتحرّى العدل في كتابته والدقة فيها، "لأنه لو زاد أدنى كلمة، أو حذف أيسـر حرف، أو كتم شيئاً قد عَلِمَه، أو تأوّل لفظاً بغير معناه، أو حَرّفه عن جهته، أدى ذلك إلـى ضـرر مَنْ لا يستوجب الضرر، ونفع من يجب الإضرار بـه، وكـان قـد مـوّه علـى الملـك، حتـى مـدح المذموم ، وذم الممدوح". (٤)

٣- كتمان السر : من أخص الادوات التي ينبغي توافرها في كاتب الإنشاء كتمـان السـر، وعـدم البوح بأسرار الدولة، واذا ما حصل ذلك ، وأفشى الكاتب سرا ، لحقه الاذى والضرر، ونـزل بـه أشد العقاب فقد ذُكِر أن السلطان أبا الحجاج يوسف الاول أمر رئيس كُتّابه أبا الحسن ابن الجيّاب، كتابة ظهـير باستبدال أبـي القاسم الحسني (٥)، عـن قضـاء الجماعـة بـآخر، فتلقـف الخـبر أحـد الكتّاب، وذهب إلى مجلس القاضـي، و أخبره بذلك أمام الجميع، شماتةً به وانتقامـا منـه، ظنّـا منـه أن الامر قد انعقد وتمّ، فما كان من القاضي أن أمر أعوانه بالقبض عليـه، وأودعـه السـجن، فلمـا سمع الخبر السلطان، امتلأ غَيْظاً على الكاتب النموم بسرّه، وصرّفـه عـن الكتابـة، وأقـرّ القـاضي على حكمه، وظلّ الكاتب سجينا حتى وفاته. (٦)

٤- حُسْن الخَطّ : إن حُسْن الخطّ من أفضل المهارات التي يجب علـى الكـاتب التّحلي بهـا "وان جودة الخط أوّل الأدوات التي ينتظم بحصولها اسم الكتابة".(٧)ومن أمثالهم "الخطّ نصف الكتابة، ورادءة الخـــط قـذىً في عَيْن القارىء" (٨)،و" الخـــط اذا كان جيداً،حسنا، بعث الإنسـان علـــى

١- صبح الأعشى ١ : ٩٣ ٢- حُسن التوسّل ٧٢ ٣- صبح الاعشى ١: ٩٧

٤- صبح الأعشى ١: ٩٧ ٥ - تقدمت ترجمته ٦- جنة الرضا ١ : ١٧٣ - ١٧٤

٧ - صُبح الأعشى ٣: ٢٦-٢٧ . ٨ - إحكام صنعة الكلام ٤٥ .

قراءة ما أُودع فيه، وان كان قليل الفائدة، وإذا كان ركيكاً قبيحا صرفه عن تأمل ما تضمنه، وان كان جليل الفائدة. "(١)

وقد خص بنو الأحمر الخط باهتمام كبير، وكان حسنه احد الشروط التي يجب على الكاتب امتلاكها، ان اراد الدخول في مضمار الكتابة السلطانية، فأحمد بن فركون (٢) "سبق أهل زمانه في حسن الخط ، سبقا افرده بالغاية القصوى ... اقتضى ذلك ...ارتقاؤه الى الكتابة السلطانية". (٣)

وكان الخط الأندلسي لجودته والعناية به ، تُنسب له بعضُ الخطوط، مثل الخط الافريقي (٤) آنذاك ، فكانت " خطوط أهل إفريقية كلها على الرّسْم الأندلسي". (٥)

كما اشتهر كثير من الكتاب بجودة خَطّهم، أمثال ابي عبد الله بن جزي (٦) ، فهو " ... ان كتب أربى عن ابن مُقلة" (٧)، وأبي عبد الله بن الحكيم (٨) كان " حسن الخط، يكتب خطوطا على انواع ،"كلها جَميلة الانطباع " (٩)، والخَضر بن ابي العافية. (١٠) كان " ظريف الخطّ ،"

١- مواد البيان ص ٣٢٤

٢- هو أحمد بن سليمان بن احمد بن محمد القرشي ابن فركون ، يكنى ابا جعفر ، مولده عام ٧٤٧هـ ، اختص بابن الخطيب ، واستعمل أولا في النّسخ ، ثم ترقى الى الكتابة ، وقد اشترك في نكبة ابن الخطيب ، مما أدى بابن الخطيب لهجائه في الكتيبة الكامنة ، بعدما اثنى على ذكائه وخلقه في الاحاطه . انظر ترجمته في الإحاطة ١ : ٢٢٨ ، الكتيبة الكامنة ٣٠٥ – ٣٠٧

٣- الإحاطة ١ : ٢٢٨

٤- كانت افريقية مملكه واسعة ، طولها من برقة شرقا الى طنجة غربا ، وعرضها من البحر الى أول بلاد السودان، وهي الان تضم تونس واجزاءً من ليبيا . انظر معجم البلدان ١ : ٢٠٧، البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى الشقار مطبعة لجنة التأليف الترجمة ، القاهرة، ط ١، ١٩٤٥، ١: ١٧٦، الروض المعطار ٤٧

٥ -مقدمة ابن خلدون ٣ : ٩٥٧ وقد ذكر المقدسي في احسن التقاسيم ص ٢٣٩ " ان خطوط اهل الأندلس كانت مدوّرة

٦ – مرت ترجمته ٧ – أزهار الرياض ٣ : ١٩٠

٨ – مرت ترجمته

٩ – الإحاطة ٢ : ٤٤٥

١٠ – هو الخضر بن أحمد بن الخضر بن علي بن عمر بن ابي العافية الانصاري الغرناطي ، من صدور القضاة ، ظريف الخط ، مجموع الادب ، شاعراً مكثراً، عمل في الكتابة أولا ، ثم ولي قضاء وادي آش ، وتوفي عام ٧٤٥هـ . انظر ترجمته في الإحاطة ١ : ٥٠٢

تصرّف أولاً في الكتابة" (١)وابراهيم بن قاسم النميري(٢) كان بارع الخط (٣)، لذلك قلّما نَجد كاتباً في ديوان انشاء بني الأحمر،لايتّصِف بهذه الصفة، على تفاوت خطوطهم في الشكل والهيئة
٥- التمكن من اللغة العربية التي هي اداة كتابته، ومعرفة صرفها ونحوها والتفقُه في علومها، ومعرفة غوامض أسرارها، كي يتسنى له تطويعها واستلام ناصيتها، لئلا يعتورها أي خطأ، فتكون عيباً عليه، والانتقاص من كتابته. وإنما كانت تستجاد الرسائل -آنذاك- بألفاظها، وحُسن سبكها، وكان يتبارى الكتّاب، بمقدرتهم على تطويع الالفاظ، وسرد أكبر عددٍ منها ودورانها حول معنىً واحد. كما ان عليه معرفة مقاصدها لتجتمع له فصاحة اللسان، وبلاغة العبارة، واصابة الأغراض، باستعماله الالفاظ الدّالة عليها. (٤)

والبلاغة من الامور المهمة التي يعوّل عليها كاتب الإنشاء(٥)، ولا يستغني عنها ، " ورُبَّ كاتب بليغ أصاب الغرض في كتابته، فأغنى عن الكتائب" (٦)، وحين يمتلك الكاتب البلاغة فانه يضع الاشياء في مواضعها، ويأتيَ بالكلام من وجهه، "والكاتب في هذا كله بِحَسْب ما يراه مناسبا لكل غرض ، فلكل واقعة مقال يليق بها لا يجوز تجاوزها، كما ان لكلّ واحدٍ من المخاطبين قدرا معروفا لا يليق به غيره، "(٧) فوجب على الكاتب تحري ذلك. فالملك له قدر، والوزير له قدر آخر، والكاتب كذلك ...الخ. فيعطي كل واحد من المخاطبين حقه في الألقاب والطبقات،وما يليق في طريقة المخاطبة:"فإن الألفاظ كالكُسى، وما كُلُ لفَظْة تليقِ بوزير، كما لا تَليق به كُلُ كُسوة". (٨) كما وجب على الكاتب الاطلاع على الفنون الأدبية المختلفة، (٩) ليفيد منها، ويرتقي بكتابته بسببها، فالرسائل والخطابة والمقامات مثلاً، فنون أدبية، لا يعدم المُطّلع عليها من فائدة يجتنيها، والكاتب من أولى الناس حاجة لمعرفتها، لما تحويه من أمور

---

١ - نيل الابتهاج ١١٠ - ١١١

٢ - هو ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن قاسم النميري ابن الحاج ، ولد بغرناطة عام ٧١٢ هـ كان اماما فاضلاً ، واديباً شاعرا، ارتسم في كتابة الإنشاء بغرناطة ، ثم رحل إلى الشرق وحجّ ودوّن خبر رحلته ، وكتب عن صاحب بجاّية ، ثم عن بني مرين ، توفي عام ٧٦٨هـ .

انظر ترجمته في : الإحاطة ١ : ٣٥٠ - ٣٥٢ ، المنهل الصافي ٨٦ - ٨٧ نثير فرائد الجمان ٣١٣ - ٣٢٠ الكتيبة الكامنة ٢٦٠ - ٢٦٩ ، ابن القاضي، أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر مَنْ حلَ من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ،١٩٧٤، ١ : ٨٧ ، الدرر الكامنة ١ : ٢٩

٣ - الدرر الكامنة ١ : ٢٩ - ٣٠ ٤ - صبح الاعشى ١ : ٩٨

٥ - مقدمة ابن خلدون ٢ : ٦٢٠ ٦ - صبح الاعشى ١ : ٩٨

٧ - ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق د. سمير الدروبي ، جامعة مؤتة ، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، ط١ ، ١٩٩٢ ، ص ١١٧ .

٨ - إحكام صنعة الكلام ٥٤ . ٩ - صبح الاعشى ١ : ٩٩ .

بلاغية، ومعرفية تُثْرِى حصيلته والكتابية، ويكون بها أكثرَ اقتداراً على التّصَرُّفِ في مكاتباته. ولاسيما أنّ البلاغة من الأمور المهمة التي نالت حظا وافرا من العناية عند العلماء العرب، وأعطوها حقها من البحث والتمحيص حتى كأنهم لم يبقوا شيئا لمستزيد . وكان الكتّاب أكثر الناس تمثيلا لها، وتدبيج مكاتباتهم ومؤلفاتهم بها، حتى قال عنهم الجاحظ (١): " ... أما أنا فلم أرَ قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب، فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكُن متوعّرا وحشياً. ولاساقطا سوقّياً" فمعرفة الكاتب لهذه الفنون، والادوات البلاغية تجعله ذا حصيلة معرفية صلبة ينطلق منها، فيختار لكل موقف ما يناسبه من حيث الشدة واللين، والاطناب والإيجاز، ومن حيث الترغيب والترهيب. وتخير الألفاظ والعبارات التي تصلح لكل موقف، فللاستغاثة طرائقها في المخاطبة، والمكاتبة، ولها استعاراتها وكنايتها، بخلاف التهاني والفتوحات مثلاً، وظهائر التعيين والولاية لها ادواتها ايضا بخلاف ظهائر العزل مثلاً، وهكذا فاطلاعه على نِتّاج مَنْ سبقوه، أو مَن عاصروه تزيده قوةً على قوة في كتاباته، فالنظر إلى رسائل المتقدمين دون حِفظها يؤدي الى " تنقيح القريحة، وارشاد الخاطر ... والنّسج على منوال المجيد، والاقتداء بطريقة المحسن ... واستدراك ما فات القاصر ، والاحتراز مما أظهره النقد، ورد ما بهرجه السَّبك " (٢)، وقد ذكر قدامة بن جعفر "... بل هنا وجوه قد كُتب أمثالها، ولها مذاهب يحتاج إلى معرفتها، والوقوف على رسومها ، ولا غنى بالكاتب عن الوقوف عليها". (٣)

ولما كان هذا العصر عَصْر صَنْعةٍ وتصنُّع، فلابد للكاتب من الإحاطة بعلمي البديع والبيان، كي يتسنّى له توظيفها في كتابته، والاتيان بها في مواضعها، فالاستعارة في موضعها خير من الكتابة في غير موضعها والجناس له موضع يَفْضُل غيرَ ه من الالوان البلاغية الأُخرى. كما أن السّجع كان السّمة الغالبة في ذلك الوقت، فكان لابد للكاتب أن يجيد ذلك، وبعكس ذلك يكون مثلبة عليه . فمثلا عاب ابن الخطيب الكاتب عبد الحق بن عطية المحاربي (٤)، بقوله: إنه

---

١ -الجاحظ،ابو عثمان عمرو بن بحر ، ٢٥٥ ، البيان والتبيين ، دار الفكر للجميع ، ١٩٦٨ ، ١ : ٩٥ – ٩٦

٢ – حسن التوسل ٩٣

٣ – قدامة بن جعفر، ابو الفرج بن قدامة بن زياد ، الخراج وصناعة الكتابة ، شرح وتعليق د. محمد حسن زبيدي ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، دار الرشيد للنشر. ص

٤ – هو عبد الحق بن محمد بن عطية بن يحيى بن عبد الله بن غالب بن عطية المحاربي. وُلِد بوادي آش عام ٧٠٩هـ وقد ولي فيها الخطابة والقضاء على حداثة سنه، ثم انتقل إلى غرناطة، وتقدم في الجامع الاعظم خطيبا واماما ، ثم ولي القضاء بالحضرة ، ثم انتقل الى الكتابة بغرض اعانة ابن الخطيب ، وبعد الثورة على الغني بالله عام ٧٦٠هـ تقلد العلامة ورياسة الكتاب . انظر ترجمته في الإحاطة ٣ : ٥٥٥ – ٥٦٩ ، نفح الطيب ٧: ٢٨٢ ، وابن الاحمر، أبو الوليد اسماعيل ، نثير الجُمان في شعر مَنْ نظمني واياه الزمان ، تحقيق د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٦ ، ص ١٣٨.

كان " من وسط الخطّ ، سوقي السجع". (١)

٧- وذكر بعض من ألّف في هذا المضمار ما يحتاجه الكاتب، فقد ذكر ابن مماتي في كتابه "قوانين الدواوين" أنه " ينبغي على الكاتب أن يكون أديباً، حاد الذهن، قوي النفس، حاضر الحس، جيد الحدس، حلو اللسان، شريف الأنَفَة، عظيم النزاهة، كريم الاخلاق ، مأمون الغائلة، مؤدب الخدام". (٢)

كما ذكر المرادي أن اقل ما يكون عليه الكاتب " أن يكون فصيح اللسان، حسن الخط، عارفا بالآداب، كاتماً للسر،فما أخل من هذه الصفات، كان وصَمْة في مُستكتبه،واخلالا في كتابته". (٣) اضافة إلى المعارف العلمية والشرعيّة التي قد يحتاج لها في كتابته. كما ذكر الكلاعي بعض صفات الكاتب بأن يكون "بعيد الهمة، نزيه النفس، حسن الهيئة". (٤)

إن بني الأحمر كانوا يحسنون انتقاء الكُتّاب، ممن تتوافر فيهم شروط الكتابة فالسلطان محمد المخلوع كان ببابه من كتّابه " جُملة تباهي بهم دسوت الملوك، أدباً وتفننا وظرفا ".(٥) ومَنْ يستقريء كتاب بني الأحمر ويقف على نعوتهم ، في كتب التراجم يجدهم مُتّحدين في البلاغة والادب، وحسن الخط، وسعة الاطلاع على المعارف الانسانية، العلمية منها والادبية، وذكاء القريحة ...الخ .

---

١ - الإحاطة ١ : ٤١١

٢ - صبح الاعشى ١ : ٩٩ -١٠٠

٣ - المرادي ، ابو بكر محمد بن الحسن ، كتاب السياسة او الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق د. سامي النشار، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط١ ، ١٩٨١ ، ص ٨٣ .

٤ - أحكام صنعة الكلام ٤٠ ، وانظر أيضا ابن شيث القُرشي : معالم الكتابة ومغانم الإصابة ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨ ، ص ٢٧ - ٤٢

٥ - الإحاطة ١ : ٥٧٧

تراتيب ديوان الإنشاء في عصر بني الأحمر

لما كان لديوان الإنشاء عند بني الأحمر أهمية خاصة ، فقد عملوا على ترتيبه ، وتوزيع الوظائف الكتابية والادارية فيه، على نحو يخدم الغاية التي أنشيء من أجلها . وعلى الرغم من أن احدا لم يتعرض للتقسيم الوظيفي لهذا الديوان، او ربما لم يصلنا نتاج من كتب عن ذلك . الا اننا لا نعدم رسم صورة توضيحية للسلم الوظيفي فيه، من خلال الإشارات الواردة في الكتب التاريخية والادبية ، وكتب التراجم ...الخ على النحو التالي :-

١- صاحب الديوان : فإن القلقشندي أشار إلى هذه التسمية في تقديمه لإحدى رسائل لسان الدين ابن الخطيب بقوله: (١)" وهذه نسخة كتاب كتب به عن أمير المسلمين السلطان أبي عبد الله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر" صاحب غرناطة من الأندلس، إلى السلطان الملك الأشرف شعبان ...انشاء الوزير ابي عبد الله بن الخطيب صاحب ديوان انشائه ".

وكان صاحب الديوان ذا حظوة كبيرة عند السلطان أكثر من غيره من أصحاب الوظائف الأخرى (٢)، لذلك كان تَخيُّره " من أرفع الطبقات، وأهل المروءة، والعلم، فإنه مُعَرّض للنظر فيما يعرض في مجالس الملوك،مع ما تدعو اليه عشرة الملوك من الآداب والفضائل"(٣). ويؤخرون من يَخِلُّ بشرط من شروط هذه الوظيفة المتقدمة ، على غيرها في الديوان عن رئاسته؛ فمحمد بن العابد الانصاري(٤)، تولّى كتابة الإنشاء للسلطان محمد الفقيه ، لكنه أخّره عنها لمعاقرته الخمر (٥)، وأقامه في عِداد كتّابه ، وجعل مكانه ابا عبد الله بن الحكيم. (٦)

كما اشترطوا فيمن يتولى هذه الخُطّة كتمان السر اكثر من غيره؛ لكونه ابتداء الاسرار، وانتهاءها بحكم اطلاعه على جليل الامور وحقيرها ، فهي مبسوطة بين يديه ، لا يكاد يخرج من غير معرفته شيء منها،وقد قيل إنه لا يجوز له افشاء السِّر وإن أذن السلطان له بذلك،بل يجعله

---

١ - صبح الاعشى ٨ : ١٠٨

٢ - المصدر السابق ١ : ١٣٥

٣ - مقدمة ابن خلدون ١٦٦ - ١٦٧

٤ - هو محمد بن محمد بن علي العابد الانصاري ، اصله من مدينة فاس ، كان اماما في الكتابة والادب واللغة والتاريخ والفرائض والحساب ، اختصر التفسير للزمخشري ، وازال عنه الاعتزال ، توفي عام ٧٦٢ هـ . انظر ترجمته في الإحاطة ٢ : ٢٨١ - ٢٨٢ ، جذوة الاقتباس ١ : ٢٣١ .

٥ - الإحاطة ٢ : ٩١

٦ - المصدر السابق ١ : ٥٦٨

"ميتاً مقبوراً في أحشائه".(١) قال أحد الشعراء يخاطب لسان الدين بن الخطيب، حين تولى ديوان الإنشاء (٢) :

وقام لها في ساحة العز كاتبا   بمحضرها أسرارها ومغيبها

كما خاطب أبو يحيى بن عاصم شيخَه قاضي الجماعة (٣) في غرناطة الذي طلب منه الاجتماع زمن فتنة ، ظنّا منه أنه يستخبره عن سرّ من أسرار السلطان، فاعتذر قائلا (٤) :

فَديتُك لا تَسأل عَنْ السرّ كاتِبــاً   فتلقاه في حالٍ من الرُشد عاطِلِ

وتضطره إما لخِيالة خائــــنٍ   أمـــانَتَه أو خائض في الأباطل

فلا فرق عندي بين قاض وكاتب   وشي ذا بسرّ ، أو قضي ذا بباطل .

وصاحب الديوان مسؤول عما يرد الى الديوان ، وما يصدر عنه ، ومراجعة ما يكتبه الكتبة بالتدقيق والتمحيص ، كي تخرج الرسالة كاملة ، كما يريدها ، دون نقص ، بسبب سهو أو خطأ فقد ذكر لسان الدين بن الخطيب (٥) : " وكان مما زيد في آخر الرسالة النبوية ، فصْل في استفتاح الجزيرة الخضراء، صدر عني املاء على الكُتّاب...وأُغفِل ذلك عن موضعه ".

ومن مهمات صاحب الديوان، الاشراف على تسطير الظهائر الملكية،الخاصة بالولايات، سواء اكانت للقضاء، أم العمال، أم قوّاد الجيش، ام الكتاب وماشاكلهم. (٦) إضافة إلى كتابة البيعات للسلاطين عند توليتهم ، لتتم بيعة السلطان على أساسها من قبل الفقهاء والعلماء، وقواد الجيش، وكبار رجال الدولة والشعب. ويكون شاهدا عليها، حاضرا بين يدي السلطان حين أخذ البيعة له، فلسان الدين بن الخطيب كتب البيعة المنعقدة على السلطان محمد الخامس بعد وفاة والده ابي الحجاج، وأخذ عليها خط المبايعين للسلطان يقول (٧) :" وكتب الملأ المذكورون اسماءَهم بخطوط أيديهم في هذا الكتاب،شاهدة عليهم بما التزموه دنيا ودينا،وسلكوا سبيلا مبينا".

---

١ – معالم الكتابة ومغانم الاصابة ٣٠.   ٢ – نفح الطيب ٦ : ١٠٣ .

٣ – قاضي الجماعة هو المسؤول عن جماعة القضاة، وهو اسم مستحدث، يوازي قاضي القضاة في المشرق العربي. نفح الطيب ١ : ٢١٨ و المرقبة العليا ٢١ .

٤ – جنة الرضا ١ : ١٧٢ ، نفح الطيب ٦ : ١٥٠

٥ – لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتّاب ونجعة المُنتاب، تحقيق د. محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، طـ ١، ١٩٨٠، ١: ٢٠٣ .

٦ – د. محمد كمال شبانة ، يوسف الأول بن الأحمر سلطان غرناطة، لجنة البيان العربي، مطبعة الرسالة، القاهرة ، ١٩٦٩، ص ٩٤ .

٧ – ريحانة الكتاب ١ : ١٢٦

وقد يجمع صاحب الديوان إلى خُطّته، خُطّة الوزارة (١)، ويسمى بذلك ذا الوزارتين، فقد تولى ابو عبدالله بن الحكيم الوزارة والكتابة للسلطان محمد المخلوع (٢)، كما تولى ذلك ابو الحسن بن الجياب (٣)، ومن بعده لسان الدين الخطيب (٤)، وأبو يحيى بن عاصم. (٥)

٢- نائب صاحب الديوان : حين كثرت المهام الموكولة لصاحب الديوان، ووفور الرسائل الواردة على الديوان. يقوم صاحب الديوان بتعيين نائب له، ينوب عنه اثناء انشغاله، ومساعدته في كثير من أعماله التي قد لا يستطيع الاشراف عليها كما يجب لكثرتها، أو حضور مجلس السلطان، وقد قام لسان الدين الخطيب بتعيين ابي محمد بن عطية المحاربي (٦) لمساعدته في ديوان الإنشاء .(٧) وقد اقتصر عمله على هذه الخطة دون غيرها. (٨) ولا تقل اهمية صاحب

---

١ - كان الوزير في دولة بني الأحمر يقوم بتنفيذ سياسة الدولة العامة ، وتقديم الولاة والعمال ، وقود الجيش ، فرضوان النصري " لما تولى الوزارة ، انفرد بالامر ، واجتهد في تنفيذ الاحكام ، وتقدم الولاة ، وجواب المخاطبات، وقواد الجيش " انظر الإحاطة ١ : ٥١٩ كما قدم محمد المخلوع ابن الحكيم للوزارة عام ٧٠٣ هـ " وصرف اليه تدبير ملكه، فلم يلبث ان تغلبت على امره، وقلّده جميع شؤونه" ، انظر الإحاطة ١ : ٣٣١ ومدح ابن عبد المهيمن الحضرمي ابا عبدالله ابن الحكيم بقصيدة عند توليه الوزارة ، يبيّن فيها مهمات الوزير :-

تخيرك المولى وزيرا وناصحا	فكان له مما اراد حصول
وألقى مقاليد الامور مفوضا	اليك بعدم من يمينك سول
وقام بحفظ الملك منك مؤيد	نهوض بما أعيا سواك كفيل
وساس الرعايا منك اروع باسل	مبيد العدا للمعتفين مقيل

انظر الاحاطه ٤ :١٦

أما الوزير في الأندلس فانه يختلف عما هو عليه في المشرق بان يضاف له خطه الإنشاء . يقول ابن خلدون عن الوزير بالأندلس "... واما الوزير فكالوزير ، الاّ أنه قد يُجْمع له التّرسيل " المقدمه ٢ : ٦١٢

٢ - الإحاطة ١ : ٥٥٧

٣ - نثير الجُمان ١٢٦

٤ - ازهار الرياض ١ : ٢٠٥ - ٢٠٦

٥ - شجرة النور الزكية ص ٢٤٨ وفيها يقول : انه تولى اثنتي عشر خطّة في وقت واحد منها القضاء والكتابة ، والوزارة والامامة والخطابة

٦ - مرت الترجمة

٧- الإحاطة ٢ : ١٧

٨- نفح الطيب ٧ : ٢٨٣

هذه الخطة من حيث شروط الاختيار لهذه الوظيفة ، ومن اهم هذه الشروط أن يكون " كامل الصنعة ، حَسَن الفِطْنة ، موثوقا به فيما يأتي ويذر " (١) كما يجب ان لا يكون اقل درجة من رئيسه ، وقد ذكر ابن الخطيب ان ابن عطية المحاربي كان"مُنتهى أطوار الرفعة". (٢)

٣- كاتب السر : لم تكن هذه الوظيفة مستحدثة عند بني الأحمر، اذ ان كتابة السر رتبة قديمة لها اصل في السنة (٣) ، وهي متداولة في جميع الاقاليم الاسلامية ؛ المشرقية والمغربية .

لم تشر المصادر لهذه الوظيفة عند بني الأحمر في ابتداء أمرهم ، ولعلها صفة لكل من يشتغل بالديوان من الكتّاب،يقول ابن القاسم النميري في وصف نفسه،وابتعاده عن الهجاء في شعره : (٤)

لي المدح يُروى مُنذُ كُنتُ كأنما   تصورت مدحا للورى وثناء
ومالي هجاءٌ فاعجبنّ لشاعر   وكاتب سرٌ لا يقيم هجاء

فقد نعت نفسه بكاتب السر، والمعروف أنه كان من جُمْلة الكُتاب في ديوان انشاء بني الأحمر، اذ انتظم فيه عام ٧٣٤هـ (٥) .

وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب بأنه كان منفردا بسر سلطانه ابي الحجاج " ومُفضي همه، وشفاء نفسه ، فيما ينكره من فتنة تقع في سيرته، أو تصيير توجيه السّذاجة في معاملاته". (٦) كما ان الغني بالله اتخذ ابا عبد الله بن زَمْرك لكتابة سرّه ، اثناء محنته التي طُرد فيها من مُلْكِه، فلما استعاده أقرّ ابنَ زَمْرَك على خُطّته. (٧)

بعد ذلك لم تُشِر المصادر الى هذه الوظيفة الديوانية ، وكأنها ارتبطت بصاحب الديوان ، لما لها من وضع وظيفي خطير، حيث يقول صاحب التعريف في المصطلح الشريف عن كاتب السر بأنه (٨) : " المستشار المؤتمن، والسفير الذي كلُ أحد بسفارته مُرتهن، وهو اذا كتب بناننا، واذا نطق لساننا ، واذا خاطب ملكا بعيد المدى عنواننا، واذا سدد رأيه في نحور الاعداء

١- صبح الاعشى ١ : ١٤٧

٢- الإحاطة ٢ : ١٧

٣- عبد الحي الكتاني ، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ، دار الكتاب العربي بيروت ١ : ١١٩ وقد ذكر أنه نقلها عن المقريزي في خططه

٤- الإحاطة ١ : ٣٥٥ ، جذوة الاقتباس ١ : ٩٢ ، الكتيبة الكامنة ٢٦٦ .

٥- الإحاطة ١ : ٣٥٠   ٦- المصدر نفسه ١ : ١٦

٧- المصدر نفسه ٢ : ٣٠٢

٨- التعريف بالمصطلح الشريف ١٥٧ - ١٥٨ .

سهمنا المُرْسَل وسناناً، فليتق الله في هذه الرتبة ". لذلك فمن الأجْدر أن تُضاف هذه الوظيفة لصاحب الديوان، حتى لا يكثر المؤتمنون على السرّ السلطاني .

وكاتب السر هو المسؤول عن جماعة الكتّاب بديوان الإنشاء ، وهو رئيسهم (١)، وقد لُقّب ابن زمرك بالرئيس (٢)، علّ ذلك كان وَصفاً له بسبب هذه الخُطّة. وقد ذُكِر في ظهير ابن زَمْرك " ... فوجب على من دون رتبته ، من أولي صنْعته أن يتبعه". (٣)

ولما كانت كتابة السر هي اعلى درجات الاختصاص، والرّفعة،وتَفْضُل غيْرَها من الوظائف الكتابية والإدارية، لابُدّ من توافر بعض الشروط في متوليها،فلا بد أن يكون جيد الخط ،بليغا، متحدثاً، قوي الحجة، ذا فكر ناقد وقريحة وقّادة، يقول ابن الخطيب عن ابن زمرك حين توليه كتابة السر أنه كان "مُضطلعاً بالخُطّة، خطاً وانشاءً، ولَسْنا ونقدا ،فحَسُنَ منابُه ". (٤)

وأهم شيء في كاتب السر هو الائتمان على اسرار السلطان ، ويجعل صدره قَبْرا لها ، لا يُطْلِع عليها أحدا . كما عليه الاضطلاع بأمور السلطان، كبيرها وصغيرها، رفيعها، ووضيعها، اضافة إلى ما يتطلبه من أمانة وعفاف ووقار. (٥) وهو بذلك المستشار للسلطان، يصدقه النصيحة، ويخلص له في سرّه وعلنه، في كل ما يقوم به .

٤- الكُتّاب : ضم ديوان الإنشاء، مجموعة من الكتاب لانجاز مهامه، بكل سهولة ويسر. وقد كان اختيار بني الأحمر للكتّاب لا تقل أهمية عن اختيارهم لصاحب الديون ... مثلاً ، من حيث العلوم المعرفية ، والبلاغية، والإنشائية، حتى ان كثيرا من الكتّاب قد ترقّوا الى رئاسة الديوان لما ابدوه من حذق ومهارة . فالكاتب محمد بن أحمد بن حيون (٦). كان كاتبا في ديوان الإنشاء ايام أبي الوليد اسماعيل٧١٣ - ٧٢٥هـ، "ومدة من بعده " وبعدها تقلّد خُطّة الكتابة (٧) وصاحب القلم الأعلى في المغرب أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي (٨)، كان كاتباً عند بني الأحمر،

١- المصدر السابق ١٥٨

٢- نفح الطيب ٧ : ١٦٨

٣- ريحانة الكتاب ٢ : ٨٤

٤- الإحاطة ٢ : ٣٠٢ ، أزهار الرياض ٢ : ٩

٥- انظر الظهير المخصوص بابن زمرك ، وموجباته في ريحانة الكتاب ٢ : ٨٤ - ٨٦

٦- هو محمد بن احمد بن محمد بن محمد حيون ، كان كاتبا في ديوان الإنشاء ثم قُلد القضاء والخطابة بالحضرة، واعقبها ولاية مالقة عام ٧٣٧هـ ، ثم عزل عن القضاء عام ٧٤٧هـ ، وتوفي عام ٧٦٠هـ انظر ترجمته في الإحاطة ٢ : ١٨١ - ١٨٢

٧- الإحاطة ٢ : ١٨٢

٨- هو عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي السبتي ، ابو محمد ، من اهل سبته ، انتقل الى غرناطة بعد احتلال ابن الأحمر لها ، وكان كاتبا مشهورا ، صاحب رواية وحديث ، دوّن الكثير من العلوم اتصل بأبي عبد الله بن الحكيم فنظمه في ديوان الإنشاء ، وقد عاد الى بلده بعد مقتل ابن الحكيم توفي عام ٧٤٩ أو٧٥٠ هـ: انظر ترجمته في: بغية الرواد ١ : ١٤- ١٥، الإحاطة ٤ : ١١ - ١٨ ، نثير الجمان ٢٢٣ - ٢٢٦، التاج المحلى ٤٠٣ ، جذوة الاقتباس ٢: ٤٤٤ - ٤٤٥ .

ثم انتقل الى المغرب بعد مقتل ابن الحكيم ، ليعيّن كاتبا لسلطانها وصاحب علامته .(١) ولسان الدين بن الخطيب ترقّى الى رئاسة الديوان عام ٧٤٩هـ بعد وفاة ابن الجيّاب، وقد كان ابن الخطيب من جملة الكتّاب مَرؤوسا بابن الجياب (٢)، ولرُبما أربى الكتّاب على رئيسهم في تمكُنهم من صَنْعتهم ، فهذا محمد بن خطاب الغافقي (٣)، ابتدأ يوما كتابا قال في خطبته يصف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم "عفوة العفوة"، وتركه لأمر عرض له،فنظر اليه الفقيه عمر اللوشي، وقد كان صاحبا للديوان ، فَظنّ أنه وهم واراد الصفوة، فأصلحه، فلما عاد ابن الخَطّاب نظر اليه فمزقه وكسر الآلة وقال:(٤) " لا أقيم بموضع بلغ فيه الجهل الى هذا القدر، ويتسوّر به الاصلاح، على قلم يطمع بَعْدُ في مقامه". وفي ذلك دلالة على حسن اختيارهم لكتّابهم، وتمكن هؤلاء الكتاب من ادواتهم . فمن ظهرت كفايته للكتابة لا يترددون في ضمه الى الكتابة. فهذا أبو القاسم محمد بن احمد بن قطبة الدوسي كان يشغل وظيفة ادارية في الديوان "فلما ظهر غناؤه" وتمكن من ادواته انتقل الى الكتابة (٥) وفي ذلك دلالة على الانتقال من الوظيفة الادارية إلى الوظيفة الكتابية.

وقد كانت توزع المهام على الكتّاب، ليختص كل واحد منهم بمهمة محددة، تغلب عليه دون غيره. ومن هذه المهام :-

أ- الإنشاء : يقوم بهذه الوظيفة مجموعة من الكتاب يوكل اليهم، انشاء الرسائل والكتب المختلفة والتي ربما طلبها منهم صاحب الديوان. وهم من أعلى الكتّاب منزلة في علومهم المعرفية والبلاغية والادبية، وأكثر مقدرة على توليد المعاني وتنميق الرسائل وتزيينها بالالفاظ الدالة على المعاني،واخراجها بأزهى حُلّة ، وابتكار طريقةٍ لكلّ رسالة في كتابتها ، تختلف عن غيرها ، وان كانت مشابهة لها في الغاية والهدف .

وعلى الرغم من أن أحدا لم يذكر هذه الوظيفة منسوبة لأحد معين ، الا ان ابن الخطيب ذكر في ترجمته لابن القاسم النميري نسبة هذه الخطة له عند صاحب بجاية، وكان قد كتب عن سلطان الأندلس (٦) وبما ان دواوين الإنشاء في كلّ من المغرب والأندلس متشابهة -إلى حد ما-في تراتيبها،بسبب اشتغال الكتاب في كثير من الاحيان بكلا الديوانين،فعلى سبيل المثال كتب ابن قاسم النميري عن سلطان الأندلس، ثم عن سلطان بجاية ثم عن سلطان

١- بُغية الرواد ١ : ١٤

٢- نفح الطيب ٥ : ٨١

٣- تقدمت ترجمته

٤- الإحاطة ٢ : ٤٢٦ - ٤٢٧

٥- نفسه ٢ : ٢٥٠

٦- الإحاطة ١ : ٣٥٢

المغرب (١) كذلك عبد الله بن لسان الدين بن الخطيب "كتب بالعدوتين عن ملوك الحضرتين" (٢)، وابن عبد المهيمن الحضرمي، وابن خطاب الغافقي ... وغيرهم كثير . لذلك لا بد من أن يتأثر ترتيب الدواوين بهؤلاء الكتاب، بسبب مراوحة خبرتهم بينها، فالتأثير والتأثرُ حاصلٌ بينها، كما أنه بسبب تفاوت الكتّاب في مقدرتهم الكتابية، واصرار السلاطين على اخراج رسائلهم بأحسن ما تكون عليه الحال، فلا بد من تولية هذه المهمة لأكثر الكتّاب مقدرة عليها. بل واعطاء كل واحد من كتّاب الإنشاء، بما هو أقدر عليه، واكثر معرفة به، فمنهم من يختص بمخاطبة الولاة، ومنهم من يختص بمخاطبة الملوك، ومنهم من يتولى كتابة الاستغاثة ومنهم من يتولى كتابة البشائر والفتوحات ... الخ. على أنه وجب على كُل واحد من هؤلاء معرفة القاب وخِلال كل واحد من هؤلاء المخاطبين ، لئلا يكون عيبا عليه وعلى سلطانه.

ومن الذين تولّوا هذه المُهمة ابن خطاب الغافقي، كما مر. (٣) والفقيه الكاتب أبو القاسم محمد ابن أحمد الحسني حيث "جعله السلطان من كتاب الإنشاء". (٤)

ب. النسخ : يقوم هؤلاء الكتاب بمهمة نسخ ما يكتبه المنشؤون ... إن لم يكونوا قد كتبوه بأيديهم، وكتابة ما يملى عليهم من مرؤسيهم ، فكثيرا ما كان يتردد في كتاب "ريحانة الكتاب"، صدر عن السلطان إلى سلطان المغرب مثلاً من املائي، وكان مما أمليته ... الخ ، دلالة على وجود كاتب يكتب ما يُملي عليه . وكان أبو القاسم بن قطبة الدوسي (٥) قد " ترشح للكتّب بالدار السلطانية"(٦)، وأبو بكر محمد بن شبرين(٧)"ارتسم في الكتابة السلطانية عام ٧٠٥هـ" (٨)، وكان "اشد الناس اقتداراً على نظم الشعر والكَتْب الرائق". (٩)

كما ذكر ابن الخطيب في ترجمته لابن فركون(١٠)،(١١):" الكاتب أحمد بن سليمان بن أحمد بن

١- نفسه ١ : ٣٥٢

٢- أزهار الرياض / ١ : ٣٢٠

٣- انظر ص (٤٧) من هذا البحث .

٤- نثير الجمان ١٤٦

٥- هو محمد بن احمد بن قطبة الدوسي، من أهل غرناطة ، يكنى ابا القاسم ، مجموع خلال بارعة ، حسن الخط ، ذاكراً للتواريخ والأخبار، وهو معدود من حسنات قطره ، ارتسم في الديوان ، فظهر غناؤه ، وانتقل الى الكتابة له ادب بارع المقاصد، قاعدٌ للإجادة بالمراصد. انظر ترجمته في الإحاطة ٢ : ٢٥٠ – ٢٥٣

٦- الإحاطة ٢ : ٢٥٠

٧- تقدمت ترجمته

٨- الإحاطة ٢ : ٢٤٠

٩- المرقبة العليا ١٥٣

١٠- تقدمت ترجمته

١١- الكتيبة الكامنة ٣٠٥ .

فركون، خديمي في النسخ من يد الكتبة".كما يذكر في موضع آخر(١) "... وبعد ذلك رقيته ... إلى الاستعمال في مهنة النّسخ ، ثم نقلته إلى بيت الكُتّاب" .

وكان يتحلّى الكاتب متولي هذه الخُطة. بحسُن الخَط، أكثر من غيره، ليكون مقروءاً ، واضحاً لا لبس فيه .

٥ – صاحب العلامة : والعلامة تلك الإشارة، أو العبارة التي يتخذها السلطان ليضعها على الرسالة، دلالة على صدورها عنه، وبأمره. وقد اشتق بعض سلاطين غرناطة علامته مجانساً للقبه، فالغالب بالله محمد بن يوسف أوّل سلاطينهم كتب علامته " ولا غالب إلاّ الله".(٢) وبعد ذلك أصبحت شعاراً لهم، يقول لسان الدين بن الخطيب في البيعة المنعقدة للسلطان محمد الخامس (٣) : " ... وشعارهم لا غالب إلاّ الله ونعم الشعار". وكُتب على رايتهم "وصار ذلك علماً لدولتهم فيما بعد ... " (٤) ثم كانت بعد ذلك " وكتب في التاريخ" (٥)، ثم عدلوا عن ذلك، وكتبوا علامتهم" صح هذا"، وكانت تكتب بقلم غليظ (٦)، قال أبو القاسم ابن قطبة الدوسي (٧) في طلب حاجة من سلطانه، وهي تقليده الكتابة والعلامة :(٨)

تقول ليلى وقد رأتني	كسيف بال ، فُديت، ماذا؟
فقلت مهلاً فعن قريب	يصحُّ هذا، بِـ "صحَّ هـذا "

فكتب له السلطان محمد السادس المعروف بـ "البرميخو":

قل للتي نبأتك هـذا	قد صحَّ هذا بِـ "صحَّ هذا "
فلا تبالي صدود قوم	يرون في صَدّك التذاذا
وسلِّم الأمر والمقاضي	لخير قاضٍ قضى بهذا

---

١ – المصدر نفسه ٣٠٦

٢ – مستودع العلامة ٢١

٣– ريحانة الكتاب ١ : ١٢١

٤– الفيكونت دو شاتوبريان ، آخر بني سراج ، مترجمة ومذيلة بخلاصة تاريخ الأندلس، الامير شكيب ارسلان، مطبعة المنار، مصر، ١٩٢٤، ص ١٠٤ .

٥– ربما كان ذلك اقتداءً بعلامة بني مرين في المغرب، فقد كانت علامتهم "وكتب في التاريخ " انظر مستودع العلامة ٤١، كما ان هذه العبارة مستقلة بذاتها ، وليس لها علاقة بالتاريخ المكتوب في ذيل الرسالة.

٦– نثير الجمان ٨٠

٧– تقدمت ترجمته

٨– مستودع العلامة ٢٤

وكان الكاتب حين يكتب علامة السلطان يقول : (١) " وكتب آباؤه الملوك من بني نَصْر." صحَّ هذا". كما كانت العلامة تكتب في آخر الكتاب (٢)، دلالة على صحة صدورها عن السلطان نفسه، وموافقته على ما ورد فيها.

ولأهمية العلامة، فقد يقوم السلطان بقَصْرِها على نفسه، ويكتبها بخطِّ يديه (٣)، قال أبو عبد الله ابن زَمْرَك : (٤)

يا إماماً قد تخذنا	ه مـن الدهر ملاذا
خَطَّ يمناك ينادي	صحَّ هذا، صحَّ هذا

وحين غادر ابن خلدون الأندلس عام ٧٦٦هـ،أصدر له الغني بالله ظهيراً بتشييعه، وأشار ابن خلدون إلى أن علامة السلطان كانت بخطِّ يده، ونَصُّها "صَحَّ هذا"، بعد تاريخ الرسالة. (٥)

وحين أصدر الغني بالله ظهيراً بإعادة أملاك ابن الخطيب إليه بعد المحنة، قال فيه:(٦) "كتبنا خَطَّ يدنا شاهداً علينا بإمضائه" وفي نهاية الظهير تاريخه ، والعلامة السطانية " صَحَّ هذا".

كما كان يتردد في رسائل المعاهدات ، وتوكيد المعاهدات، "وجعلنا عليه خط يدنا، وطابعنا" فمثلاً كتب سلطان غرناطة إلى سلطان أراغون رسالة قال فيها : (٧) " ولأن تكونوا منه على صحة ويقين، أمرنا بكَتْب هذا الكتاب ، وجعلنا عليه خَطَّ يدنا(٨)، وطابعنا(٩)، شاهداً علينا".

ومن ذلك رسالة أخرى مؤرخة عام ٧٢١هـ، قال فيها: (١٠) " ... أمرنا بكَتْبه، وجعلنا عليه خطَّ يدنا، وعلّقنا عليه طابعنا، توثيقاً لحكمه". وفي رسالة ثالثة. (١١) " ولأن يكن هذا ثابتاً، وتكونوا منه على صحة ويقين، جعلنا عليه خط يدنا، وعلقنا عليه طابعنا، شاهداً علينا".

١- المصدر السابق ٨٠

٢- صبح الأعشى ٧ : ٤١ .

٣- مستودع العلامة ٢١

٤- ازهار الرياض ٢ : ١٣٥

٥- التعريف بابن خلدون ص ٩٣ ، والظهير موجود في العبر ٧ : ٨٨٨ - ٨٩١

٦- الإحاطة ٤ : ٤٥٢ .

٧- محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والادارية في الأندلس ، وشمال افريقية ، دراسة ونصوص ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط١ ١٩٨٠ . ص ٤٦٥- ٤٦٧

٨- خط اليد ، المقصود به علامة السلطان ، انظر مستودع العلامة ٢١ ، مقدمة ابن خلدون ٢ : ٦١٢ .

٩- طابعنا ، ربما كان ذلك الخاتم الملكي، الذي هو علامة من علامات المُلْك ، وقد كانوا يستجيدون صَوْغه من الذهب ، ويوضع على الصفحة ، معنى هذا النهاية والتمام بصحة المكتوب ونفوذه . انظر مقدمة ابن خلدون ٢ : ١٧٤ - ١٧٥ .

١٠- الوثائق السياسية والإدارية ٤٥٨-٤٦٠

١١- المصدر السابق ٤٧٣ - ٤٧٤

وربّما أعطى السلطان علامته إلى رئيس كتبته، يقول اسماعيل بن الأحمر عن أسلافه ملوك غرناطة: (١) "... فإنهم لم يختصوا ... كاتباً لعلامتهم، إلا أنّ كُلّ سلطان منهم يكتب علامته بخط يديه، وبعض الملوك يقدم لِكَتْبها رئيس كتبته"؛ فإن السلطان محمد المخلوع أعطى علامته لذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم (٢)، كما أن أبا محمد عبد الحق بن عطية المحاربي، "تقلد العلامة ورياسة الكتّاب". (٣) كذلك أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن صفوان "كتب بالحضرة السلطانية، للسلطان محمد الفقيه، وقلده علامته".(٤) وابن زمرك تولّى هذه الخُطّة، وقد قال مشيراً إلى ذلك مادحاً سلطانه" (٥) : -

لك غُرّةٌ ود الصّباحُ جمالَها ومحاسنٌ تهوى البدورُ كمالَها

وأنا الذي قد نال منك معالياً تهوى النجوم الزاهرات مثالها

٦ - التوقيع : وهذا النوع من الكلام " مما عدلوا فيه عن التطويل والتكرار، إلىالإيجاز والاختصار".(٦) وهذه الخُطّة يحتاج من يتولاها إلى عارضة من البلاغة، يستقيم بها توقيعه(٧)، و" يستطيع أن يؤدي الغرض بدون اخلال". (٨) كما اشترطوا فيه أن يكون " حسن الخط، سريع البديهة، ديّناً، أميناً، نزيه النفس".(٩)

ولكثرة ما يرد إلى الديوان من رسائل، وسِمَة الإطالة فيها، مما يتعسر على السلطان قراءتها، فلا بد من أن يلمّ بعض الكتّاب بالقدرة على الإيجاز، والاختصار، بحيث لا يختل المقصود بالرّسالة(١٠)، وإزالة ما يخدم الغاية، مثل المقدمة، وكثرة المدائح، والإبقاء على الهدف الموجود في الرّسالة، ليقوم السلطان بدوره بالتوقيع فيها، وإصدار ما يلزم بشأنها.

ومن ذلك أن بعض ملوك النصارى كتب لابن الأحمر كتاباً يتوعده فيه، فقلب ابنُ الأحمر الكتابَ، وكتب على ظهره :(١١) "ارجع إليهم فلنأتينّهم بجنودٍ لا قِبَل لهم بها، ولنخرجنّهم منها أذلةً وهم صاغرون". (١٢)

١- مستودع العلامة ٢١ . ٢- الإحاطة ٢ : ٤٤٧ .

٣- نثير الجمان ١٣٨. ٤- المصدر السابق ١٣٢ . ٥- ازهار الرياض ٢: ١٥٩ .

٦- احكام صنعة الكلام ١٦٠ و الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى ٣٣٦ هـ ، أدب الكتّاب، تحقيق محمد بهجت الأثري ، ١٣٤١هـ ، ص ١٣٤. ٧- مقدمة ابن خلدون ٢ : ٦١٩ .

٨ - مواد البيان ٤٦ . ٩- المصدر نفسه ٤٦ ١٠ - المصدر نفسه ٥٤.

١١- صبح الاعشى ٥ : ٢٦٢ ، وقد نسبها شهاب الدين الحلبي في كتابه حسن التوسل ، ص ٧٧- ٧٨ ،إلى يعقوب بن عبد المؤمن زعيم الموحدين.وذكرها النويري أيضا إلى يعقوب بن عبد المؤمن ، انظر : شهاب الدين النويري، أحمد بن عبد الوهاب ت٧٣٣ هـ، نهاية الأرب في فنون الادب،المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر ، مطابع كوستاتسماس وشركاه ، القاهرة ، ٧ : ٣٠ ١٢- سورة النحل ٣١ .

٧ – الخاتم : اتخذ المسلمون –منذ بداية دعوتهم– الخاتم في الرسائل التي كانت ترسل إلى الأمم الأخرى وكان ذلك عام ٦ للهجرة. إذ قيل للرسول –صلى الله عليه وسلم– : إن الملوك لا تقبل الكتاب إلاّ أن يكون مختوماً فاتخذ خاتماً، ونقش عليه (محمد رسول الله). (١) وظل الأمر كذلك، حتى أفرد الخاتم بديوان خاص، زمن معاوية بن أبي سفيان الذي اتخذه لختم كتبه. (٢)

وقد اتخذ بنو الأحمر مجموعة من الكتاب لتولي مهمة ختم الرسائل، وتجهيزها، وانفاذها لأصحابها فقد ذكر ابن خلدون أن ديوان الخاتم "عبارة عن الكُتاب القائمين على انفاذ كتب السلطان والختم عليها". (٣)

وكان الخاتم يوضع على قطعة من الشمع، توضع على مكان الخَزْم والربط، (٤) فيرتسم النقش على الشمع بعد غمسها بالمواد أو الطين. (٥) الذي يُعدُّ لهذه الغاية .

٨ – خزانة حفظ الرسائل : إنّ ما يرد إلى الديوان، أو يصدر عنه واجب الحفظ، كي يسهل الرجوع إليه عند الحاجة. يحتاج من يتولى هذه المهنة أن يكون يقظا في عمله، ومعرفة بالكتابة لأن كتابته مقترنة بكتابة غيره، وهو يحتاج إلى جريدة يكتب فيها ما يرد الى الديوان وما يصدر عنه ، وربما احتاج الى أن يعمل تعاريف بما يحمل الى الخزائن وما يخرج . (٦)

فقد ذكر لسان الدين بن الخطيب في الرسالة التي بعثها عن سلطانه الى سلطان مصر، رداً على رسالته التي أعلمه فيها باستعادة الإسكندرية، واصفاً هذه الرسالة أو الكتاب بقوله : (٧) "فأكرم به من وافد مخطوب، وزائر مرقوب ، صدّعنا به في حفل الجهاد انتحاءً ، وافتخاراً ، ثم صنّاه في كرائم الخزائن، اقتناءً للخلف وادخاراً " .

ولربما نستشف من هذا النص أنّ الرسائل الواردة الى ديوان الإنشاء ، والصادرة عنه تحفظ في خزانة مخصصة لذلك .

وعليه فإن ديوان الإنشاء في عصر بني الأحمر عبارة عن بناء متكامل، كل جزء منه يُكمل الآخر . وكثيراً ما شبه القائمون عليه بالعقد الثمين، فكانوا يسمونهم بالسمط او القلادة،

١–أدب الكتاب١٣٩ –١٤٠، والتراتيب الادارية١ :١٧٧ و الخراج وصناعة الكتابة ٥٦ ، ومعالم الكتابة ٣٤٩

٢– مآثر الانافة ٣ : ٣٤٢ ، و أدب الكتاب ١٤١ ، و يقول قدامة بن جعفر في كتابه الخراج وصناعة الكتابة ص٥٥ : إن أول من اتخذ ديوان الخاتم في الإسلام زياد بن أبيه

٣– مقدمة ابن خلدون ٢ : ٦٤٥ ، صبح الاعشى ٦ : ٣٤٢

٤– مقدمة ابن خلدون ٢ : ٦٤٥

٥– المصدر نفسه ٢ : ٦٧٤

٦– معالم الكتابة ٤٩

٧– صبح الأعشى ٨ : ١١٨

فمثلاً ذكر ابن الخطيب أن ابن الحكيم تلقى أبا بكر بن شبرين ، ونظمه في سمط الكتّاب.(١) كما ذكر أن محمد بن أحمد بن حيون نظم في قلادة كتاب الإنشاء ، في دولة الخامس من بني نصر (٢)، وهكذا دواليك ، حتى ليخيل للمرء أن اعتناء بني الأحمر بهذا الديوان جعل بناءه الوظيفي بناءً هندسياً رائعاً ، لا يقل جمالاً عن بنائه المعماري ، حيث وجوده في القصبة الحمراء وهو بمثابة ديوان الملك .

١-الإحاطة ٢ : ٢٤١

٢- المصدر نفسه ٢ : ١٨٧

الفصل الثاني

موضوعات الرسائل الديوانية

- التهاني
- الفتوحات
- الشكر على الهدايا
- المعاهدات وتوكيد المعاهدات
- الظهائر الرسمية
- الاستنجاد
- التعازي
- الرّسائل النبوية
- مخاطبة الرّعية في موضوعات مختلفة

دام حكم بني الأحمر قرابة قرنين ونصف، صدر عنهم خلالها رسائل كثيرة متنوّعة، ومختلفة الغايات والمقاصد، تشمل جميع مناحي الحياة في تصريف أمور الدولة الداخلية، وعلاقة الدولة بغيرها من الدول، سواءً أكانت هذه العلاقات وديّة أم عدائية.

وقد عني الباحثون والدارسون بجمع هذه الرسائل منذ بداية دولة بني الأحمر، ابتداءً من رسائل أبي بكر بن الخطاب الغافقي، ومروراً بلسان الدين بن الخطيب، الذي جمع في كتابيه "رَيحانة الكتّاب ونُجْعَة المُنتاب" و "كناسة الدكان بعد انتقال السكان" مجموعة من الرسائل التي كتبها عن سلاطين بني الأحمر خلال عمله في ديوان الإنشاء، إضافة إلى بعض الرسائل المبثوثة في مؤلفاته الأخرى مثل "الإحاطة في أخبار غرناطة" و "نفاضة الجراب في عُلالة الإغتراب" ... وغيرها مما اشار فيه إلى بعض الرسائل دون ذكرها. كما ضمّن أبو العباس القلقشندي كتابه "صُبْح الأعشى" بعض رسائل ابن الخطيب الديوانية، باعتبارها نموذجاً للكتابة الديوانية. وأورد اسماعيل بن الأحمر في كتابه "نثير فرائد الجُمان" بعض الرسائل التي صدرت في زمن بني الأحمر، وابن خلدون في كتابه "العِبَر" وكتابه "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً". وكتاب "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية" لمؤلف مجهول وردت فيه رسالة واحدة، موجّهة من السلطان محمد الفقيه إلى يعقوب المريني سلطان المغرب، يخبره فيها عن حال المسلمين في الأندلس، وقد انفرد هذا الكتاب بهذه الرسالة دون غيره من المصادر التي بين أيدينا. كما ضمن شهاب الدين المقّري كتابيه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" و "أزهار الرياض في أخبار عياض" مجموعة من الرسائل الصادرة عن ديوان بني الأحمر، وكثير منها قد لا نجده في غيره من المصادر، لاسيما تلك التي وردت في النفّح مما يتصل بالقرن التاسع الهجري الذي ضنت علينا المصادر بمعلومات عنه.

وفي العصر الحديث اهتم بالرّسائل الديوانية في عصر بني الأحمر جُملة من الدارسين والعلماء، نذكر منهم الأمير شكيب ارسلان الذي قدم في كتابيه "خلاصة تاريخ الأندلس"و "الحلل السُندسيّة"عدة رسائل مهمة تتعلق بالمراسلات مع الدول النصرانية وخاصة مملكة اراغون.كذلك الدكتور أحمد دراج أورد في كتابه "المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري"(١) رسالتين في الاستنجاد موجهتين إلى سلاطين مصر آنذاك. والدكتور محمد عبد الله عنان في كتابه "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين"أورد أيضا عدة رسائل قيّمة نشر صوراً عنها ،وتعرض لبعض محتوياتها.والدكتور محمد ماهر حمادة في كتابه " الوثائق السياسية والإدارية في

---

١ – د. أحمد دراج ، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، دار الفكر العربي، ١٩٦١ .

الأنـدلس وشمال أفريقيا" جمع فيه رسـائل منتخبة مما أورده الأمير شكيب أرسلان في كتابيه المذكورين، وما أورده الدكتور محمد عبد الله عنان، والقلقشندي في صبح الأعشى، والمقّري في نفح الطيب. وأن هذه الرسائل قد عزّ نظيرها إذ لا توجد في غيرها من المصادر التي بين أيدينا.

ومما يجدر التنبيه عليه أن بعض الرسائل الديوانية في هذا العصر قد كتبها السلاطين أنفسهم، بخط أيديهم، وبالأخص حين خروجهم للجهاد؛ فقد ذكر لسان الدين بن الخطيب أنه وصلته رسالة من السلطان بخط يده . اثر افتتاحه أحد الحصون. وفي ذلك يقول "ووصلني كتاب السلطان -رضي الله عنه- يُعرّف بفتح أُطْرِيرة (١) واستيلائه عليها عنوة، وذلك بخطّ يده، فعرفت من أهل حَضْرَته الذين أعجلهم إسراع الحركة عن اللحاق به". (٢) كما ورد في ديوان يوسف الثالث، رسالةً بخطّ يده إلى الخطباء بحَضْرة غرناطة، وهو مخيم في جبل الفتح، يقول فيها(٣) ، : "... من كاتبها ومرتجلها، يوسف بن يوسف بن نصر -أيده الله ونصره-."

وقد اجتهدت في تصنيف هذه الرسائل إلى عدة موضوعات، على الرغم من أن بعض الموضوعات قد تندرج تحت باب واحد، مثل الاستنجاد والفتوحات، والشكر على المعونة، تحت باب الرسائل الحربيّة مثلاً. أو تصنيف هذه الرسائل إلى رسائل داخلية -ما يهم الدولة في تصريف أمورها-، ورسائل خارجية -العلاقات مع الدول الأخرى-. أو تصنيفها إلى رسائل سياسية، واجتماعية، واقتصادية .... الخ. إلا أنني ارتأيت في تقسيم هذه الرسائل على الشكل الآتي، عسى أن يكون أيْسَر للوصف، لإنّ كلّ رسالةٍ تختلف عن الأخرى باختلاف الغاية التي أنشئت من أجلها، وإن كانت في مبناها الخارجي، أو عناصرها البنائية، قد تكون متماثلة إلى حدٍ ما. ومن هذه الموضوعات :

*** التّهاني :**

كان للمناسبات الجليلة التي تتحقق للدول الإسلامية الأخرى، صدى في رسائل بني الأحمر، فما أن يعلم بانتصار على عدو، أو عارض خطير، أو شفاء من مرض لسلطان، أو تنصيب في مُلك، حتى قاموا بارسال الرسائل، والوفود إلى تلك الدول، تعبيراً عن مشاركتهم، بما منّ الله به عليهم، مهنئين بما تحصل لهم، مع إظهار الغبطة والسرور بذلك .

---

١ - أطريرة Utrera ، إلى الجنوب الشرقي من اشبيلية ٣٩ كم، انظر نفح الطيب ٦: ٣٦٩ هامش ٣ .

٢ - رَيحانة الكتّاب ٢ : ٦٣ .

٣ - ديوان يوسف الثالث ص ٥٠ .

ومن رسائل التهاني التي وصلت إلينا، رسالة بعث بها الغني بالله إلى سلطان مصر، الملك الأشرف شعبان بن حسين، (١) يهنئه فيها باستعادة الإسكندرية، من الصليبيين الذين عاثوا فيها فساداً وخراباً : (٢) فقد إستهلها الكاتب بما يناسب المقام ، ويوافق المناسبة : " أما بعد حمد الله الذي جعل قلادة الإسلام على الدوام ، آمنة من الانخرام والانتشار ... (٣) القوي العزيز الذي لا يُغالب قدره بالاحتشاد والاستكثار ... والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا (٤) محمد رسوله، نخبة الأكوان .... منقذ الناس من البوار ... نبي الرحمة والجهاد والغوار ، المنصور على الأحزاب ... والرضا عن آله وصَحبه حماة الذمار، ومقتحمي الغمار ، وباذلي كرام (٥) الأموال من دونه ونفائس الأعمار ... والدّعاء لتلك الأبواب المتعددة الحجّاب ، المعوّدة باجتلاء غرر الفتوح والمطالع، المشيدة المصانع، على العزّ الممنوح".

ثم يذكر الحال التي عليه الأندلس، من مكابدة الأعداء، ودوام الاستعداد، لرد الخطر عنها، تلك الظاهرة التي كثُر ترديدها في رسائل بني الأحمر، لاسيما المتعلقة بأمور الجهاد، ومقاتلة الأعداء. دلالة على خطر السقوط بيد النصارى الذي يتهددها، والتنبيه بأن الأندلس هَدَف للنصارى ، لا يجوز إغفاله، مع وجوب اليقظة والحذر من مَغَبّة التهاون فيه. "... والحال ما

---

١ - تولىّ الملك الأشرف شعبان الحكم في ١٥ شعبان / ٧٦٤هـ، وعمره إذ ذاك عشر سنوات، وبقي في الحكم حتى عام ٧٧٨هـ، انظر: ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة والترجمة والطباعة والنشر، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١١: ٢٤ .

والرسالة في ريحانة الكتّاب ١: ٢٩٥-٣٠٣، وصُبح الأعشى ٨: ١٠٨-١١٨ ، والاقتباس من ريحانة الكتاب .

٢ - أخذ الصليبيون مدينة الإسكندرية في ٢٣/ محرم / ٧٦٧هـ، ومكثوا فيها أربعة أيام، ثم هربوا منها بعد أن علموا بقدوم جيش المسلمين ، وقد عاثوا فيها فساداً. انظر النجوم الزاهرة ١١: ٣٠ ، والعبر ٥: ٤٥٤. وكان أهل قبرص يؤدون الجزية إلى صاحب مصر منذ افتتاحها، وإذا منعوها، يهاجمهم المسلمون بالأساطيل، ومن ذلك، فقد هاجمهم الظاهر بيبرس عام ٦٦٩هـ، ولكن السفن تكسرت لكثرة الحجارة المحيطة بها.

انظر العبر ٥: ٤٥٤-٤٥٥ .

٣ - في صبح الأعشى ٨: ١١١ ، "والانتثار" .

٤ - في المصدر السابق ٨: ١١١، "والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله" .

٥ - في المصدر السابق ٨: ١١ "كرائم الأموال" .

علمتم ، بحر زاخر الأمواج ، وعدو وافر الأفواج ، (١) وجياد ضمرتها مصابرة الهياج ... فالنفوس إلى الله تَجْهَر (٢) وتُسلِّم ، والصبيان في المكاتب تدرب على مواقف الشهادة وتعلم ... والحال تُزجى (٣) بين الحرب والسلم ... وارتقاب عاقبة الصبر، على حُماة الدّبْر".

وفي ذلك إشارة لطيفة لحادثة الأسكندرية ، حيث يشترك المسلمون في مدافعة النصارى ، وأن الديار الإسلامية - أنّى كان موقعها - هَدفُ للنصارى ايضاً، فالحرب حرب عقدية، هدفها قطع المسلمين عن عقيدتهم وابعادهم من أماكن عبادتهم . وجَعْلِ الأمة الإسلامية أشلاءً ممزقةً، لا تقوى على الدّفاع عن نفسها : "... وسوّل لهم الشيطان كياد ثغْر الإسكندرية شجى صدورهم ... ليهتموا ثغور الإسلام (٤) بصدمتها، ويقودوا جنات السواحل (٥) في رمتها ، ويرفعوا عن دينهم المعرّة ، ويتلقفوا في القدس كُرَةَ الكرّة ... ويشيموا سيوف التغلب على الشام ، ويحولوا بين المسلمين وبين محطّ أوزارهم ، وحَجّهم ومزارهم، وبيت ربهم ... ويقطعوا حبل المسلمين، بحيث (٦) لا يتأتّى بلوغ طريق، ولا عرض تشويق".

بعد ذلك يذكر صورتين متقابلتين، حين دخول النصارى المدينة، وما أحدثوه فيها، من النهب والهدم، وأثره في نفوس الناس، ثم يصف الحال التي أعقبت خروج النصارى من المدينة، وما ناله جيش النصارى جزاء ما اقترفه : " فما هو إلا أن طما (٧) جرادهم، وخلص إليها مُرادهم، وخاض عليها تجرهم، وعظم من المملوك أمرهم، حتى اشترك الشرك بعض أسوارها، وقام النهب بمستطرف ديارها، وظُنّت أنها الوهية التي لا تُرفع ... واشتمل (٨) الباس، وذُعِر

---

١ - في صبح الأعشى ٨: ١١٣ ، توجد عبارة بعد ذلك : " وحُرّم لولا اتقاء الله مقتحم السياج ".

٢ - في المصدر السابق ٨: ١١٣ "تُجهَّز ".

٣ - في المصدر السابق ٨: ١١٣ " تُرجى" .

٤ - في المصدر السابق ٨: ١١٤ " ثغر الإسلام" .

٥ - في المصدر السابق ٨: ١١٤ "حقائب السواحل ".

٦ - في المصدر السابق "حتى" .

٧ - في المصدر السابق ٨: ١١٤ صَمَاً .

٨ - في المصدر السابق ٨: ١١٤ "واشتعل" .

الناس ... وأرى الشّدة من يتدارك بالفرج، وأعاد إلى السّعة من الحرج ... ونَصر حزب الله، مَنْ لا غالب لمن ينصره، وحَصَر العدو بِحَصْره من كان العدو يحصره (١). وظهر الحق على الباطل.. فخرج العدو الخاسر عما حازه، السيوف ترهقه حيث تلفيه ... والخزيُ قد جَلّلَ سبالة الصُّهْب، وحِنّاء الدّماء قد خضبت مشيخته الشهب ... فكم من غريق أردته دروعه، لما حشي بالرّوع رَوُعه، وطعين نظمت بالسمهري ضلوعه، فغلبوا هنالك، وانقلبوا صاغرين، وأحق الله الحقَّ، وقطع دابر الكافرين".

ثم يهنيء السلطان بهذا الانتصار، معتذراً عن عدم الحضور بشخصه بسبب مكابدة الأعداء، وانشغاله بهم : " فبادرنا عند تعرف الخبر المختال، من أثواب المسرة في أبهى الخبر، المُهدي أعظم العبر إلى تهنئتكم تطير بها (٢) أجنحة الارتياح، مبارية للرياح، وتستفزُنا دواعي الأفراح، بحسب الودّ الصراح .. ولولا العوائق التي لا تبرح ، والموانع التي وَضُحَت حتى لا تُشْرح، ومكابدة هذا العدو الذي يأسو به الدهر ويجرح (٣)، لم نَجْتَزْ بإعلام القلم من أعمال القدم، حتى نتشرّف بالورود على تلك المثابة الشريفة ... فَيَقْضِى الفَرْضُ تَحتَ رَعْيها، وبَرَكةِ سعْيها، لكنّ المرءَ جنيب أمله، ونيّةُ المؤمن أبْلَغُ من عمله".

كما يذكر الكاتب ما لهذا النصر من أثرٍ على الأندلس، حيث العدو مشترك، والقضاء على الإسلام دينه، فهذا النصر، انتصار للأندلس ، بما يثيره من حَمِيّة المسلمين على نُصْرتها، بعد أخذ العِبْرة من هذه الواقعة : " ومما زادنا بَجَحاً بهذا الفتح، وسروراً زايداً بهذا المَنْح، ما تحققنا، أنه يثير من شفقة المسلمين لهذا القطر، الذي لازال يطرقه ما طرق الإسكندرية على مر الأيام، ويجلب عليه براً وبحراً عَبَدة الأصنام ... والصريح إلا من عند الله لا يُحسب بالدُعاء ألسنة فضلائه، وتسهمنا خواطر صالحية وأوليائه، والله لا يقطع عن الجميع عوائد آلائه ".

ومن رسائل التهنئة، رسالة بعث بها أبو الحجّاج يوسف الأول إلى سلطان المغرب (٤) يهنئه فيها بإبلاله (٥) مِن مَرضٍ ألمّ به. فهو يشرح فيها ما أورثه هذا العارض في النفس من ألم

---

١ – في المصدر السابق ٨: ١١٤ "وحصر العدوُّ مَنْ كان العدوُّ يحصره"

٢ – في المصدر السابق ٨: ١١٦ "بنا" .

٣ – في المصدر السابق ٨: ١١٠ : ومُكايدة هذا العدو الذي يأسو به الدهر ويجرح".

٤ – الرسالة موجودة في كناسة الدكان ١٠٧ – ١٠٨ ، ريحانة الكُتّاب ١: ٣١٨-٣٢١، والاقتباس من كناسة الدُكان.

٥ – الإبلال : الشفاء من المرض، انظر لسان العرب ، المعجم الوسيط، القاموس المحيط ، مادة بلَلَّ .

وحُزن، فهذا الألم " ألَمت له القلوب. وتَدبُ (١) في النفوس المسلمة الكروب" . ولولا ورود خَبَرِ الشفاء من هذا المرض، لعظمت الأوجال (٢) وضاق المجال، وانتهت الصبو (٣) والكِرَبَ العجاب. ففي راحته وشفائه "راحة البلاد والعباد" .

ثم يذكر مبلغ الفرح، والسرور، والإبتهاج بهذا الشفاء، بسببُ ما لهذا السلطان من أيادٍ على الأندلس وعنايته بها، كما كان عليه أسلافه. "فلا تسألوا عمّا عندنا من الابتهاج والاستبشار والسرور المشرق الأنوار، وكيف لا تُسرّ بنعمة الله قبلكم هذه الجهات، التي ما عدمت منكم، ولا من سلفكم عناية ، ولا فقدت في حالَيْ الشدَّة والرّخاء رعاية ، فكُلَّما أفلت آية طلعت آية، وكلَّما تعرَّفت رَأياً استقبلت راية." لذلك فأهل الأندلس أحق بالهناء " ونحن نهنيكم ، وإن كُنا أحقُّ بالهناء، ونبدي من التشيُّع ما يليق بكريم الإخاء ، ونجهد في اجزال الشكر، وإجمال الثناء" .

يتضح من الرسالتين -كما هو الحال في بقية الرسائل- أن الكتّاب يركزون على الأثر النفسي للموضوع مدار التهنئة، وما له من وقْعٍ عند المسلمين أينما كانوا،-كَون المسلمين يشتركون في السرّاء والضرّاء. مع الإشارة إلى ما لذلك من مساهمة في اسناد، ودعم قوة الأندلس، والتي تزداد بازدياد قوة المسلمين، لذلك يكون الهناء مشترك بين الأندلسيين وغيرهم من الدول الإسلامية.

* الفتوحات :

ما إن يتم استعادة جُزءٍ مما سُلب من المدن والحصون، حتى تطير الرّسائل إلى الشعب، والأقطار الإسلامية الأخرى ، يعلمهم بها السلطان، ابتهاجاً بذلك، علّها تكون عَصْراً جديداً من القوة والمَنَعة. وتيمُّناً بالمزيد من الفتوحات .

ومن هذه الرسائل ، رسالة بعث بها الغني بالله إلى سلطان المغرب (٤) يعلمه فيها بفَتْح حِصْن أشير (٥)،حيث يعرض الكاتب إلى مبرِّرات فتْح هذا الحصن، وسبب اختياره دون غيره :

---

١ – في ريحانة الكتّاب ١: ٣٢٠ "وثوت" .

٢ – في المصدر السابق ١: ٣٢٠ "الأنجال" .

٣ – في المصدر السابق ١: ٣٢٠ "وأشهب الصبر" .

٤ – الرسالة في ريْحانَة الكُتّاب ١: ١٤٦–١٥١ .

٥ – حصن أشر Izanajar شرق اشبيلية، قرب أُطْرِيرة ، الإحاطة ٢: ٨٢ حاشية وقد استعاد المسلمون حصن أشر في رمضان عام ٨٦٧ هـ. انظر الإحاطة ٢: ٨٢ .

"…. ثم أننا رأينا أن الإسلام لا يقرُّ به قرار، مع كَوْن حصن آشر ركاباً لعدوه، وسُلَّماً لكيده، ودَرْباً إلى غارات الكافرين، وفُرْضة إلى مسارب أعداء الدين .. فإنه الجارح المحلّق، والبازي المطلّ، واليد المُحْكَمة، والداءُ الدّفين، مُقضُّ المضاجع، ومُصْمي أهداف السواحل" .

بعد ذلك يصف الكاتب مَنعَة الحصن وقوته، وقوّة المدافعين عنه، ومراسهم في الحرب، حتى يبدو الفتْحُ عَظيماً، ولأنّ "تحقير عدوّ السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء ، بل غير ذلك أحَقُّ وأولى، فإن كان السلطان غالبَ عدوه، كان قد غلّب غَيْرَ حقير، وهو الأولى بفخره، وجلالة قدره، وإن غلبه العدو، لم يغلبه حقير فيكون أشد للحسرة، وآكد للفضحية."(١) يقول في الرسالة : "…. وهو مصام منيع، ومعقل شهير …. قد صرف إليه الكفر -لما ملكه- عَزمه، وأغْرى به همّه ، فسدّ ثَلْمه، وأصلح خَلَله، ونظر إلى عَوْراته، فأوسعها تحصيناً، حتى قطع الأطماع، وتبر الآمال، وكان به جَمٌّ من رُماة الشعراء، ومساعير الحرب، وأولي الشهرة من السلاح والعَدّه، كلُّ مُحسبٍ في الحاجة ، ومُغنٍ في الشّدّة.".

ثم يذكر الكاتب اعتماد المسلمين على الله سبحانه وتعالى لإن الجهاد في سبيله ،ولا بُدّ أنّ الله ناصرهم على أعدائهم، حين يصدقوه الجهاد، "…. إلاّ أن الله لا تُغالب قدرته ، ولا تُطال عزته، ولا يُردّ عن القوم الكافرين بأسه، فتعلّق به المسلمون يخوضون غمار الشهادة، ويتزاحمون على مراتب المَنيّة. ويسمون في مبايعة الله بالنفوس الزكية." .

ثم يذكر المعركة التي دارت ، وكيف ظهر فيها المسلمون ، بصبرهم وشجاعتهم، بعون الله تعالى ويصف نتيجة المعركة، وما كان من حلول رايات الإسلام بدل النواقيس : "…. وعلت فوق أبراجه رايات الإسلام، وارتفعت بكلمة التوحيد. وأخذ بيوت عباد الله التطهير، وتناول بمثالة التثمير، وأُنْزِل ناقوسه انزال التهوين، وَحلّت به على المسلمين عوارف الفتح.".

بعد ذلك يصف الكاتب أثر هذا الفتح على المسلمين : "… وفازت يد الإسلام، من هذا المعقل العزيز عليه، بقرار القلوب، وقُرّة العيون، وشُفِي منه داء عضال، وكفى بلاءً لا يُطاق."

ومن رسائل الفتوحات رسالة بعث بها الغنيّ بالله إلى صاحب مكة، (٢) يعرّفه فيها بجملة فتوحات، مَنّ الله بها على المسلمين، وكانت هذه الفتوحات في أوقات متفاوتة.

يقدم الكاتب لموضوع الرسالة بِعَقْدِهِ مقارنة بين الحج والجهاد، وما يتماثلان به، كَوْنهما في سبيل الله : "… وإلى هذا -حرس الله مجدكم، ومقرّكم الأشرف .. فإن الجهاد والحجّ

---

١ - نفح الطيب ٥: ٨٠ .

٢ - الرسالة في ريحانة الكتّاب ١: ٢٠٦-٢١٢ وفي صُبْح الأعشى ٧: ٥١-٥٨ والاقتباس من ريحانة الكتّاب.

اخوان (١)، يرتضعان (٢) ثدي المناسبة، ويكاد يتكافآن في المحاسبة ، سفراً، وزاداً ، ونية، واستعداداً، وائتلافاً لمصون المال، وانفاذاً، وخروجاً إلى الله لا يؤثر مالاً ولا ولداً، ويفترقان محلاً، ويجتمعان جهاداً، (٣) ويرفعان (٤) للملة مناراً سامياً وعماداً .".

ثم يذكر الحال التي في الأندلس، من مكابدة الأعداء، ودوام الاستعداد، على قِلة المسلمين وكُثْرة الكُفّار: "... ونحن نعرّفكم بأحوال هذا القطر، المتمسكة (٥) فروعه بتلك الجرثومة الراسية، ... فاعلموا أن الإسلام به مع الحيّات في سفط حَرِج، وأمْرٍ مَرِج، وطائفةُ الحقّ قليلٌ عَدَدُها، منقطع إلاّ من الله مَدَدُها، مستغرق يومُها في الشدة وغدُها ... والصبر قد لُبست مدارعه، والنصر قد التُمِسَتْ مشارِعُه، والشهداء تنوش أشلائهم القشاعم، وتحتفل لها منهم المطاعم (٦)، والصبيان تُدرّب على السلاح (٧) ... وآذان الخيل مُستشرفة للصياح، ... والمآذن تجيبها النواقيس مناقضة، ... وعدد المسلمين لا يبلغ من عدد الكُفّار، عند الانتشار (٨) مِعْشار المِعشار (٩)، ولا وَبْرة في (١٠) جلود العِشار، إلاّ أنّ الله عز وجل حَلّ بولايتنا المُخْنَق المشدود، وفتح إلى اليُسْر المهيع المعهود (١١)، وأضفى ظلّ الأمن (١٢) الممدود ..".

بعد ذلك يشرع في ذكر المدن والحصون التي فُتحت، في تسلسل تاريخي، واصفاً كل موقع من المواقع التي "تولّي أمْرُها ونُصرتُها، مَنْ له الأمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْد ... "، "... ففتحنا مدينة بُرْغة (١٣) الفاصلة كانت بين البلاد المسلمة والشجى المُعترض في نَحْر الكلمة، وتبعتها

---

١ – في صبح الأعشى ٧: ٥٣ بعد هذه العبارة " يشبه بذلك الملوان " .

٢ – في المصدر السابق ٧: ٥٣ " مُرتضعان" .

٣ – في المصدر السابق ٧: ٥٣ "وإن افترقا محلاً ، فقد اجتمعا جهاداً" .

٤ – في المصدر السابق ٧: ٥٣ "ورفعا" .

٥ – في المصدر السابق ٧: ٥٤ " المستمسكة"

٦ – في المصدر السابق ٧: ٥٤ "وتحتفل منها العوافي الولائم والمطاعم" .

٧ – في المصدر السابق ٧: ٥٤ " على العمل بالسلاح" .

٨ – في المصدر السباق ٧: ٥٤ لا يوجد "عند الانتشار" .

٩ – في المصدر السابق "عشر المِعْشار" .

١٠ – في المصدر السابق ٧: ٥٤ " من" .

١١ – في المصدر السابق ٧: ٥٤ "وفتح إلى التيسير المهيع المسدود" .

١٢ – في المصدر السابق ٧: ٥٤ "اليُمْن" .

١٣ – بُرْغة Burgo بين رندة ومالقة. نفح الطيب ٦: ٣٦٧ هامش وقد تم استعادتها في شعبان ٨٦٧هـ. الإحاطة ٢: ٧٨ .

بنات كُنَّ يَرتَضِعْنَ أخلاف دُرِّيها، ويتعلق في الحرب والسلام بأرزتها، ثم نازلنا حصن أشر (١)، ركاب الغارات الكافرة، ومستقر الشوكة الوافرة، فرفع الله إصْرَهُ الثقيل، وكان من عثرته المقيل(٢)، ثم قصدنا مدينة أُطريرة (٣)، بنت حاضرة الكفر .. ففتحناها عنوةً ... وملأت البلاد سبياً تعددت آلافه، وغُنماً شَذَّت عن العبارة أوصافه. ونازلنا مدينة جَيّان (٤)، وشهرتها في المعمور تغني عَنْ بَسْطِ مالها من الأمور، ففتحها الله عنوة، وجعل سبيها للاسترقاق، ومقاتلتها للبيض الرقاق.(٥) وغَزَوْنا بعدها مدينة أُبّدة(٦) فكانت أسوةً لها في التدمير، والعفاء المُبِير.(٧) ثم نازلنا مدينة قرطبة، وهي أم هذه البلاد الكافرة، ودار النعم الوافرة (٨)، وكدنا نَسْتبيح حماها المنيع، ونشتت شملها الجميع، لولا عوايق أمطار، وأَجَلٌ مَخصوصٌ بمقدار.(٩) ورحلنا عنها بعد انتهاك زلزل الطّوْد، ووعدنا بمشيئة الله العود، ونأمل من الله إيفاد من الله البشرى بفتحها على الإسلام.".

بعد الانتهاء من السّرد التاريخي لهذه الفتوحات، يعزّفه بإنه أصحب هذه الرسالة بعضاً من الغنائم ، فقد اختار منها ما يناسب مقام المخصوص بالرسالة، وما لها من مدلولٍ ديني، يؤكد حقيقة الصراع في الأندلس، وهو صراع عقائدي. وهذه الغنائم مجموعة من النواقيس. مُبْدياً رغبتـــه في عَرْضها في موسم الحج، تذكرة للناس، تستدر منهم الدُّعاء في هذا المقام الكريم،

---

١ – مَرّ التعريف به .

٢ – في صبح الأعشى ٧: ٥٥ " وكان من عثرة الدين فيه المقيل".

٣ – تمّ استعادة أطريرة في شعبان / ٧٦٨هـ، وفي صبح الأعشى: "ثم قصدنا مدينة الجزيرة" ثم يعدُ الأوصاف نفسها ، مع اختلاف في بعض الألفاظ .

٤ –صبح الأعشى٧: ٥٥ "ثم كانت الحركة إلى مدينة جيّان". كان ذلك في آخر محرم/ ٧٦٩هـ.الاحاطة ٢: ٨٣

٥ –في صبح الأعشى٧: ٥٦ "ففتحها الله على أيدينا عنوة،وجُعلت مُقاتلتها نهباً للسيوف الرقاق،وسَبْيها ملكة للاسترقاق .

٦ – أبدة Ubeda على مقربة من نهر الوادي الكبير. الروض المعطار ص ٦، وكان غزوها في ربيع ١ / ٧٦٩هـ. الاحاطة ٢: ٨٤ ، وفي صُبح الأعشى ٧: ٥٦ "وغَزَونا بعدها مدينة أبـدة أختها الكبرى".

٧ – في صبح الأعشى ٧: ٥٦ "وَلِيَتْها ذات المحل الأسرى، وكانت أسوة لها في التدمير، والتتبير، والعفاء المبير".

٨ – في المصدر السابق ٧: ٥٦ بعد هذه العبارة " وذات المحاسن السافرة" .

٩ – في المصدر السابق ٧: ٥٦ " وتحتفل بفتْحها الذي هو للدين أجَلٌ صنيع، لولا عوائق أمطار، وأجل مُنتهٍ إلى مقدار".

لنُصْرة هذا الدين : "... وقد ظهر لما أن وَجَّهنا (١) إلى المدينة المقدسة - صلوات الله على مَنْ بها وسلامة- نُعرّفه بهذه البركات الهامية من سما عنايته، المعدودة خوارقها من آيته، فكلُها جناة،(٢) وما كنا نهتدي لولا أن هدانا الله، وأصحبنا شخاصاً (٣) من نواقيس الفرنج، مما تأتي حَمّلة، وأمكن نَقْله ... ومُرادنا أن تُعرض بمجتمع الوفود، تَذْكِرةً تستدعي الإمْداد بالدُعاء، وتقتضي بتلك المعاهد الشريفة (٤) النصر على الأعداء".

لقد سَجّلت رسائل الفتوحات الوقائع التاريخية، من غزوات وفتوحات، وكانت المِسْحة الدينية تغلب عليها، فالمعاني مستمدة من المبادىء الإسلامية، ونظرة الإسلام للجهاد. كما جَسّدت هذه الرسائل معاني القوة التي تتمتع بها الدولة، ومدى اهتمامها بتجهيز الجيش، وجعله على درجة عالية من القدرة على القتال، والصبر عليه.

وركزت هذه الرسائل على الجانب الديني، والإكثار من ذكر عودة الآذان إلى المدن المفتوحة، واختفاء أصوات النواقيس من هذه المدن، وظهور الإسلام على الكفر.

* رسائل الشكر على الهدايا :

تتعلق رسائل الشكر الصادرة عن ديوان الإنشاء، بالرد على ما يرد السلطان من هدايا، اعترافاً بالجميل على هذه الهدايا. وغالباً ما تشير هذه الرسائل إلى ما كان لهذه الهدايا من أثر في ازدياد قوة المسلمين الماديّة والمعنويّة، وسبباً في صمودهم، وانتصاراتهم. ودلالة على مشاركة أصحابها في الجهاد، والدفاع عن الأندلس، مما يؤكد وحدة الأمة الإسلامية في وجه الأخطار التي تتهددها. وكان يُرفق -غالباً- مع هذه الهدايا رسائل من أصحابها إلى المخصوص بها، ولا ينسى الكتّاب الإشارة إليها في رسائلهم، والثناء عليها.

كما كان سلاطين غرناطة يتبادلون الهدايا مع الدول النصرانية، في أوقات المسالمة، توكيداً لحُسن الجوار، وحُسْن النوايا، وتمتيناً للصداقة التي تربط الطرفين. لكن المصادر التي بين أيدينا لم تشر إلى تلك الهدايا المتبادلة بينهم، أو الرسائل التي تبودلت بهذا الخصوص،إلا أن ابن خلدون ذكر في كتابه"التعريف" ، أن الغني بالله أرسله إلى سلطان قشتالة في سفارة سياسية ،

---

١ - في صُبح الأعشى ٧: ٥٧ "توجّه" .

٢ - في المصدر السابق ٧: ٥٧ "المعدودة خارقها آية من آياته، وكلنا جناة".

٣ - في المصدر السابق ٧: ٥٧ "أشخاصاً".

٤ - في المصدر السابق ٧: ٥٧ "وتقتضي بتلك المعاهد النصر على الأعداء".

لإتمام صلْح بينهما، وأشار إلى أن الغني بالله أرسل معه هدية فاخرة "من ثياب الحرير والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة". (١)

ومن رسائل الشكر رسالة بعث بها أبو الحجّاج يوسف الأول إلى سلطان المغرب، أبي عنان المريني، يشكره فيها على هدية، بعث بها إليه، وهي عبارة عن خيول، وسيوف، وذهب (٢).

يصف الكاتب -ابتداءً- الأثر العظيم الذي تركته الهديّة في نفوس المسلمين، لِما ترمز له من مشاركة في الجهاد، مما يزيد في قوة المسلمين، وشعورهم بدعم أخوتهم المسلمين لهم في جهادهم. وبثّ الرُعب والهلع في نفوس الأعداء. "... فإننا وصلنا كتابكم الكريم الوفادة، العظيم الإفادة، مُصْحباً بالهدية التي صحبها الكمال ... واشتملت على نكايَتَيْ العدو؛ الخيل والمال ... ويالها من هدية اتخذ الناس يومها عيداً، وموسماً سعيداً، وعزماً رآه العدو قريباً، وكان يحسبه بعيداً.".

بعد ذلك يدخل في وصف الهديّة بإسهاب، "... من كل طرف وسم بالصباح منه جبين، ناشي في الحِلْيَة وهو في خصام الحرب مبين. من أشهب للشُهْبِ فارع، (٣) ولإحراز الغايات مسارع، حاسر في شكل دارع ... وأشقر عَسْجديٌ اللباس، شُعلة من شُعَل الباس، كأن أذنه ورقة الآس، (٤) وغرّته الحبَّابة الطافية في الكاس. وأحمر وَرْديّ الأديم ... يحسد (٥) الأسد في لونه، ويَدّعي (٦) الرّيح أنها مادة كونه. وكُمَيْتٍ، ما في خَلْقه من أمت ، كأنه قطعة من الغسق، خالطتها حُمْرةُ الشفق. وقرطاسيٌ (٧) كأنه دُرّة سمع استحسان الغرر، فجاء وكلُّه غُرّة، كأنه أفق الفجر، وسرجه هلاله، وخالص الدُرّ وصدفه جلاله. وأدهم زنجي البزّة، مُرْتَدٍ برداء البأو والعزّة،(٨) كأنه العيون النجل نفضت عليها سوادها، والغصون المُلْد علمته انثناءها، وانقيادها.

---

١ – التعريف ٨٤ .

٢ – الرسالة في رَيْحانة الكتّاب ١: ٤٠٣-٤٠٧، كناسة الدكان ١٥٠-١٥٢ والاقتباس من الريحانة .

٣ – في كناسة الدكان ١٥١ فارع .

٤ – في المصدر السابق ١٥١ ورد في الآس .

٥ – في المصدر السابق ١٥١ يحسده .

٦ – في المصدر السابق ١٥١ وتدعي .

٧ – في المصدر السابق ١٥١ وقرطاس .

٨ – في المصدر السابق ١٥٢ مرتدٍ الباس والعزّة .

وكلُّ صامتٍ ناطق مُتَّصِفٌ بزينة معشوق، ولون عاشقٍ مريني المُنتَمي والضـرْب، عُدّة في السّلم والحرب، قامت قيامة العدو لطلوع شمسه من الغرب، أشبه شمس العالم في استدارة قُرْصه، وانتقال شخصه، واعتدال طَبْعه وعموم نَفْعه، تعشو عيون الأماني إلى ضوء ناره، وتدور فراش المطامِع حول أنواره، وتحول نُحل (١) الآمال على نوّاره.

وكلُّ صَقيلِ الفِرنْد، منسوبٌ إلى الهند، يخطب من الكلام بمقتضبه، ويَضْحك في الرّوع عند غضبه. ومن الآلات كُلُّ ماثلة في المرأى الجميل، بعض مغمزها إلى السمعيل". (٢)

وغاية هذا التفصيل الدقيق ، والتغني بهذه الهديّة، ليدلل على مَدى عَجْزه عن الشكر، الذي يكِله إلى الله عز وجل، فكلُّ ما تقدم فهو في سبيله :"فمَنْ لسبيل الشُكر، أن يوفّي حقّاً، أو يهتدي في هذه البيداء طرقاً، إنما نَكِل الشكر لمن سمحتم بذلك المدد في سبيله، وأمّلتم فيه موهبة قبوله. فما هي في الحق إلاّ كتائبٌ للعدو جَهّزتموها. ومواعد نصر أنْجَزْتُموها، ومناقب أسلاف جددتموها، وأحرزتموها."

ومن رسائل الشكر رسالة بعث بها الغنيّ بالله إلى صاحب تونس ابن يغمراسن عندما بعث بطعام إلى الأندلس.(٣)

يصف الهدية بإنها بادرة طيبة، ومقدّمة لمواهب كبيرة ستتلوها، في سبيل اخلاص النية في المساهمة في الجهاد في سبيل الله : "... وإلى هذا -أيّد الله سلطانكم-... فإننا ورد على بابنا فلان ... ووصل صحبته ما حمّلتم جَفْنَهُ (٤) من الطّعام إغاثة لهذه البلاد الأندلسية، (٥) والأمْداد التي افتتحتم به ديوان أعمالكم السنيّة، وأعْرَبْتم عما لكم في سبيل الله من اخلاص (٦) النية. وأخبر أنّ ذلك إنما هو رشّة من غمام، وطليعة من جيش لُهام، ورِفْدٌ من عَدَد، وبعضٌ من مَدَد، وإن عزائمكم في الإعانة ، والإمداد على أولها، ومكارمكم تُنسي(٧) الماضي بمستقبلها. فأثنينا على قصدكم الذي لله أخلصتموه، وهذا العمل البَرُّ الذي خَصَّصتموه، وقلنا لا يُنْكر الفضل على أهله، وهذا بَرٌّ صدر عن محله، فليست إعانة هذه البلاد الجهادية بِبِدَعٍ من مكارم جنابكم الرفيع، والإشارة (٨) فيما أسدى على الأيام من حُسْن الصّنيع."

---

١ – في المصدر السابق ١٥٢ محل .

٢ – في المصدر السابق ١٥٢ مفضٍ همزها للتسهيل .

٣ – الرسالة في ريحانة الكتّاب ١: ٤١٥–٤١٨، صبح الأعشى ٧: ٤٨–٥٠ والاقتباس من الريحانة .

٤ – في صبح الأعشى ٧: ٤٩ "جَفْنة".

٥ – في المصدر السابق ٧: ٤٩ "برَسْم إعانة هذه البلاد الأندلسية".

٦ – في المصدر السابق ٧: ٤٩ "خلاص" .

٧ – في المصدر السابق ٧: ٤٩ "يُنْسي".

٨ – في المصدر السابق ٧: ٤٩ "ولا شاذّة".

ثم يذكر الكاتب كيفية الإفادة من هذه الهديّة، في دعم المجاهدين لإن ذلك أفضل الوجوه في تصريفها، لتكون خالصة لوجه الله وفي سبيله، وإشارة إلى ما لقيته هذه الهدية من تقدير لدى الأندلسيين، وتقديراً لمُرسلها في اختيار أفضل السُّبُل في انفاقها : ".. وسنّى الله سبحانه، أن فتح جيشنا حصناً من الحصون المجاورة لغربي مالقة .. فجعلنا ذلك الطعام الذي وَجَّهتم، طُعْمَة حُماته، ونفقات رجاله ورُماتِه، اختياراً له في أرضى المرافق من سبيل الخير وجهاته".

لقد كان الكتّاب يركزون في هذه الرسائل على اظهار أن ما يصلهم من هدايا -أياً كانت- هي من باب الإعانة على الجهاد، ومقاتلة الأعداء، فهي في سبيل الله عَزّ وجل، لذلك كانوا يَكِلون الشُكْرَ والثناء عليه سبحانه وتعالى، كنوعٍ من أدب المخاطبة مع مُرسليها، بإبراز قصورهم عن تَوْفِيَة حقّ مرسليها من الشكر، والعرفان بالجميل.

وكانوا يعمدون إلى الإطناب -غالباً- في وصف الهدايا، لإبراز مدى وَقْعِها بالنفس، وتأثيرها في دعم المجاهدين .

كذلك كانوا يعمدون إلى الإعلاء من شأن الهدية، وتخيُّر أفْضل المواضع للإفادة منها، تقديراً واجلالاً لمرسليها، وبيان مدى مشاركتهم في شرف الجهاد في هذه البلاد .

* المعاهدات وتوكيد المعاهدات :

كانت مملكة غرناطة ترتبط مع غيرها من الدول ببعض المعاهدات والاتفاقات ، لتنظيم العلاقة بينهما. وقد وصل إلينا بعض المعاهدات التي كانت تُنظم العلاقة بين مملكة غرناطة وجاراتها الدول النصرانية، وكانت هذه المعاهدات -غالباً- ما تتبع أي عمل حربي بينهما، أو بعد انتهاء مدة إحدى المعاهدات. لما كانت تمتاز بها العلاقة بين الطرفين ، من عُنْف ، وحروب دامية؛ دينية وجغرافية، وعرقيّة.

ومن هذه المعاهدات رسالة بعث بها أبو عبد الله محمد الثاني إلى ملك اراغون عام ٧٠١هـ (١)، فقد بدأ الرسالة بالبسملة والصلاة والسلام على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم،

---

١ - الرسالة موجودة في الحلل السندسيّة ٢: ٢٨٦-٢٨٩، والوثائق السياسية والإدارية للأندلس وشمال افريقية ٤٥٠-٤٥٣ ويقول شكيب ارسلان إن هذه الرسالة للسلطان محمد المخلوع ابن محمد الفقيه "بلا شك ولا ريب"، لكن تاريخ المعاهدة" كما هو ثابت في الرسالة في ربيع ٢/ ٧٠١هـ ووفاة محمد الثاني - الفقيه في ٨/شعبان/ ٧٠١هـ ، أزهار الرياض ٢: ٣٤١ أي أن تاريخ المعاهدة قبل وفاة السلطان محمد الثاني بعدة اشهر ، مما يدل على أن الرسالة صادرة عن محمد الثاني وليس محمد الثالث كما أشار لها شكيب ارسلان ، وتبعه في ذلك محمد ماهر حمادة أيضاً .

أصحابه الكرام، ثم يشرع بعد ذلك بذكر أطراف المعاهدة، وما تحت إيالة كُلٌ منهما وبذلك تكون الصورة واضحة المعالم عن المناطق الواقعة في المعاهدة، بصورة إعلان التزام بهذا الإتفاق : "ليعلم كُلُّ مَنْ يقف على هذا الكتاب أن الأمير أبا عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي عبد الله نصر، سلطان غرناطة ومالقة وما إليها، وأمير المسلمين، نُنْعُم لكم أيها السلطان المعظم دون خايمي، ملك أراغون، وبلنسية، ومُرسية، وكند برجلونه، بأن نكون لكم صاحباً وفيّاً ، ويكون بيننا وبينكم صُلح ثابت وصُحبة صادقة." بعد ذلك يدخل في تفاصيل بنود الصُّلح بنداً بنداً، والتزام كلّ طرف منها تجاه الطرف الآخر: " ... يكون فيها أصحابكم ، وأعداؤكم أهل قشتالة – أعداءنا، ونرفع الضرر والفساد عن بلادكم ، وأرضكم من بلادنا وأرضنا، ولا نجعل سبيلاً لأحد من ناسنا لا في البرّ ولا في البحر عليكم ... على أن تكونوا أنتم لنا كذلك، صاحباً وفياً – كما ذكرتم في كتابكم، وتلتزموا لنا صُحبةً صادقة، وصُلحاً ثابتاً، وتصاحبوا كلّ صاحب لنا، وتعادوا كلّ عدوّ لنا من المسلمين، أو من أهل قشتالة، وترفعوا الضرر والفساد عنْ أرضنا كلّها، وعن ناسنا في البرّ والبحر، وإن اتفق أن يرجع إلى طاعتنا بلدٌ من بلاد العدوة، أو ناس من أهلها، فيكون حكمهم في ذلك كحكم سائر بلادنا الأندلسية ... كذلك ننعم لكم بإن يصل إلى بلادنا كلُّ من يريد الوصول برسم التجارة من بلادكم، بما شاءوا من أنواع التجارات ... ويكونوا مؤمَّنين على أنفسهم وأموالهم .... وعلى أن يكون أيضاً كلُّ مَنْ يتوجه من بلادنا إلى بلادكم من التجار مؤمّنين في نفوسهم وأموالهم،ويسرّح لهم في بلادكم ما شاءوا من أنواع التجارات ... كذلك نُقْسِم لكم أن نعينكم على أهل قشتالة...ولا نعمل معهم صُلحاً ولا مهادنة إلاّ برأيكم...وعلى أن تلتزموا أنتم بما نلتزمه نحن من النفاق عليهم، وشنّ الغارات على أرضهم كلّها، ولا تعملوا معهم صُلحاً ولا مهادنة إلاّ في رأينا...وعلى أن تعينونا أنتم عليهم متى احتجنا إعانتكم ... كذلك ننعم لكم إنه إنْ احتجتم إلى إعانتنا في أرض مُرسَية بفرسان من عندنا أن نعينكم بها.على أن يقيموا في بلادكم...يُعْطَوا المأكولَ والنَّفقة من يوم خروجهم من ارضنا إلى يوم رجوعهم إليها ...(١) مُرسية نردّه في الحق لكم وإن كان من غيرها من بلاد قشتالة، واعترض لكم فيه، وكلُّ موضع يرجع لكم أنتم من رئاسة قشتالة ، فلا اعتراض لنا نحن فيه، إلاّ أن يكون من المواضع التي هي لنا وهي طريف .. وقشتال... وعلى أن تمنعوا أهل بلادكم من الدخول بالتجارة إلى اشبيلية، و غيرها من بلاد أعدائنا في البر والبحر،وإن دخل أحد منهم إليها يكون حكمهُ حكم الأعداء الذين يكون معهم". وبعد سَرْد بنود الاتفاقية، يختم الكتاب بالتنويه على الالتزام بمضمونه، وصِحّة ما

---

١ – جملة أكلتها الأرَضَة، ومن السياق يتضح أنها تتعلق بما يلتزمه كلُّ طرَف تجاه الآخر، فيما لو استعاد جزءاً من الأراضي التي احتلتها قشتالة، أن يعود إلى صاحبها الأصلي، أيّاً كان الذي استردّها من الطرفين .

ورد به. بوضع خط يده عليه وتاريخ الرسالة والعلامة السلطانية: " ... وأن يكون هذا كله ثابتاً، وتكونوا أنتم منه على يقين، أمرنا بكتب هذا الكتاب، وجعلنا عليه خطَّ يدنا، وطابعنا، في آخر ربيع الآخر عام إحدى وسبعماية ، وكتب في التاريخ. " (١)

وهذه رسالة بعث بها السلطان علي بن أبي الحسن إلى بعض فرسان النصارى، يُجدِّد بها صُلحاً كان قد عقده معهم، ويُدْخل في هذا الصُلح فرسانا آخرين. (٢) يبدأ الرسالة بالبسملة والصلاة على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه. ثم يدخل في صيغة الإلتزام، التي يترتَّب عليه جرّاء الصُلح ، مع ذكر اسمه صراحة والدعاء له، وذكر الطرف الآخر بأسمائهم، وما تحت تصرف كلٌ منهم : " ليعلم من يقف على هذا المكتوب الكريم أو يسمعه، أننا عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر ابن الأمير المقدس أبي الحسن ... بن نصر أيدنا الله بنصره، وأمدّنا بيسره. كان بيننا وبين الفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور الأوفى دون دياقة هرّندس دي قرطبة قند قبره بن.قند حصن أشر، صاحب بيّانة وقائد القلعة، والفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور مرتين الهنشة ذي منت ميور صاحب القبذيق، والفارس المكرم الحسيب الزعيم المشكور بيغش بنيّغش صاحب لُكْ والبندين أكرمهم الله –بتقواه– صُلح ثابتٌ، ومحبة صادقة ومودة خالصة، منعقدة لأمد معلوم، ولأجل أن هذه المحبة التي بين مقامنا وبين الفرسان المذكورين هي تزداد في كلّ يوم، وفي كلّ حين، ونحن نريد أن تزيد أكثر من ذلك. وإنّا نجددها الآن، وأن نُدْخل في الصُلح والمحبة الفرسان المكرمين بيغش بنّيغش صاحب لك، والبندين، وذون دياقة هرّندس المرشكا بقشتالة، والوزير الكبير بقرطبة وذون مرتين قمنددور استبّة أولا القند ذي قبرة". بعد ذلك يتوجه بالخطاب إلى هؤلاء الفرسان جميعاً بذكر ألقابهم وما تحت أيديهم، وما يلتزم به من شروط في المعاهدة مع تحديد يوم ابتداء المعاهدة ، ويوم انتهاءها بالأشهر الأعجمية : " فلأجل ذلك تعلمون أيها الفرسان المكرمون ... أكرمكم الله بتقواه، وإنّ مقامنا الكريم يعقِد ويحدّد معكم صلحاً، ومحبّة ثابتة خالصة، لهذه من عشرة أعوام متوالية يكون أولها أوّل يوم من شهر ينير. الأعجمي مُفْتَتح عام اثنان وسبعين وأربعماية وألفٍ لتاريخ المسيح، ويكون تمامها آخر يوم من شهر جنير الأعجمي عام إحدى وثمانين وأربعماية وألف لتاريخ المسيح المذكور.على أن نكون أحباب أحبابكم،وأعداء أعدائكم،وأن نعينكم في جميع الأمور التي تحتاجون إليها في وطنكم بقدر جهدنا على جميع أعدائكم من أيّ صنف كانوا،للمدة التي تريدونها...وكذلك نعرفكم أيها الفرسان

---

١ – وكتب في التاريخ، العلامة السلطانية آنذاك. مستودع العلامة ٤١ .

٢ – الرسالة موجودة في خلاصة تاريخ الأندلس ٣١٦–٣١٧ .

المكرمون بجميع ما نعمله أو نتعرّفه من سر أو غيره... لأجل أن تجعلوا خلاصاً في أرضكم قبل وقوع الفساد، وإذا نميز ضرراً لجهتكم نجتهد في تبعيده عنكم .... واعلموا أيها الفرسان المكرمون المذكورون أنّ أولادنا الأمراء -أسعدهم الله -يحفظون لكم هذا الصلح ، وهذه المحبة مثلما نحفظها نحن ..." بعد ذلك يُقسم على التزامه بهذه الشروط، ولتأكيد ذلك يضع علامته على هذه الرسالة: " ونحن نعاهدكم على صحّة جميع ما ذكرنا لكم، نوفي به ونحفظه، ونحرزه بالقدر والوفاء ... ولأجل أن يكون هذا العقد صحيحاً وثابتاً، ختمناه بعلامتنا السعيدة الصادرة من يدنا الكريمة، وجلعنا عليها طابعنا العزيز المعهود عن مقامنا الكريم". ويختتم الرسالة بذكر تاريخ كتابتها بالسنّة الهجرية، ووضع العلامة السلطانيّة. "في أوائل رجب الفرد المبارك عام ستة وسبعين وثمانماية عرّف الله بحكمته صح هذا".

ومن المعاهدات المهمة التي وُقّعت بين آخر سلاطين غرناطة والنصارى ، والتي قرّرت مصير الأندلس برمّتها تلك المعاهدة التي سلّمت على أساسها غرناطة، إلاّ أن هذه المعاهدة لم تصل إلينا، ولكن المقرّي في كتابه نفح الطيب،(١) وصاحب نبذة العصر، (٢) أشارا إلى بعض مضامين هذه المعاهدة، دون إبرازها بشكلها الكامل، إلاّ أن الدكتور محمد عبد الله عنان،(٣) نقل ولأول مرّة -كما يقول- محتوياتها عن نصوصها القشتالية الرسمية، وذكر أنها تحتوي على ستة وخمسين مادّة، كذلك نشرها الدكتور محمد عبده حتاملة(٤)، مع الملحق لهذه الإتفاقية، الذي يعطي أبا عبد الله الصغير الامتيازات المُتّفق عليها عند تسليم غرناطة .

لقد جاءت رسائل المعاهدات بشكل واضح، ودقيق في كُلّ ما يُطرح من قضايا ، مع الحرص على التسلسل المنطقي والموضوعي لبنود المعاهدة باعتماد العبارة الواضحة التي لا تحتمل معنى آخر خالية من الزخرفة اللفظية، حيث لا عناية لهم بها في هذه الرسائل .

كما أن سيمة الإيجاز بارزة فيها، وهذا ما يتطلبه الموضوع، وطبيعة الموقف، الذي لا يحتمل اللّف والدوران حول المعنى.

وقد حافظت رسائل المعاهدات على رسومها، وأسلوبها، حيث كانت تبتديء بالبسملة والصلاة والسلام على الرسول -صلى الله عليه وسلّم-، ثم الإبتداء بذكر سلطان غرناطة ، مع الدُعاء له، ثم ذكر المخصوص بالرّسالة. ويبدو أن ذلك من باب عِزّة المسلمين على الكفّار . ولم يتغير هذا الأسلوب حتى انتهاء دولة بني الأحمر .

---

١ – نفح الطيب ٢: ٦١٥-٦١٦ .

٢ – نبذة العصر ٤٨، ٥٠ .

٣ – نهاية الأندلس ٢٤٥-٢٥٠.

٤ – التنصير القسري لمسلمي اسبانيا ص ٦١ .

* الظهائر الرسمية :

الظهير هو المرسوم الذي يصدره السلطان أو من ينوب عنه، بما يتعلق بالتعيين في إدارات الدولة المختلفة، من كتّاب وقضاة، وولاة، وعمّال -الذين كانوا يعينون-غالباً- من اقارب السلاطين، أو ممن كان لهم شرف الخدمة معهم، وعُجم عودهم، وظهرت فيهم الكفاية، والإخلاص للدولة -كما تشمل الظهائر الإقطاعات، أو الهبات، أو الامتيازات التي ينعم بها السلاطين لبعض الأفراد، سواءً أكانوا عاملين في الدولة. أم غير ذلك.

إن أقدم ظهير وصل إلينا ما ذكره لسان الدين بن الخطيب، يتعلّق بالامتيازات التي أعطاها السلطان محمد بن يوسف، لأبي بكر ابن مهيب اللخمي(١)، مؤرخ بتاريخ ٦٤٣هـ. (٢)

يذكر الكاتب المسوّغات التي دعت إلى هذا الظهير، وما كان يتحلّى به المخصوص به من أمور، أوجبت اصداره. "... أنه أخلص أوليائه [السلطان] وداً، وأفضلهم قصداً، وأكرمهم عهداً، حين ظهرت له - أيده الله-، آثار آراية الأصيلة، وبانت في الصلاح والإصلاح ميامن مناقبه الجميله، ووجب له من العناية والمزيات، أتم ما توجبه معارفه، وتقتضيه مجادته وزهادته، التي لا يُفَنَّد في وَصفِها واصف، وأعلن بأنه -دام عزّه- أحقُّ مَنْ حُفظت عليه مرتبة صدور العلماء الراسخين في العلم، وأُبقيت مزيّة ما تميّز به من التُقى والورع الكافي والحِلْمَ، وبرع بِصِلَة العناية بجانبه لما أهلته إليه معرفته من نفْع المتعلمين، وإرشاد مَنْ يسترشده في مسايل الدين من المسلمين، وأفصح بأنه أولى مخصوص بالتجلّة والتوقير، وأجدر منصوص على أن قدْره لديه معتمد بالتكريم، والتكبير". ثم يذكر في الظهير الامتيازات التي يتمتع بها صاحبه،"...وأمر -أعلى الله أمره-أن يستمر ولزوجه الحُرّة الأصيلة الزكيّة...ما اطّردت بها العادة لهما قديماً، وحديثاً...من صَرْف النظر في أعشارهما، وزكواتها إليهما،ليضعا ذلك في أحق الوجوه ... وتجديد أحكام ما بأيديهما من الظهاير، والأوامر القديمة والحديثة،المتضمنة تسويغ الأملاك، على- اختلافها، متباين أجناسها وأوصافها، لهما ولأعقاب أعقابها الى التأبيد والتخليد...وأن يطّرِد لشركائهما، وعَمَرة أملاكهما،وحواشيهما، ومن اتصل

---

١ - هو محمد بن مُفضل بن مُهيب اللخمي، يُكنى أبا بكر ، من أهلب شلب، كان أديباً ، شاعراً ، خطيباً مِصقعاً، وكان رجلاً عالماً، عظيم النزاهة ، شريفاً، عالي الهمة، عظيم الوقار، وهو الذي عقد الصلّح بين ابن الأحمر وابن الرميمي، حين مهاجمة ابن الأحمر للمرية، و أسفرت وساطته عن تسليم المدينة لأبن الأحمر، وقد حظي عند السلطان بسبب ذلك . توفي عام ٦٤٥هـ، انظر ترجمته في الإحاطة ٢: ٤١٨-٤٢٦.

٢ - الظهير موجود في الإحاطة ٢: ٤٢٠-٤٢١.

بهما جميل العناية، وحفيل الرعاية، وموصول الحماية، الاستمرار الذي يطّرد العمل به مدى الأيام، وتتوالى التمشية له، من غير انصرام على الدوام".

وفي نهاية الظهير يبينّ واجب ذوي الاختصاص الولاة، والعمّال، وغيرهم، تجاه صاحب الظهير وتنفيذ مضمون الظهير: " ... فمن وقف على مضمون هذا الظهير الكريم، من الولاة والعمّال، وساير ولاة الأشغال، وليتلقّه بغاية الائتمار، والامتثال، إن شاء الله".

ومن هذه الظهائر ظهير بقضاء الجماعة، بحضرة غرناطة، اصدره السلطان الغني بالله محمد الخامس (١) بعد عودته إلى مُلكه وقد صدر الظهير عام ٧٦٤هـ .

يعرض الكاتب في هذا الظهير جانبين اثنين من جوانب شخصية المخصوص بالظهير الجانب المعرفي، والجانب الذاتي، ثم ما أبداه من اخلاص وولاء للسطان ، فكان بذلك خليقاً بهذا الظهير، فقد كان : "طاهر النشأة وقورها، محمود السّجية مشكورها ، متحلياً بالسكينة، حالاً من النزاهة بالمكانة المكينة، ساحباً اذيال الصون، بعيداً عن الاتصاف بالفساد من لدن الكون. فخطبته الخُطَط العَليّة ... واستعملته دولته التي ترتاد أهل الفضائل للرُتب ... يجمع بين الطارف والتالِد، والإرث والمُكْتسب، فكان معدوداً من عدول قُضاتها وصدور نبهائها، وأعيان وزرائها ... فلما زان الله خلافته بالتمحيص .. كان ممن صحب ركابه ... وسلك في مظاهرته أوضح الطُرق ... واشتهر خبر وفائه في الغرب والشّرق، ... حتى استقلّ مُلكه فوق سريره، وانتهج (٢) منه الإسلام بأميره، وابن أميره ... وكان الجليسَ الغُرنب (٣) المحلّ، والحظيّ المشاور في العقد والحلّ، والرسول المؤتَمن على الأسرار ، والأمين على الوظائف الكبار، فزيّن (٤) المجلس السلطاني بالوقار، ومُتحِف الملك بغريب الأخبار، وخطيب مِنْبره العالي في الجهات (٥)، وقاريء الحديث لديه في المجتمعات."

وبعد تعليل سبب الاختيار، لهذه الخُطّة يَذكر الواجب المُلْقي على صاحب الظهير، مع وجوب التزام الطاعة في تنفيذ ما أُسنِد إليه من مهمّات : " ... وقدمه -أعلى الله قدمه وشكر آلاءه ونعمه-، قاضياً بالأمور (٦) الشرعية، وفاصلاً في القضايا الدينية، بحضرة غرناطة

---

١ - الظهير موجود في ريحانة الكتّاب٢: ٨٠-٨٣، صُبح الأعشى١١: ١٩-٢٣، والاقتباس من ريحانة الكُتّاب.

٢ - في صُبح الأعشى ١١: ٢١ " ابتهج"

٣ - في المصدر السابق ١١: ٢١ " المُقرّب".

٤ - في المصدر السابق ١١: ٢١ "مُزيّن".

٥ - في المصدر السابق ١١: ٢١ "الجمعات" . ٦ - في المصدر السابق ١١: ٢١ "في الأمور" .

العلية (١)، تقديم الاختيار والانتقاء ... فليتولّ ذلك عادلاً في الحكم بنور العلم (٢)، مُسويًا بين الخصوم، حتى في لحظه والتفاته، مُتصفاً من الحلم بأفضل صفاته، مهيباً في الدين، رؤوفاً بالمؤمنين، ومسجلاً (٣) للحقوق، غير مُبالٍ في رضا الخالق، بسخط المخلوق، جزلاً في الأحكام، مُجتهداً في الفَصل بأمضى حُسام، مراقباً لله عزّ وجل -في النقض والإبرام، وأوصاه بالمشورة، التي تقدح زِناد التوفيق، والتثبُّت حتى يتبلّج قياس التحقُّق بآراء مشيخة أهل التوثيق (٤)، عادلاً إلى سعَة الأقوال عن الضيّق (٥)، سائراً من مشهور المذهب إلى أهدى طريق ... وأمره -أيّده الله- أن ينظر في الأحباس على اختلافها، والأوقاف على شتّى أصنافها، واليتامى التي أُسندِلَت (٦) كفالة القضاة على ضعافها، فيذود عنها طوارق الخَلَل، ويُجري أمورها بما يتكفّل لها بالأمَل".

وفي نهاية الظهير، يذكر واجبات الرَّعية، والولاة، والعمال .. الخ نحو صاحب الظهير : "... فعلى مَنْ يقف عليه، أن يعرف هذا الاجلال، صائناً منصبه عن الإخلال، مُبادراً أمره بالامتثال بحَول الله".

من النَّصّين السابقين، يتّضح أنّ الظهائر تقتصر في طرق موضوعها، على ثلاثة عناصر، وهي تعليل اصدار الظهير، ثم الغرض منه، وواجبات الآخرين تجاه صاحب الظهير. مع التأكيد على إظهار شخصية السلطان قوية، وإن كانت أوامره -أحياناً- تأتي على شكل نصائح، وإرشادات ، ولكنها مبطّنة بالتحذير من مُجانبة الصواب.

كما اعتمدت على التراكيب والعبارات الواضحة والألفاظ السهلة، في سَرْد الواجبات والحقوق التي تتعين على المخصوص بالظهير .

---

١ – في المصدر السابق ١١: ٢٢ حرسها الله.

٢ – في المصدر السابق ١١: ٢٢ "مهتدياً بنور العلم".

٣ – في صبح الأعشى ١١: ٢٢ "كسجلاً" .

٤ – في المصدر السابق ١١: ٢٢ "جاءت عبارة "وأوصاه بالمشورة التي تقدح زناد التوفيق، والتثُّبت حتى ينبلج قياس التحقيق " بعد عبارة "سائراً من مشهور المذهب إلى اهدى طريق". وقد جاءت لفظة "بأراء" باراً" .

٥ – في المصدر السابق ١١: ٢٢ "المضيق".

٦ – في المصدر السابق ١١: ٢٢ "انسدلت" .

* الاستنجاد :

كانت الأندلس منذ بداية الفتح الإسلامي لها تتعرض لأخطار حروب دامية، عقائدية وسياسية، وجغرافية، تهدف إلى اقتلاعها، والسيطرة عليها. وكانت هدفاً رئيسياً للدول النصرانية آنذاك، حتى كادت أن تسقط بأيديهم، إلى أن جاء بنو الأحمر، فتولّوا أمر الدفاع عنها، بعد أن ضعفت المقاومة ، وتشتتت الجهود في الدّفاع عنها، بسبب الحروب والفتن الداخلية. وكانوا يستعينون على ذلك بغيرهم من الدول الإسلامية ، خاصة عدوة المغرب. وقد واصلوا في ذلك سُنّة أسلافهم الأندلسيين، باستعانتهم بعدوة المغرب، إذْ كانت تتوجه الأنظار إليها كُلما داهمهم خطر .

وكانوا في سبيل ذلك يعملون على ارسال الكتب، والوفود التي تحث على الجهاد، والدفاع عن هذه البقعة المُسلِمة، التي تعيش صراع البقاء في بحر زاخر من الأعداء. وكانوا يحثون أخوانهم المسلمين على تقديم العون، والمساعدة لهم بالعدّة والرِّجال ، لتمكينهم من الوقوف في وجه المدّ النصراني على بلاد المسلمين.

ومن ذلك رسالة بعث بها محمد الفقيه ٦٧١-٧٠١هـ، إلى سلطان المغرب (١)، يستحثه فيها على نجدة الأندلس، فقد ابتدأ رسالته، بوصف ما آلت إليه الحال في الأندلس ، وما يعتري المسلمين هناك من خوفٍ ، وقلق على مصيرهم، بسبب تكالب العدوّ عليها، وحَشْده العُدَّة والعدد للقضاء على الأندلس، مستخدماً جانب التأثير النفسي، والشعور الديني، لتكون الرِّسالة أبلغ أثراً في النفس، في استدرار الغوث، وشحذ العزائم، وإثارة الحمية الإسلامية، من خلال ذكره قتل الرجال، وسبي النساء والقضاء على الدين: " ... فقد تطاول العدو النصراني على بلاد الإسلام، واهتضم جنابها كُلَّ الاهتضام، وقد استخلص قواعدها، ومزّق بلدانها، وقتل رجالها، وسبى ذراريها ونساءها، وغنم أموالها، وقد جاءنا بإقراراه وإرعاده، وعُدده وأعداده، وطلب منا أن نسلم له ما بقي بأيدينا من المنابر والصوامع، والمحارب والجوامع، ليقيم بها الصُلبان، ويثبت بها الأقسة والرّهبان".

بعد ذلك الشرح يتوجة بطلب العون والمساعدة، مستخدماً جانب الترغيب، فللأندلس مكانتها في الدنيا والآخرة، من حيث وفورُ خيراتها ، وفضلُ الجهاد فيها:"... فابعث باعثك إلى نَصْر مناره، واقتباس نوره، وعندك من جنود الله مَنْ يشتري الجنّات بنفسه، ويحضر الحَرْب بإمانه، فإن شئت الدُّنيا فالأندلس قطوفها دانية، وجناتها عالية، وإن أُردت الآخرة فها جهاد لا يفتر ، وهذه الجنّة اذخرها الله لظلال سيوفكم، واحتمال معروفكم، ونحن نستعين بالله العظيم،

---

١ – الرسالة موجودة في الذخيرة السنيّة ١٤٠-١٤١ .

وبملائكته المسَومين، ثم بكم على الكافرين ، فقد قال تعالى وهو أصدق القائلين (قاتلوهم يُعَذّبهم الله بأيديكم، ويُخزهم، وينصركم عليهم، ويشفِ صدور قوم مؤمنين". (١)

لقد ظلت رسائل الاستغاثة والاستنجاد تَتْرى على عدوة المغرب أيام دولة بني مرين، والوفود تتوالى عليها شارحة تكالب العدو عليها، وأطماعه في القضاء على البلاد والعباد هناك، وكانت المغرب تستجيب لكل صرخة استغاثة، ولم تبخل في امداد الأندلس، لا بالعدّة ولا بالعدد، حتى لفظت دولة المرينيين أنفاسها عام ٨٦٩هـ. (٢) بعد ذلك لم يكن أمام سلاطين الأندلس إلاّ التوجه إلى المشرق حيث المماليك في مصر، يستحثونهم، ويستصرخونهم لمناصرتهم، بعدما تقطعت بهم الأسباب.

ومن الرّسائل التي أُرسِلت إلى سلاطين مصر، رسالة بعث بها السطان سعد بن الأحمر إلى خشقدم (٣) سلطان مصر آنذاك. يشرح فيها حال المسلمين، والأخطار الكبيرة التي تتهدد كلمة الإسلام هناك. مع وصف النصارى وغيرتهم على دينهم، والقتال من أجل عقيدتهم الباطلة بالمال والأنفس:"فقد استقر في علومكم...ما هذا القطر الغريب عليه من مدافعة العدو الكفور، ومكافحة جيشه الموبور، وتسوّل له عِدّة الشيطان الغرور،...من استئصال هذه الكلمة، والاستيلاء على نفوس الأمة المسلمة، ويملك البلاد زمراً من الكفر وشيعاً، يعطلون من مجال التوحيد الفسيح،ويعلنون بالتثليث،ويهتفون بأباطيل الدين الخبيث...فالدين هنا في خَطْب مهول،واشتباك مع الكافرين الذين عمروا الحزون والسهول،حتى أذهلوا مع قلتنا القلوب والعقول."

ثم يتوجه بِحُرقة شديدة، واستعطاف، وبلهفة تثير الحمية والشفقة، من خلال الزفرات التي يبثها في استصراخه، لتدارك الدين والبلاد. مستخدماً أسلوب التوكيد في طلب المعونة، مع الإشارة لِما يتمتع به السلطان المخصوص بالرّسالة، من قوة، فهو ملجأ المسلمين الذين إليه يلجأون في مثل هذه الأمور : " .. يا ولي المسلمين، الذي نؤمّل بغياثه رحمة أرحم الراحمين، ابقاكم الله تقطع بمعونتكم أواصر الكافرين، ونتدارك أرماق هؤلاء المُنقطعين، نحن والله مقيمون في سفطٍ مع الحيّات، متعرضون لسهام المنايا الوحيّات، فحسبنا الله ونعم الوكيل ... فالمعونة المعونة، والبِدار البدار، بما مكّنكم الله منه – والحمد لله–من القوة والاقتدار، فَسَل اقتحام الدار، ووهي الجدار،فقد أحوج الافتقار، وجنحت الشمس للاصفرار، وما بعد العشيّة من عرار. (٤)

---

١ – سورة التوبة ٩.   ٢ – الرّسالة موجودة في "المماليك والفرنج" ١٩١–١٩٩ .

٣ – المصدر السابق ١٨١–١٨٤ .

٤ – يشير إلى قول الصمة بن عبد الله القشيري :

أقول لصاحبي والعيس تخدي   بنا بين المنيفة فالضّمــــار

تمتــع مــن شميم عرار نجدٍ   فما بعد العشية من عــــرار   انظر لسان العرب مادة "عرر"

ولتوكيد ما هي عليه الحال من شدّة وضيق ، يعرض الكاتب للأماكن التي احتلها النصارى، وما يمثله ذلك من دنو أجل الأندلس، فأعمدة الدولة الاسلامية في الأندلس تنهار عمودا إثْر عمود، وتسقط الحصون حصنا بعد حصن، فتكون أوجب في استجابة النداء، والسُّرعة في النجدة والإعانة. "هذا العدو المشرك صاحب قشتالة - قصمه الله- في كلّ عام يهجم على بلادنا، وثغورنا، ويجدّد في كلّ ساعة ولحظة أشجان قلوبنا وصدورنا، تملك في العام الفارط مدينة جبل الفتح من بلادنا، وهو محلُّ الفتح الأول، والمعقل الذي عليه الاعتماد والمعول، أزال عنه كلمة الإسلاك، وعمّر مآذنه بالنواقيس. ومساجده بالأصنام ... وفي العام المذكور استولى العدوّ أيضاً على حصن اللقوق، من حصون المسلمين، عينه إلى أرض الكافرين مراعية ... وإليه كان يُركن من شن الغارة على أرض الكفر ... والآن استولى العدو على حصن ارجذونة ... ينظر أرض العدى عن كثب، ويلاحظ العدو إذا وثب، ويحذر من مكائده، وينذر من مراصده، فوهت القوى ، وترادفت البلوى، وعظمت الشكوى، وضاق المجال، ومُنّت الآمال ، وأعوز الاحتيال."

ثم يعاود التأكيد على طلب العَون، والمساعدة، مادحاً السلطان، بإن قصر عليه نُصْرَة الإسلام، وولاية أمر المسلمين، وحُبُّ الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، إثارة للحمية واستثارة للعاطفة الدينية : ": فتعالوا يا وليَّ المسلمين ، وناصر الدين، القائم على أصوله، المبني على حُب الله ورسوله، ندعو الله في كفّ هؤلاء المشركين، الذين قاموا بالحق ولا تضرّعوا، ونمدُّ يدَ الضراعة، فالله يقول : " فلولا جاءهم بأسنا تضرعوا"، (١) أن يؤيد الله الكلمة، ويتدارك أرماق هذه الطائفة المسلمة، بالنّصر على الطاغية، وعلى جنود العدوّ الباغية ".

لقد عَمَد الكُتّاب في رسائل الاستنجاد إلى إيجاد المبررات التي استدعت طلب النجدة ، من خلال وصف حال المسلمين، مقارنة بأعدائهم.

كما استعملوا التعابير الدينية، مع تضمين هذه الرسائل كثيراً من الآيات القرآنية التي تحضّ على الجهاد وفضائله، وما يدخره الله سبحانه وتعالى للمجاهدين.

أما الألفاظ فقد كانت مُختارة بحيث تستثير الحمية، والشفقة، وتخاطب الوجدان والعاطفة لتكون أكثر أثراً في نفوس المُرْسَل إليهم .

---

١ - سورة الأنعام ٤٣.

*** التعازي :**

التعازي هي الرسائل التي تصدر عن السلطان في الحوادث والملمّات، وبما يتعلق بالوفاة، سواءً أكانت وفاة الآباء، أم الأبناء أم الأمهات، أم الأقارب، وما شاكلهم، للمواساة بالمصائب، وتخفيف أثر الفجيعة على صاحبها. مع تأكيد المشاركة في ألم المُصاب.

وهذه الرسائل تنوب عن حضور السلطان بشخصه للعزاء، وكانت ترفق مع وفد رسمي لهذه الغاية. وعادةً ما توجه هذه الرسائل إلى السلاطين والملوك في الدول الأخرى، إذا ما أوجب ذلك .

٧٣٣هـ

ومن هذه الرسائل، رسالة بعث بها أبو الحجّاج يوسف الأول إلى نظيره المغربي (١) يعزّيه بوفاة والدته . تصف الرّسالة الأثر الذي تركه خبر الوفاة، من ألم وحرقة وحُزنٍ شديد : "فإننّا اتّصل بنا ما أشْرَقَ الأنفاس بصعدايها، وأشجى النُفوسَ بدايها وغمر الشؤون بمايها، وعَمَر القلوب بغمايها، من استيثار الله عز وجل بتلك الجهة السلطانيّة ذات البركات الطاهرة، والمكارم الهامرة، التي ثبتت في أوراق الآفاق آي مفاخرها المتلوّة، وأوجب لها الملك حقوق الأبوّة أعلى الله درجتها في عِلّيين، وأسعدها بجوار كرايم المختار من أمهات المؤمنين، فياله من فاجع لم ينفع فيه إلاّ الاسترجاع، وَخطْب تساوى عند الجبان والشجاع ... أصاب (٢) الملك بأعلى ذخائره المحسوبة ، وأسنى حسناته المكتوبة، وأعظم عُدده المصونة المحجوبة." لكن العزاء في هذا الأمر،هو من عادة الأيام ، التي لا تبقِ على حال، والعزاء فيه أنّ السلطان لم يُصبْه مكروه، فهو "القطب الذي تدور عليه الدنيا والآخرة"، وسينال الفقيدة من دعواته، وجهاده ما " يتّصل لها بكم في الدارين أسباب السرور،وتقرُّ عيناً تفِدُ على ضريحها المبرور من البركة الهامية والنور."ثم يهوّن على السلطان من هذا الأمر بإنه "ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، أنه قال:إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث، فذكر ولداً صالحاً يدعو له،وصَدَقةً جاريةً،وعملاً يُنْتَفَع به.وقد اجتمع لها الثلاثة والحمد لله في نَظْمٍ مُتَّسِق، وتألّف لها منه كلُ مُفْتَرِق، لما أعده الله لمقدمها من أسباب الكرامة، وعلو الدرجة في دار المقامة".ويؤكّد له لو أن الأمر يُفْدى، لَمَا توانوا عنه، لكنه قضاء الله وقدرة الذي لا رادّ له ، فما عليه إلاّ الصبر، والقدوة الحسنة بالرسول الكريم: " واعلموا أيّدكم الله ، أن هذا الخَطْبَ الذي طرق ذلك الجناب ... لو كان مما يُقْبل فيه الفِداء، أو يعمل بسببه النّدا،لكانت النفوس من خُلصان مقامه الرفيع،وأوليائه بعض فدائه، والمبادرة

---

١ -الرسالة موجودة في ريحانة الكتّاب١ : ٣٣٧ -٣٤٠

٢- في ريحانة الكتّاب "أهاب"والمثبت"أصاب" أنسب للسياق.

تسبق أوّل ندائه، ولكنـه أمْر تذْعن لـه المراكب المختالـة، والرمـاح المنثالـة، والجنـود المجنّـدة، والصّفاح المهنّدة ... ومقامكم الأعلى ... يتلقّى أمْـرَ اللـه بالتسـليم والرّضـا ، ... ويعلـم أن الدنيـا ليست بدار القرار، وأنّ ما عند الله خير للأبرار، والصّبْرُ أعلى الذخائر، وأسنى المفاخر، وقـال الله تعالى : " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسـنة، لمن يرجـو اللـه واليومَ الآخـر" (١)، فقد سهّل مضض فَقْدِه، كُلّ خَطْبٍ من بعده، وسلّى كُلّ واحدٍ عن وَجْده".

بعد ذلك يخبر السلطان بإنه ما أن وصلـه الخبر حتـىّ بعث برسوله إليه للقيام بواجب العزاء، معتذراً عن عدم مقدرته على الحضور بشخصه، تاركـاً تقدير الأمـر لحصافـة السـلطان، لكنه أرسل أحد قرابته، إجلالاً له، إذ الرسول من ذوي السـلطان، وليس مـن عُمّـاله:" وأننـا لمـا اتصل بنا الخبر، وجهنا إليكم من ينوب عنّا في سُنّة العزاء، من المسـاهمة بـأوفى الأجـزا، ولـولا حُكْمُ الضرورة لم نَقْنَع برُخْصَةَ هذا الإجراء، لكـن الأمـور مثلكم مَـنْ يتأمّلَهـا، والأعـذار فضلكم يَقْبلها، والذي عيّنا لذلك هو قريبنا الريس الأجل، أبو جعفر بن الرئيس، المرحوم أبي الحسن بـن نَصْر".

وإذا كـان المتَوفّـى السـلطان، كـانت الرسـالة يتنازعهـا الضّدان، الهنـاء، والعـزاء، هنـاءٌ للسلطان الجديد لبتوليه الأمـر، وعـزاء بالسـلطان المتوفـىّ، فقد بعث أبـو الحجـاج يوسـف الأوّل رسالة بغرض الهناء والعزاء للسطان أبي عنان سلطان المغرب، (٢) يعزّيه بوفـاة والـده، ويهنـأه بتوليه الحكم من بعده.

يصف الكاتب ما أحدثه خبر الوفاة من أثرٍ كبير في النفوس لما له من وقْعٍ شديد عليها،" فيا لـه من سهم رمي أغراض القلوب فأثبتها، وطرق مجتمعات الآمال فشتّتها،...حادث نبـه العيـون مـن سِنَة غرورها،وذكّر النفوس بِفَهْمِ أمُورِها،وأشْرَقَ المحاجر بمـاء دموعهـا،وأضـرم الجوانـح بنـور ولوعها،وبيّن أن شراب الآمال سراب،وكل الذي فوق التراب تـراب".لكّـن هـذه حـال الدُنيـا لمـن يتدبّرها فهي لا تُبقى على حال،وإن داء الموت ليس مستحدثاً،بل هو قديم قِدم الإنسـان، يتسـاوى فيه الوضيع والرفيع،ثم يستعرض مَنْ جاءوا إلى الدنيا، وكانوا ذوي قوّة ونفوذ،ثـم رحلـوا عنهـا، ولـم تَنْفعهـم قوتهم، ولا جبروتهم:"فمن تـأمل الدنيـا وطباعهـا والأيـام وأفراعهـا، والحـوادث وقِراعها،بدا له الحق من المَيْن،واستغنى عن الأثر بـالعين،فشـأنها ألاّ تفترّ عن سـهم تسـدده إلـى غَرَض،وصحـة يعقبهـا مـرض،وجوهر ترميـه بِعَرَض،وداءُ المـوت قديم،وقَرِيْــه لا يبقى عليـه

---

١ – سورة الأحزاب ٣٣ .

٢ – الرّسالة موجودة في ريحانة الكُتّاب ١: ٣٢٦ – ٣٣٧ .

أديم، ولا يشربها موسر وعديم، دبّت إلى كسرى الفُرس عقاربه، ولم تمنعه أساورته ولا مرازبه، وقَصّر قيصر عن مشاربه، وابتزّ سيف بن ذي يزن من غمدانه، ولم تَرْعه مضاربه، وأرى تُبّعاً فلم يكن في أتباعه من يحاربه، وكم في الإسلام من ملوك أولي فخر ما بين بني العبّاس وآل صخر، فأين مروان ودوّاره، وأبو الأملاك وبهاره، والوليد وأبناؤه، وسليمان وأولاده، وعُمر وثناؤه، ويزيد وظباؤه، وهشام وآباؤه، والجعدي وآراؤه، وابن السفّاح وحُسامه، والمنصور واعتزامه، والمهدي وإعظامه والهادي وإقدامه، والرشيد وأيّامه، والأمين ونُدّامه، والمأمون وكلامه، والمعتصم وأسراجه وألجامه (١) ... لم تدافع عنهم الجنود المجنّدة، ولا الصّفاح المهنّدة، ولا الدروع المحكمة، ولا الثياب المُعْلَمة، ولا الجياد الجرد المسومة، ولا الرماح المثقفة المُقومة".

بعد ذلك ينتقل إلى الجانب الآخر، وهو التهنئة بتسلُّم السلطة والحُكْم الذي أزال الفاجعة بالمُصاب، وقلبت الأحزان أفراحاً : "غير أن هذا الفاجيء الذي فجع، ومنع القلوب أن تقرّ العيون أن تَنْجَع، غمرته البُشرى، وغلبته المسرّة الكبرى، وعوّضته من بقائكم الآية المحكمة الأخرى، فاضمحلّ من بعد الرسوخ، وصار ليله بحكم المنسوخ، بما كان من استخلاصكم المُلْك الذي أنتم أهله، واختياركم المجد الذي أشرَق بكم محلّه... فأيّ ترح يبقى بعد هذا الفرح، وأيُّ كَسل ينشأ بعد هذا المرح، إنْ أفَل البَدْرُ فقد تبلّج الفجر، وإن غاض النيل فقد فاض البحر، وإن مال فَلَك المُلك، فقد عاد إلى مداره، وإنْ أذِن الدهر، فقد أحسن ما شاء في اعتذاره ... وآن للدنيا أن تلبس الحُلا بعد الابتزاز". ثم يتوجه بعد ذلك إلى الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى على آلائه، وما كان من استلام الحكم للسلطان الذي كان هناء للبلاد والعباد : " فالحمد الله الذي زيّن بكم أفق المُلك ، وكيّف بِسَعْدِكم نَظْم ذلك السّلك، وهنأ الله بإيالتكم العباد والبلاد، والحجّ والجهاد، والمُطهّمة الجياد، وصدق الظنون في مقامكم الذي حاز في المكارم الآماد." ويختم الرسالة بإبداء عذره عن عدم مقدرته الحضور بشخصه لأداء هذا الغرض -العزاء والهناء- شارحاً الأسباب، من مدافعة العدو التي يتربّص بهم الدوائر .ولكنه أناب عنه شخصين لأداء هذه المهمة :

"وبادرنا -أيّدكم الله – من برّكم إلى غرضين، وشرعنا -علم الله- ومن لدينا أن نباشر بنفسنا هذين القصدين، إلاّ أننا عاقنا عن ذلك ما عقده العدو الذي بُلينا بجواره، ومصابرة تيّاره، في هذا الشهر من الميعاد ، الذي استدعى إليه الخلايق من كل فجٍّ عميق، واستقدم إلى يديه المشهود وجوه كلّ فريق،حتى غصّ بهم عرض الطريق،ولايؤمن أن يتفق رأيهم على كيد يُحْذَر داؤه،

---

١ – ذكر المقرّي في كتابه نفح الطيب ٦: ٣٧٩ فقرة من ذهبوا عن الدنيا، ابتداءً من كسرى ، وانتهاءً بالمعتصم مُجتزأة من هذه الرسالة .

ويخشى اعتداده ،وإلاّ فهذا الغرض قد كُنّا لا نرى فيه بإجراء الاستنابة، ولا نُخطي غَيْرَنا بزيارة تلك المثابة ، فليصل الفضل جلالكم ، ويقبل العذر كما لكم، وإذا كان الاستخلاف ممالاتحمله العباد ... فأحرى الأخوة والودادة، والفَضْل والمجَادة، فتجهزْنا جُهْدَنا، واصطفينا لُباب اللُّباب فيما عندنا، فعيّنا للنيابة عنّا. في تقرير الحب. والمساهمة الصافية الشرب، فلاناً و فلاناً".

يتّضح من خلال الرّسالتين أن الكتّاب يعمدون في رسائل التعزية على المعاني الإسلامية، بالتركيز على قضية القضاء والقدر من خلال استخدامهم الألفاظ، والتراكيب، الدالّة عليها.

كما كانوا يركّزون على ذكر مآثر المتوفين، ومدى الألم والمرارة الذي يخلفه المتوفي، ومشاركة المُرْسِل للمُرْسَل إليه بالمصاب ، مع العذر عن عدم الحضور للمشاركة ، بسبب الانشغال بالجهاد، ليكون ذلك أقْبل للعُذْر .

كما كانوا يحاولون التخفيف من المُصاب بالتأسّي بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، والأقوام، والناس الذين سبقوا دلالة على أن الموت غاية كُلّ حيٍّ، وإنه كأس لابد من شُربه لكل إنسان .

* الرسائل النبوية :

تُعَدُّ الرسائل النبوية تعبيراً عمّا يعتري الأمة الإسلامية في الأندلس من خوف وقلق على مصيرهم، بعد ما اشتد ضغط النصارى عليهم، وباتوا يقضمون البلاد شيئاً فشيئاً. فكانوا يبعثون بهذه الرسائل إلى ضريح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يستجيرون به من كُلّ ما يتهددهم من خطر النصارى ، وسقوط الأندلس بأيديهم .

ولم يُعْرَف على وجه التحديد متى بدأ هذا الفن الأدبي، إلاّ أنّ هذه الظاهرة –ربما أعقبت الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب الذي –ابتدعه أبو العباس العَزَفي صاحب سبتة وابنه أبو القاسم. (١) ومن أوائل الرسائل النبوية التي وصلت إلينا. رسالة أنشأها أبو زكريا الحِفْصي ت ٦٤٧هـ، (٢) ورسالة كتبها أبو عبد الله محمد بن محمد بن الجنّان (٣) عن نفسه، (٤) ورسالة

---

١ – نيل الابتهاج ١٩٣ .   ٢ – البيان المغرب ٣: ٣٩٥–٣٩٨ .

٣ – هو محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري ، يكنى ابا عبد الله من أهل مُرْسية، كان محدثاً راوية ضابطاً، كاتباً بليغاً، شاعراً، رائق الخط، ديناً فاضلاً، خيرا ، ذكياً، استكتبه بعض أمراء الأندلس، ثم توجّه إلى إفريقية، واستقر ببجاية، وكان بينه وبين كتاب عصره مراسلات ظهرت فيها براعته.وكان له في الزُهد ومَدْح النبي صلى الله عليه وسلم بدائع توفي بعد عام ٦٥٠ هـ .

انظر ترجمته في نفح الطيب ٧: ٤١٥–٤٥٩، الإحاطة ٢: ٢٥٦–٢٦٤ . عنوان الدراية ٢١٣.

٤ – نفح الطيب ٧: ٤٢٤–٤٢٦ نقلاً عن الإحاطة .

أخرى كتبها خلف الغافقي القبتوري عن أبي القاسم العَزَفي(١)، كما أشار ابن خير في فهرسته (٢) إلى وجود رسالتين نبويتين أحدهما لابن أبي الخصال(٣)، والثانية لأبي محمد عبد الله بن السيّد النحوي. (٤)

وقد وصل إلينا من عصر بني الأحمر رسالتان كتبهما لسان الدين بن الخطيب، الأولى عن أبي الحجاج يوسف الأول(٥)، والثانية عن الغني بالله محمد الخامس. (٦)

ابتدأت الرسالة التي بعثها أبو الحجّاج يوسف الأول (٧) بقصيدة بمعنى الرسالة ، مطلعها :

إذا فاتني ظِلُّ الحِمى ونَعيمُه .كفاني، وحسبي أن يَهُبَّ نَسيمُه (٨)

---

١ – القبتوري، أبو القاسم خلف بن أبي الأصبغ ت ٧٠٤هـ رسائل ديوانية من العهد العزفي، تقديم وتحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة ، المكتبة الملكية، الرباط ، ١٩٧٩، ص ٨٩-٩٦ .

٢ – ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد ت ٥٧٥هـ، فهرسة ما رواه عن شيوخه، وقف على نسخها وطبعها فرنشسكة قداره زيدين، وخليان رباره طرغوه المكتب التجاري، بيروت، مكتبة المثنى، بغداد، ط٢، ١٩٦٣. ص ٤١٨-٤١٩.

٣ – ابن أبي الخصال: هو ذو الوزارتين الكاتب والشاعر أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي، وَزرِ للأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، وكتب عنه رسائل كثيره، تفنن في العلوم والآداب ، وله تصانيف كثيرة توفي ٥٣٩هـ أو ٥٤٠هـ . انظر ترجمته في المُغرب ٢: ٦٦، نفح الطيب ٣: ٢٦٨. ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الاشبيلي. قلائد العقيان، ومحاسن الأعيان. تحقيق د. حسين يوسف خريوش ، مكتبة المنار للطباعة والنشر، الزرقاء – الأردن ، ط ١، ١٩٨٩ ،٢: ٥١٨.

٤ – لم أعثر على ترجمة له فيما بين يدي من المصادر.

٥ – وردت في ريحانة الكُتّاب ١: ٥٥-٦٢، نفح الطيب ٦: ٣٥٤-٣٦٠، وصُبح الأعشى ٦: ٤٥٨-٤٦٧ الإحاطة ٤: ٥٢٧-٥٣٥، كما ذُكرت القصيدة التي بأولها عند: لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب وعُلالة الاغتراب، نشر وتعليق د. أحمد مختار العبادي، مراجعة د. عبد العزيز الأهواني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ودار النشر المغربية. ص ١٢٣-١٢٦.

٦ – وردت في ريْحانة الكُتّاب ١: ٦٢-٨٠، وفي فصل منها في ريحانة الكُتّاب ١: ٢٠٣-٢٠٥، وفي نفح الطيب ٦: ٣٦١-٣٧٩، وقد وردت كاملة ومتصلة في الإحاطة ٤: ٥٣٦-٥٦١ ، كما وردت القصيدة التي تصدّرتها في ديوان الصّيب والجهام ص ٣٢٠-٣٢٥ .

٧ – الاقتباس من ريحانة الكتّاب ، وقد وردت القصيدة في نفح الطيب، وصبح الأعشى ٣٣ بيتاً، وفي نفاضة الجراب ٥٩ بيتاً، أما في الريحانة فهي ٣٢ بيتاً .

٨ – في الإحاطة ٤: ٥٢٧، ونفح الطيب ٦: ٣٥٤ ورد العجز : " فحسب فؤادي أن يهبَّ نسيمه".

بعد أن يَصِل إلى الرّسالة بهذه القصيدة، يبدأها بتوجيه الخطاب إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم، ذاكراً صفاته ونعوته، وما يتميز به عن البشر، واصطفاء الله سبحانه وتعالى له دون الأنبياء : " إلى رسول الحق إلى كافة الخلق ... خاتم الأنبياء، وإمام ملائكة السماء، ومَنْ وجبت له النبوة، وآدم بين الطين والماء، ... نبيّ الهُدى الذي طُهِّر قلبه، وغُفِر ذنبه، وخَتَم به الرسالة ربّه ... ومخرج الناس من الظلمات إلى النور، ... البشير الذي سبقت له البُشرى، وأرى من آيات ربّه الكبرى ... من طُوي بساط الوحي لفقده، وسُدَّ باب النبوة، والرسالة (١) من بعده، وأوتي جوامع الكلم، فوقفت البلغاء حَسْرى دون حَدِّه. ... ذو (٢) المعجزات التي أثبتها المشاهدة والحِسّ، وأقرّ بها الجنّ والإنس ... سيد الرّسل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب".

ثم يذكر اثر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على مَنْ تَبِعه، والصلاة والسلام عليه،: "الذي فاز بطاعته المحسنون، واستُنقِذ بشفاعته المذنبون، وسَعِد باتّباعه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون صلى الله عليه وسلم، مالَمَع بَرق، وهمَع وَدْق (٣)، وطلعت الشمس، ونسخ اليوم أمس." وبعد أن يخلص من توجيه الخطاب إلى الرسول الآية يذكر اسم باعث الرسالة، شارحاً حُبَّ الرسول صلى الله عليه وسلم عنده، مقدّماً ذلك على ذكر اسمه:"من عتيق شفاعته، وعهد (٤) طاعته، المعتصم بسببه، المؤمن بالله ثم به، المُستَشفي بذكره كلما تألم، المفتتح بالصلاة (٥) كلّما تكلّم، الذي يمثل (٦) طلوعه بين أصحابه وآله، وإنْ هبّ النسيم العاطر، وجد فيه طيبَ خِلاله، وإن سمع الآذان تُذُكِّرَ صَوْت بلاله، وإن ذُكر القرآن تَردد جبريل بين معاهده وجلاله، (٧) لا ثم تُربه، ومؤمّل قُربهِ، ورهين طاعته وحُبّه، المتوسّل إلى رضى الله (٨) وربّه، يوسف بن اسماعيل بن نَصْر".

---

١ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦١ "وسُدَّ باب الرسالة من بعده" ، وفي نفح الطيب ٦: ٣٥٦"وسُدَّ باب الرسالة والنبوة من بعده".

٢ – في صُبح الأعشى ٦: ٤٦٢ " ذي" .

٣ – هَمَع ودْق : نزل مطر .

٤ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٢، ونفح الطيب ٦: ٣٥٧ " وعَبْد طاعته".

٥ – في المصدرين السابقين ، والصفحات ذاتها "بالصلاة عليه".

٦ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٢–٤٦٣، ونفح الطيب ٦: ٣٥٧ "الذي إن ذُكر تمثل طلوعه بين أصحابه وآله".

٧ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٣ " استشعر تردد جبريل بين معاهده وحلاله" وفي نفح الطيب ٦: ٣٥٧ " استشعر تردد جبريل بين معاهده وخِلاله".

٨ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٣ " إلى رضى ربه". وفي نفح الطيب ٦: ٣٥٧ " إلى رضى الله ربه".

ثم يصف ما به من وَجْدٍ وشوق شديدين لزيارة الضريح الشريف، مُبْدياً سبب حُرقته على ذلك، للدلالة على شدة شوقه: "كتبه (١) إليك يا رسول الله ، والدمع ماح، وخيل الوجد (٢) ذا جماح، عن شوقٍ يزداد، كلما نقص الصبر، وانكسار لا يُتاح له إلاّ بدنوّ مزَارِك الجَبْر، وكيف لا يُغنِي مشوقك الأمر،(٣)وتوطي على كبده الحجر(٤)،وقد مطلت الأيام بالقدوم على تربتك (٥) المقدسة اللحد، ووعدت الآمال ودانت بإخلاف الوعد، وانصرف (٦) الرِّفاق، والعين بإثرِ ضريحك ما اكتحلت، والركايب إليك ما ارتحلت (٨)، والعزايم قالت وما فعلت". بعد ذلك يتغنّى بالبلاد التي ضمت الضريح الشريف ، مبيناً قُدسية المكان ، ومدللاً بذلك على تعلقه بتلك المعاهد، وبهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، نزيل تلك المعاهد : " ... فيا لها من معاهد فاز من حيّاها، ومشاهد ما أعْطَرَ ريّاها، بلاد نيطت بها عليك التمايم، وأشرقت بنورك منها النجود والتهايم، ونزل في حجراتها عليك الملك، وانجلى بضيا فرقانك فيها الملك، مدارس الآيات والسور، ومطالع المعجزات الساخرة الغُرَر. حيث قضيت الفروض وحُتِمت، وافتتحت سور الوحي وخُتمت (٩)، وأُبْدِئَت (١٠) المِلّة الحنيفية وتُمِّمَت، ونُسِخت الآياتُ وأُحكِمت."

ثم يذكر أن لا يُطفيء ظمأه وشوقه، وحُرقته إلاّ زيارة الضريح الشريف، مؤكّداً ذلك بالقسم، دلالة على صدق عاطفته : " أما والذي بعثك بالحق هادياً، وأطلعك للخَلْق نوراً بادياً، لا يطفيء غلّتي، إلا شِرْبُك ، ولا يسكن لوعتي إلاّ قُرْبك، فما أسعدَ من أفاض من حَرَم الله إلى حرمك، وأصبح بعد أداء ما فرضت عن الله ضيف كَرمِك، وعفّر الخدّ في معاهدك، ومعاهد أسرتك ، وتردّد ما بين داري بعثتك وهجرتك".

---

١ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٣ " كتبته"

٢ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٣، ونفح الطيب ٦: ٣٥٧ "ذات" .

٣ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٣ "وكيف لا يُغني مشوقك بالأمر".

٤ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٣" ويوطيء على كبده الحجر"، وفي نفح الطيب ٦: ٣٥٧، وتوطأ على كبده الحجر".

٥ – في نفح الطيب ٦: ٣٥٧ "تربك".

٦ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٣، ونفح الطيب ٦: ٣٥٧ " انصرفت".

٧ – في المصدرين السابقين ، والصفحات ذاتها "بنور".

٨ – في المصدرين السابقين والصفحات ذاتها "ما رحلت".

٩ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٣ " سورة الوحي"، وفي نفح الطيب ٦: ٣٥٨ " سورة الرحمن".

١٠ – في المصدرين السابقين ، والصفحات ذاتها "وابتُدئت ".

ثم يَشرع بشرح العوائق التي تحول بينه وبين زيارة الضريح الشريف، مستعملاً لُغَة المُبالغة في الوصف، كي يكون هذا الشَرْح أبلغُ في تقبُّل العُذْر. فإن المسلمين هناك -على قِلتهم- يجاهدون عدوا كافراً، كثيرا بعدده وعدته. والمسلمون قد وطنوا أنفسهم على الصبر والجهاد في سبيل الله، مستعينين بالتوكل على الله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم، يستعذبون ذلك حتى تكون كلمة الله هي العليا: "وإني لما عاقتني عَنْ زيارتك العوائق وإن كان شُغلي عنك بك- وصَدَّتني (١) الأعدا فيك عن وصل سببي بسببك، وأصبحت بين بَحْر تتلاطم أمواجه، وعدوٍ تتكاثف أفواجه، ويحجب الشمس عند الظهيرة محاجه، في طايفةٍ من المؤمنين، بك وطّنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم ... يقارعون -وهم الفئة القليلة- جموعاً كجموع قَيْصر وكسرى، لا يبلغون من عدوٍّ هو الذرّ (٢) عند انتشاره، معشار مِعشاره (٣)، قد باعوا من الله (٤) الحياة الدُنيا، لأن تكون كلمة الله (٥) هي العليا، فيا له من سرب مَروُع، وصريخ عنك ممنوع(٦)، ودعاء إليك وإلى الله (٧) مرفوع، وصبية حُمر الحَواصل، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل، والصليب قد تمطّى يمدُّ (٨) ذراعيه، ورفعت الأطماع بضبعيه، وقد حُجبت بالقتام السما، وتلاطمت أمواج الحديد، والبأس الشديد، فالتقى الماء، ولم يبق إلا الذّما، وعلى ذلك فما ضَعُفتَ البصاير، ولا ساءت الظنون، وما وُعِد به الشهدا، تعتقده القلوب، حتى تكاد تشاهده (٩) العيون، إلى أن أتلقاك غداً إن شاء الله. (١٠) وقد أبلينا العُذْر، وأرغمنَا الكُفر، وأعملنا في سبيل الله (١١) البيضَ والسُمر".

---

١ – في صُبح الأعشى ٦: ٤٦٤، ونفح الطيب ٦: ٣٥٨ "وعدتني".

٢ – في صُبح الأعشى ٦: ٤٦٤ "كالذّر".

٣ – في نفح الطيب ٦: ٣٥٨ "عُشر معشاره".

٤ + ٥ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٤، ونفح الطيب ٦: ٣٥٨ توجد كلمة "تعالى" بعد لفظ الجلالة .

٦ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٤ "إلا عنك" وفي نفح الطيب ٦: ٣٥٨ "إلاّ منك".

٧ – في المصدرين السابقين ، ولنصفحات ذاتها "ودعاء إلى الله وإليك مرفوع".

٨ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٤ "ومَدّ" ، وفي نفح الطيب ٦: ٣٥٩ "فمَدّ" .

٩ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٤ "تراه" .

١٠ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٤، ونفح الطيب ٦: ٣٥٩ يوجد كلمة "تعالى" بعد لفظ الجلالة .

١١ – في نفح الطيب ٦: ٣٥٩ يوجد كلمة "تعالى" بعد لفظ الجلالة .

ولهذه الأسباب السالفة الذكر، بَعَثَ بهذه الرسالة نيابة عنه، ليؤديّ حامِلها، ما يجب القيام به تجاه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم، من إهداء السلام، والخشوع أمام ضريحه الشريف، ثم ينوب عنه بالتوسّل إليه -الرسول الكريم- بطلب الشفاعة، وقبول الإنابة، ثم الدعاء إلى الله عز وجل بقبول شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيه : " استنبت (١) رُقعتي هذه إليك لتطير بجناح خافق (٢)، وتشعر نيتي (٣) التي تصحبها برفيق مرافق(٤)، فيؤدي (٥) عَنْ عَبْدك ويبلغ، ويُعفر الخدّ في تربك (٦) ويُمرّغ، ويَطيب بريا معاهدك الطاهرة وبيتك، ويقف وقوف الخشوع والخضوع (٧) تجاه تابوتك، ويقول بلسان التملقُ -عند التّشبُّثِ بأسبابك، والتعلّق منكسرة الطّرْق، حذراً بمِرْجها من (٨) عدم الصرف- يا غياث الأمة، وغمام الرحمة، ارحم غربتي وانقطاعي، وتغمّد بطولِكَ قِصَرَ باعي، وقوِّ على هيئتك خَوْر طباعي، ... وقابل بالقبول نيابتي، وعَجِّل بالرضا إجابتي، ومعلوم من كمال تلك الشيم، وسخاء تلك الدّيم، أن لا يخيب قَصْدُ مَنْ بفنائها، ولا يَظْمأ وارِدِ أكب على ما بها. (١٠) اللهم يا من جعلته أول الأنبياء بالمعنى وآخرهم بالصورة، وأعطيته لواء الحمد، يسير آدم فمن دونه تحت ظلاله المنشورة، وملّكتَ أُمّته ما زوى له من زوايا البسيطة المعمورة، وجعلتني من أُمّتِه المجبولة على حُبِّه، المؤمّلة لقُرْبه المفطورة، وشوّقتني إلى معاهدة المبرورة ، ومشاهده المزورة، ووكلت لساني بالصلاة عليه، وقلبي بالحنين إليه، ورَغَّبتني بالتماس ما لديه، فلا تقطع عنه أسبابي ، ولا تحرمني في حبّه أجْر ثوابي (١١)، وتداركني بشفاعته يوم أخذ كتابي".

---

١ - جواب لما ورد في الصفحة السابقة لـ " لما عاقتني عن زيارتك العوائق ... استنبت رُقعتي هذه".

٢- في صبح الأعشى ٦: ٤٦٥، ونفح الطيب٦: ٣٥٩ " استنبت رُقعتي هذه لتطير إليك من شوقي بجناح خافق"

٣ - في المصدرين السابقين ، والصفحات ذاتها "وتسعد من نيتي".

٤ - في المصدرين السابقين، والصفحات ذاتها "موافق".

٥ -المصدرين السابقين، والصفحات ذاتها جاءت هذه العبارة وما بعدها بلفظ المؤنث "تؤدي، تقفر، تمرّغ .. الخ

٦ - في صبح الأعشى ٦: ٤٦٥ " ترُبتك ".

٧ - في نفح الطيب ٦: ٣٥٩ "الخضوع والخشوع".

٨ - في صبح الأعشى ٦: ٤٦٥، ونفح الطيب ٦: ٣٥٩" بَهْرَجْها" .

٩ - في صبح الأعشى ٦: ٤٦٥ " لاتُخيّب قصد".

١٠ - في المصدرين السابقين، والصفحات ذاتها "إنائها".

١١ - في الإحاطة ، ونفح الطيب، وصُبح الأعشى، لا يوجد "المؤمّلة بقربه".

١٢ - في نفح الطيب ٦: ٣٥٩، "ولا تحرمني من حُبّه ثوابي".

بعد ذلك يبين أن هذه الرسالة هي الوسيلة الوحيدة التي لديه للوصول إلى ضريح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، مُعتذراً عَنْ قصور هذه الوسيلة، مُعلّقاً الآمال في قبولها، على شيم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، من إغضاء، وتسامح مُبْدياً ما لِنَسَبِه من سلف صالح، وهم الأنصار، فالحبل موصول لم ينقطع، وبذلك يكون أدعى لقبول العُذْر، ثم يعود ثانية للشفاعة والتوسل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالغوث والإعانة في جهادهم، لما للرسول عليه السلام من مَزِيَّة عند ربّه، فهو لا يردّ له طلب : " هذه يا رسول الله وسيلة مَنْ بَعُدت داره، وشطّ مزاره، ولم يُجْعَل بيده اختياره،فإن لم تكن هذه للقبول أهلاً، فأنت للإغفاء والسمح أهل (١)، وإن كانت ألفاظها وَعِره، فجنابك للقاصدين سهل، وإذا كان الحبّ يتوارث كما أخبرت، والعروق تَدُسُ، حسبما عليه أشرت، فلي بانتسابي إلى سعد (٢) عميد أنصارك مزّية، ووسيلةً أثيرة خفيّة، فإن (٣) لم يكن لي عمل ارتضيه (٤) فلي نيّة. فلا تنسنى ومَنْ بهذه الجزيرة التي افْتُتِحَتْ بسيف كلمتك ، على أيدي خير أمتك، فإنما نحن (٥) وديعة تحت بعض أقفالك، نعوذ بوجه ربّك من إغفالك، ونَستَنشق من ريح عنايتك نفحة، ونرتقب من مُحيّا قبولك لمحة(٦)، ندافع بها عدوّا طغي وبغى، وبلغ من مضايقتنا ما ابتغى، فمواقف التمحيص قد أعيت من كتب وأرَّخ (٧)... فلا تفردنا ولا تهملنا ، ونادِ ربّك فينا : "ربنا لا تحملنا"(٨)، وطوايف أُمتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم، وربك يقول (٩) وقوله الحق : " وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ." (١٠)

وينهي توجيه الخطاب إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم، بالصلاة والسلام عليه، وعلى آله خاصاً منهم الخلفاء الراشدين، ذاكراً نعوتهم دون أسمائهم : " والصلاة والسلام عليك

---

١ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٦، ونفح الطيب ٦: ٣٦٠ "السماح".

٢ – هو سعد بن عبادة من الأنصار ، ويعود نسب بني نصر إليه كما ذكر المؤرخون .

٣ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٦ "وإن".

٤ – في صُبح الأعشى ٦: ٤٦٦، ونفح الطيب ٦: ٣٦٠ "وترتضيه".

٥ – في المصدرين السابقين ، والصفحات ذاتها "فإنما نحن بها".

٦ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٦ " من محيّا نور قبولك".

٧ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٦، ونفح الطيب ٦: ٣٦٠ "وورّخ ".

٨ – سورة البقرة ٢٨٦ .

٩ – في صبح الأعشى ٦: ٣٢٦، ونفح الطيب ٦: ٣٦٠ " يقول لك".

١٠ – سورة الأنفال ٣٣ .

يا خيرَ مَنْ طاف وسعى وأجاب داعياً إذا دعا (١)، وصلّى على جميع أحزابك وآلك ، مما يليق (٢) بجلالك، ويحقُّ لكمالك، وعلى ضجيعيك، وصديقيك وحبيبيك، ورفيقيك(٣)؛ خليفتك في ملّتك، (٤) وفاروقك المُستخلف بعده على ملّتك (٥)، وصهرك ذي النورين المخصوص ببرّك وتَجِلّتِك (٦)، وابن عمك سيفك المسلول على حلّتك، بَدْرُ سمايك ، ووالد أهلّتك، والسلام الكريم عليك، وعليهم كثيراً (٧)، ورحمة الله تعالى وبركاته".

ثم يختتم الرسالة بذكر موضع إصدارها، مع الدعاء لذلك الموضع: " وكُتب بجزيرة الأندلس، غرناطة، صانها الله (٨) ووقاها، ودفع عنها ببركتك كيد عداها".(٩)

والرسالة الثانية التي بعثها الغني بالله محمد الخامس إلى الضريح الشريف عام٧٧١هـ (١٠)، فقد ابتدأها كسابقتها بقصيدة طويلة مطلعها :

دعاك بأقصى المغربين غريب   وأنت على بُعد المزار قريب .

يتوجه بالخطاب إلى الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلَّم- بمثل ما عمل في الرّسالة السابقة.

بعد ذلك يدخل إلى موضوع الرّسالة، وهو تخصيص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بإعلامه بجُمْلة الفتوحات التي أنعم الله بها على المسلمين ، فهو أولى مَنْ يُعلم بمثل هذه الأمور وأحقّ : " ... وإذا كانت الموالي التي طرقت (١١) الأعناق ومِنَنها، وقررت العوائد

---

١ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٦، ونفح الطيب ٦: ٣٦٠ " وصلى الله".

٢ – في المصدرين السابقين، والصفحات ذاتها "صلاة تليق بجلالك".

٣ – في المصدرين السابقين، والصفحات ذاتها " تحق".

٤ – في المصدرين السابقين، والصفحات ذاتها "أمتِك" .

٥ – في المصدرين السابقين، والصفحات ذاتها"جلتك".

٦ – في المصدرين السابقين، والصفحات ذاتها " نِحلتِك".

٧ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٧، ونفح الطيب ٦: ٣٦٠ "كثيراً ، أثيراً".

٨ – في صبح الأعشى ٦: ٤٦٧، " من حضرة جزيرة الأندلس" ، وفي نفح الطيب ٦: ٣٦٠ "وكُتِب بحضرة جزيرة الأندلس".

٩ – في نفح الطيب ٦: ٣٦٠ "والله تعالى".

١٠ – ذكر في التقديم لهذه الرسالة أن تاريخها عام ٧٦١هـ، والصحيح ما هو مُثبت بالمتن ، وذلك أن الرسالة تحتوي جملة من الفتوحات كان أخرها عام ٧٧٠هـ، افتتاح الجزيرة الخضراء والاقتباس من ريحانة الكتّابة .

١١ – من نفح الطيب ٦: ٣٦٥، "طوقت".

الحسنة(١)، سيرها وسُنَنَها، تبادر إليها نوابها الصرُما، (٢) وخُدّامها النُصحا، بالبشاير والمسرات، التي تشاع في العشاير ، وتجلو لديها نتايج أياديها (٣)، وغايات مباديها، ... فبابك يا رسول الله، أولى بِذلك وأحقّ ، ولك الحقُّ الحقّ ، والحرُّ مِنّا عَبدُك المُستَرق".

بعد ذلك يشرع بسرد الفتوحات التي تمت للمسلمين، مفصّلاً كلّ موقعة من هذه المواقع، وكيف استظهر بها المسلمون على عَبَدة الصليب، منوّهاً إلى الثأر منهم في بعض وقائعهم على المسلمين في مِصر : " ... فكان مما ساعد عليه القَدَر ... أننا عاجلنا مدينة بُرغة، وقد جدعت (٤) الأختين مالقة ورُندة ... فيسر الله اقتحامها ... واستولى الإسلام منها على قرار جَنّات، وأُمّ بنات،وقاعدة حصون، وشجرة غصون،طُهرت مساجدها المُغتَصَبة المكرمة (٥) ... ثم نازل المسلمون بعدها شجا الإسلام الذي أعيا النطاسي علاجه ... حصن اشر حماه الله،(٦)... ودُخل البلد، فألحم السيف، واستُلب البحث والزيف ... ثم كان الغزو إلى مدينة أطريرة ... وسلطت النار على أربابها، وأذن الله في تبار تلك الأمة وتبابها، ونزلوا (٧) على حُكم السيف آلافاً ، بعد أن أُتلِفوا بالسلاح إتلافاً ... وامتلأت الأيدي من المواهب والغنايم، بما لا يصوّره حُلم النايم –... وكانت (٨) الحركة إلى قاعدة جيّان قَيمَعَة (٩) الظل الأبرد ... ومن بعدها خَرُب الوجار، وعُقرت الأشجار، وعُقِر المنار (١٠)، وسُلّطت على نبات التراب الماء والنار (١١)، وارتحل عنها المسلمون وقد عمّتها المصايب ... وسويت الهضاب بالأغوار .... وتخلّفت قاعتها عِبْرةً للمُعْتبرين، وعِظة للناظرين، وآية للمستبصرين ونادى لسان الحمية يالثارات الإسكندرية (١٢) ... ثم كانت الحركة إلى أختها الكُبْرى ... أُبَدة ... فَدُخلِت لأول وهلة واستوعب جَمْعُها (١٣) والمِنّة لله في نَهْلة ... ثم كان الغزو إلى أم البلاد، ومثوى الطّارف والتّلاد، قرطبة ... فخيّم الإسلام بعنوتها (١٤) المُستَباحة، وأجاز نهرها المُعْيي على السِباحة،

---

١ – في نفح الطيب ٦: ٣٦٥، "الحِسان".

٢ – في نفح الطيب ٦: ٣٦٦ "الصُرحاء".

٣ – في المصدر السابق، والصفحة ذاتها "أيديها".

٤ – في نفح الطيب ٦: ٣٦٧ "جرعت" .

٥ – في المصدر السابق ٦: ٣٦٨ "المُكرمة ".

٦ – في المصدر السابق "والله تعالى".

٧ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٠ "تنزلوا".

٨ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٠ "فكانت".

٩ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٠ "قيعة".

١٠ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٠ و ٦: ٣٧١ "عُفِر".

١١ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٢ "والماء والنار".

١٢ – إشارة إلى موقعة الإسكندرية التي دخل بها الصليبيون وخرّبوها وخرجوا منها عام ٧٦٨هـ فهو يشير إلى ذلك ما حدث لجيان ، هو ما حدث للإسكندرية .

١٣ – في نفح الطيب ٦: ٣٧٢ "جَمُّها".

١٤ – في المصدر السابق "بعثوتها ".

وعمّ دوْحها الأشف بواراً ... فلولا استهلال الغوادي، وأن أتى الوادي، لأفضت إلى فتوح (١) الفتوح تلك المبادي ... فاقتضى الرأي أن يُراض صَعبها ، حتى يعود ذلولاً، وتصغى معاهدها الآهلة، فتُترك طلولاً ، ... فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار، ومفارق الهضاب بالهشيم قد شابت، والغلاّت المستغلات قد دعا أهل الفضل (٢) فما ارتابت ... وأغرينا بأقطارها الشاسعة، وجهاتها الواسعة جنود الجوع، وتوعدت بالرجوع، فسُلبت أهلها لتوقع الهجوم، منزور الهجوع، فأعلامها خاشعة خاضعة، وولدانها لثدي البؤس راضعة، والله (٤) يوفد بخبر فتحها القريب ركاب البُشرى، وينشر رحمته قبلنا نشراً. (٥) واستولى أهل الثغور بهذا الحد (٦) على معاقل، كانت مستغفلة ففتحوها ... ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفض - إلاّ عن الأعراف - (٧) مُتراكم الغبار، ... حتى عاودت النفوس شوقها، واشتبعت ذوقها فقصدنا الجزيرة الخضراء باب هذا الوطن الذي منه طُرِق وادعُه، ومَطلع الحق الذي صَدَع الباطلَ صادعه ... وقد كان الكفر قد قَدَر قدر هذه الفُرْضَة التي طرق منها حماه ... وقد صابرت الضيق ما يناهز ثلاثين شهراً ... فلما شككنا بشبا اللـه نحرها (٨)، وأغْصَصنا بجيوش الماء وجيوش الأرض تُكاثِر نجوم (٩) السما برّها وبَحْرَها ... وصدقها المسلمون القتال بحسب محلها من نفوسهم، وافتراق اغتصابهم ببوسهم وأفول شموسهم، فرشقوها من النّبال بظلال(١٠) تحجب الشمسَ، فلا يشرق سناها، ... وخفقت بنصر الله (١١) عذابات الأعلام، وأهدت الملائكة مدّدَ السلام، فخذل الله (١٢) كُفّارها، [وأكهم] (١٣) شفارها، وقلّم بيد قُدْرَتِه أظفارَها، فالتمس الأمان للخروج (١٤)

---

١ - في نفح الطيب ٦: ٣٧٣ "فتح الفتوح". ٢ - في المصدر السابق٦: ٣٧٣ ، "قد دعا بها الفَصْل".

٣ - في المصدر السابق ٦: ٣٧٤ "وأغريت". ٤ - في المصدر السابق والصفحة ذاتها "الله سبحانه".

٥ - بعد ذلك ورد في نفح الطيب ٦: ٣٧٣-٣٧٤ وفي الإحاطة ٤: ٥٤٠-٥٥٥، مجموعة فتوحات لبعض الحصون، لم تذكر في الريحانة، وبعدها يأتي الحديث عن استعادة الجزيرة الخضراء متصلة بما قبلها، إلاّ أن فصل الجزيرة الخضراء ورد في الريحانة جـ١ : ٢٠٣-٢٠٥ ، وذكر أن ذلك زيد في آخر الرسالة النبوية، وأغفل ذلك عن موضعه إلى أن ألحق بهذا الموضوع، الريحانة ١: ٢٠٣.

٦ - في نفح الطيب ٦: ٦: ٣٧٥ "إلى هذا الحد". ٧ - في المصدر السابق والصفحة ذاتها "عن الأعراف".

٨ - في المصدر السابق والصفحة ذاتها "ولما شكنا بشبا الله تعالى نَحرها".

٩ - في المصدر السابق والصفحة ذاتها "تجم". ١٠ - في المصدر السابق ٦: ٣٧٦ "بظلاله".

١١ + ١٢ - في المصدر السابق والصفحة ذاتها "الله تعالى".

١٣ - الكلمة بياض في ريحانة الكتّاب وقد زيدت عن الإحاطة٤: ٥٥٧، ونفح الطيب ٦: ٣٧٦ ليستقيم المعنى .

١٤ - في نفح الطيب ٦: ٣٧٦ "فالتمسوا".

ونزلوا عن (١) مراقي العروج، إلى الأباطح والمُروج ، عَنْ سمائها (٢) ذات البروج ، فكان بروزهم إلى العراء من الأرض، تذكرة بيوم العَرْض ؛ ... وبودرت المدينة وكفارها (٣) بالتطهير، ونطقت المآذن العالية بالأذان الشهير، والذكر الجهير، وطُردت كُفّار التماثيل عن المسجد الكبير(٤)، (٥) وأُنْزِلت عن الصروح أجراسها (٦)، ... فعادت (٧) المدينة لأحسن أحوالها، وسكنت بعد أهوالها ... ولهذا العهد يا رسول الله صلى الله عليك وبلّغ وسيلتي إليك، بلغ عِزُّ هذا القطر (٨) المُرتدي بجاهك، الذي لا يذل مَنْ ادَّرعه، ولا يضل مَنْ اهتدى بالسبيل الذي شرعه، إلى أن لاطفنا ملك الروم باربعة من البلاد، كان الكفر قد اغتصبها ... فانجاب عنها بنورك الحلَك، ودار بإدالتها إلى دعوتك الفلك، وعاد إلى مكاتبها القرآن ، الذي نزل به على قلبك الملَك". ثم يَنْسِّب هذه الانتصارات إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلولاه لما كانت : " وهل هو إلاّ ثمرات سعدك، ونتائج رعيك، وبركة حبك ورضاك، الكفيل برضا ربك، وغمام رعدك، وإنجاز وعدك، وشعاع من نور سعدك ... ".

بعد ذلك يذكر استنابة هذه الرسالة عنه، لتقوم مقامه في إبلاغ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بهذه الفتوح التي يسّرها الله تعالى، ومدى شوقه لزيارة الضريح الشريف، متضرّعة لديه بالعون لمُرسلها، والشفاعة له فيما سلَف منه من ذنوب اقترفها. " واستنبت هذه الرسالة، مانحـــــة بحر الندى الممنوع (٩)، ومفاتحته بإبداء (١٠) الهدف بفتح الفتوح، ... لتمد إلى قلبك (١١) يد استمناح، ويطير إليك من الشوق الحثيث بجناح، ثم تقف موقف الانكسار ... وتقول: ارحم بُعْدَ داري، وضَعْفَ اقتداري، وانتزاح أوطاني، وعِلْقَ(١٢) أعطاني، وقِلّة زادي، وفراغ مزادي، وتقبّل وسيلة اعترافي، وتغمد صفوة (١٣) اقترافي وعَجّل بالرّضا

---

١ – في نفح الطيب ٦: ٣٧٦ "على" . ٢ – في المصدر السابق والصفحة ذاتها "من".

٣ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٧ "وبودرت المدينة بالتطهير".

٤ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٧ " وطرحت كفارها التماثيل عن المسجد الكبير".

٥ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٧ الإحاطة ٤: ٥٥٧ " يوجد بعد هذه العبارة "وأزرى بالسنة النواقيس لسان التهليل والتكبير".

٦ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٧ "أجرامها". ٧ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٧ " وعادت".

٨ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٧ –١٧٨ " بلغ من هذا القطر".

٩ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٨ " الممنوح". ١٠ – في المصدر السابق٦: ٣٧٨ "ومفاتحه باب الهدى".

١١ – في نفح الطيب ٦: ٣٧٨ " لتمد إلى قبولك". ١٢ – في المصدر السابق والصفحة ذاتها "وخلوّ أعطاني".

١٣ – في المصدر السابق والصفحة ذاتها "هفوة".

انصراف تَحَمُّلي(١) لا انصرافي،فكم جبت من بحر زاخر،وقفر بالركاب ساخر، وحاشى لله (٢) أن يخيب قاصدك، أو يتخطاي مُعاضدك(٣)، أو تطردني موائدك، أو تضيق عني عوايدك، ثم تمُدّ اليدَ مُقتبضة من رحمتك (٤)، مُستدعية دعاءَ مَنْ حضر من أُمتك".

ثم يذكر ما أرفقه مع هذه الرسالة، وهي مجموعة من النواقيس التي غنمها، وهي غَيْضٌ من فَيْض، مما غَنِم المسلمون من غنائم كثيرة، والتي كانت ثمرةً من ثمرات التعلق بالرسول الكريم. وقد اختار هذه النواقيس دون غيرها لما لها من مدلول ديني له أثرٌ في النفوس، تستدر دعاء الحجيج ، ولعلّها أنسب ما يُقدم لهذا المقام الشريف : " وأصحبتها –يا رسول الله – عرضاً من النواقيس التي كانت بهذه البلاد المفتتحة، تعين (٥) الإقامة والأذان، وتسمع الأسماع الضالة والآذان، مما قبل الحركة وسالم المعركة، ومكن من نقله الأيدي المشتركة ... وما سواه فكانت جبالاً عجز عن نقلها الهندام، فنسخ وجودها الإعدام، وهي يا رسول الله جني من جنانك، ورطبٌ من أفنانك، وأثر ظهر عليها (٦) من مِسْحة حنانك". وفي النهاية يجعل هذه الفتوح، والمعارك، وما هو عليه المسلمين هناك، بعد إيراده ذلك على صورة ما جاء به من ركوب الأهوال، ومكابدة الأعداء، سبباً قوياً لتقبل العُذْر عند رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، فهي مقدمة أراد بها شرح حاله، مما منعه من زيارة الضريح الشريف بشخصه "هذه هي الْحَلّ (٧) والانتحال، والعايق أن تُشدُّ (٨) الرِّحَال، ويعجل (٩) الترحال، إلى أن نلقاك في عرصات القيامة شفيعاً، ونحلُّ بجاهِك إن شاء اللــه (١٠) محلاً رفيعاً... ونبتهل إلى الله الذي، أطلعك(١١) في سماء الهداية سراجاً ... ألا يقطع (١٢) عن هذه الأمة الغريبة أسبابك، ولا يسد في وجوهها أبوابك، ويوفقها لاتباع هداك، ويثبت اقدامها على جهاد عداك... " ثم يختتم الرسالة بالصلاة على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وكتابة تاريخ الرسالة .

---

١ – في نفح الطيب ٦: ٣٧٨ "متحملي". ٢ – في المصدر السابق والصفحة ذاتها "ولله تعالى".

٣ – في المصدر السابق والصفحة ذاتها "أو تتخطاني".

٤ – في المصدر السابق والصفحة ذاتها " ثم تمد مُقتضية مزيد رحمتك".

٥ – في المصدر السابق والصفحة ذاتها "تعيق". ٦ – في المصدر السابق ٦: ٣٧٩ "علينا".

٧ – في نفح الطيب ٦: ٣٧٩ "الحال". ٨ – في المصدر السابق والصفحة ذاتها " أن تُشدَّ إليك".

٩ – في المصدر السابق والصفحة ذاتها "ويعمل".

١٠ – في المصدر السابق والصفحة ذاتها "الله تعالى".

١١– في المصدر السابق والصفحة ذاتها "ونبتهل إلى الله تعالى الذي أطلعك".

١٢ – في المصدر السابق والصفحة ذاتها "أن لا".

لقد كانت الرسائل النبوية ذات صبغةٍ دينية. يتعلق السلاطين بها في الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ويتضرعون إلى الله عز وجل لنصرة دينه، وكبح جماح عدوهم ، الذي لا يألوا جهداً في القضاء على الدين والبلاد.

وكان توجيه الخطاب للرسول -صلى الله عليه وسلم- بذكر صفاته ونعوته والاطناب في ذلك مقدّما ذلك على اسم المُرسل ، إجلالاً وإكراماً للرسول صلى الله عليه وسلم .

ويذكر الكاتب في الرسالة النبوية شوق السلطان إلى زيارة الضريح الشريف ،مع الاعتذار عن عدم المقدرة على الحضور،بسبب جهاد العدو،إذ أن الجهاد والحج كليهما لله عز وجل.

مخاطبة الرعية في موضوعات مختلفة:

تنوعت الموضوعات التي خاطب بها السلاطين رعيتهم، وكان ذلك في المهم من الأمور، فمنها ما كان في الوعظ والإرشاد، ومنها الاستعدادُ لمجابهة العدو والدفاع عن الوطن، و منها ما كان من بيعةٍ لسلطان، أو بشارةٍ بفتحٍ جليل، أو نصر على عدو، أو انجلاء ضائقة، أو غير ذلك من الأمور التي قد تكون لها صفة الآنية، أو ما يستجد من الأمور.

ومن ذلك رسالةُ بعث بها الغني بالله إلى الرعية (١) ، تختص بالمواعظ والحكم، تليت عليهم في المساجد.

يذكر في بداية رسالته حقوق الرعية على السلطان، وما يوليه السلطان من رعايةٍ واهتمامٍ برعيته، يقول : " ... وأنتم أولياؤنا الذين لا ندخر عنهم نصحاً ولا نُهملُ في تدبيرهم ما يثمر نجحا، وبسبب هذا الإعتقاد لا نُغفل عن نصيحةٍ ترشدكم إذا غفلتم، وموعظةٍ نقصها عليكم إذا اجتمعتم في بيوت الله واحتفلتم ، ودرعتكم ، تارة بسلم نعقدها ، ومحاولة نسردها ، وتارة بسيوف في سبيل الله نجردها ... ونرضى بالسهر لتنام أجفانكم ، وبالكد لتترع صبيتكم ، وولدانكم، وباقتحام المخاوف ليتحصل أمانكم ... هذا شغل وقتنا منذ عرفناه ، ومرمى همنا مهما استرفعناه، وقد استرعانا الله جماعتكم ، وملأنا طاعتكم ، وحرم علينا اضاعتكم ."

بعد ذلك يقدم لـهم المواعظ، والنصائح ، في شتى مناحي حياتهم، مما يتعلق بالدين والأخلاق، والمعاملات، والاستعداد للجهاد : " الصلاة ، الصلاة فلا تهملوها، ووظائفها الكبار فكملوها ... والزكاة أختها المنسوبة ، ولدتها المكتوبة ، المحسوبة ، ومن منعها فقد بخل على مولاه باليسير مما أولاه ... وارعوا حق الجار ، وخذوا على أيدي الدُّعَرة والفجّار ... وعلموا

١- الرسالة في ريحانة الكتّاب ٢ : ٤٢ - ٤٣

القرآن صبيانكم ، فهو أس هذا المبنى ... وجاهدوا أهواءكم ... وثابروا على حَلَقِ العلم والتعلم ... وانفوا من الحوادث الشنيعة والبدع التي تفت في عضد الشريعة ... وأهم ما صرفتم اليه الوجوه، واستدفعتم به المكروه، العمل على ما في الآية المتلوة، والحكمة المجلوة، من ارتباط الخيل، واعداد العدة ... ومن لم يحسن الرمي فليتدرب، وباتخاذ السلاح إلى الله فليتقرب، فقبل الرمي تراش السهام ... (وأوفو الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم ،ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين)".(١)

ويعاود ثانية إلى ذكر مآثر بني نصر، ومبلغ عنايتهم لرعيتهم وتهيئة كل ما يحتاجون إليه خاصة الفقراء منهم والضعفاء . ومن ذلك بناء المارستان الذي بناه هو ووالده أبو الحجاج، شارحا لهم هدف بنائه ، وضرورة الانفاق عليه، لما له من أهمية في درء المفاسد ، ومعالجة المرضى والمجانين، وإيواء الضعفاء والمغتربين، ويذكر لهم أنه حبس له من الأوقاف للمساهمة في ذلك: "وقاعدتكم اليوم قاعدة الدين، والعاقبة للمتقين، وقد اختُرِعت بها أيامنا وأيام المقدس والدنا الآثار الكبار... وهي ميارستان يضم منكم المرضى المطرحين، والضعفاء المغتربين منهم والمنتزحين ... والمجانين تكثر منهم الوقائع، ويعيثون بالإناث منهم العهر الذايع، عار تحظره الشرئع ... فاشرعوا النظر في هذا المهم خير شروع، فلولا اهتمامنا بمرتزقة ديوانكم، واعدادنا مال الجهاد للمجاهدين إخوانكم، لسبقنا الى هذه الزلفة، وقمنا في هذا العمل الصالح بتحمل الكلفة ... فنحن إن شاء الله نحبس له الأوقاف التي تجرى لمرفقه، وتتصل عليه بها الصدقة، تأصيلا لفخركم، واطابة في البلاد لذكركم، فليشاور أحدكم همته ودينه ، ويستخدم يساره في طاعة الله ويمينه".

وبعد الانتهاء من عرض نصائحه ومواعظه، يذكرهم بوجوب العمل بها، لأنهم أحق الناس بقبول المواعظ، مبديا في ذلك قوة السلطان ، بأن نصائحه يجب أن تنفذ : " ومن وراء هذه النصائح عزم يتهيأ الى غايتها، ويجبر الكافة على اتباع رأيها ورايتها، فاعملوا الأفكار فيما تضمنته من الفصول، وتلقوا داعي الله بالقبول" .

ومما خاطب به السلاطين رعيتهم رسالة بشارة للرعية بمناسبة فتح أطريره . (٢) يذكر في الرسالة انتقام الله سبحانه وتعالى من العدو على يد السلطان لفتحه هذه المدينة واستيلائه على كثير من السبي بعد أن أعمل القتل في العدو:"أبشركم بما كتبه سلطانكم السعيد عليكم... وإن الله فتح له الفتح المبين، وأظفره بأطريرة، البلد الذي فجع المسلمين بأسراهم فجيعة تثير الحمية،

١- سورة الشعراء الآيات ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣

٢- الرسالة في ريحانة الكتاب ٢ : ٦٣

وتحرك النفوس الأبية، وانتقم الله منهم على يده ، وبلغه من استيصاله غاية مقصده ... وتحصّل من سبيهم بعدما رويت السيوف بدمائهم ، ألوف عديدة ، لم يسمع بمثلها في المدد المديدة".

ثم يتوجه بالبشارة لهم وتهنئتهم :"... فتح هني، وصنع سني، ولطف خفي، ووعد وفي، فاستبشروا بفضل الله ونعمته، وتقوا على الافتقار والانقطاع برحمته، وقابلوا نعمه بالشكر يزدكم، واستنصروا بالدفاع عن دينكم ينصركم ويؤيدكم ."

ويختتم الرسالة بدعوة الناس الى التمسك بهذه الدولة التي بها خلاصهم : " ... واغتبطوا بهذه الدولة المباركة التي لم تعدموا من الله معها عيشاً خصيباً، ولا رأيا مصيباً، ولا نصراً عزيزاً، وفتحا قريبا ،وتضرعوا في بقائها ونصر لوائها، لمن لم يزل سميعا للدعاء مجيبا . "

أما البيعات فهي المعاهدة على الولاء والطاعة للسلطان يكتبها صاحب ديوان الانشاء، موجهة من الرعية الى السلطان اقرارا منهم بالطاعة له في كل شيء، وقبولاً منهم بإمرته عليهم.

وقد أقر سلاطين بني نصر وراثية الحكم منذ بداية امرهم يتوارث الحكم الولد عن الوالد ويبقى في عقبه، وقد بقيت هذه السنة متبعة عندهم، لم يشذ عنها أحد حتى انتهاء أمرهم.

وتعقد البيعة للسلطان عند استلامه الحكم، لتولي أمور المملكة، وهذه ايضا كانت سنة متبعة. وأول بيعة عقدت كانت من أهل غرناطة لأبي عبد الله محمد الأول عام ٦٣٥ هـ ، وبذلك تكون أول وثيقة رسمية تُقَر ببداية حكم بني نصر على الأندلس، إلا أنه لم يصلنا من هذه البيعات سوى واحدة تخص السلطان الغني بالله محمد الخامس :(١)

يذكر في البيعة كيف وصل المُلْك الى هذا السلطان متدرجا منذ فتح الأندلس ، حتى وفاة والده مع ابداء عدلهم وبذلهم وجهادهم، الذي أهّلهم لهذه المهمة :" وإن هذا القطر ... كان من فتحه الأول ما قد علم ... وأن موسى بن نصير وفتاه، حلّ من فرضة مجازه ما حلّ موسى وفتاه، وحلّ الاسلام منه دار قرار ... وامتدته الأيام حتى تأنس العدو بروعته ... فلولا أن الله دعم الدين منهم بالعمد الوثيقة، حماة الحقيقة، وأئمة الخليقة، وسلالة مفتتحي اليمامة، ومقتحمي الحديقة، لأجهز النصل، واجتُثَّ من الدين الأصل. لكنهم انتدبوا إلى امساك الدين بها انتدابا، ووصلوا بالاسلام اسبابا، وتناولها منهم صقر قبيل الخزرج، ذو الحسام المدرج، والثناء المؤرج، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر...فأقشعت الظلمة وتماسكت الامة، وكف العدو وأقصر... وتورثوا ملكها ولدا عن أب مستندين الى عدل وبذل وبسالة وجلالة وحَسَب...إلى ان قام بالأمر واسط سلكهم ... الشهيد ابو الوليد بن المولى الهمام... أبي سعيد بن نصر، فأحيا رحمه الله معالم الكتاب والسنة ... وأورث الملك الجهادي من ولده خير ملك قبلت منه كف ... مولانا

١- البيعة في ريحانة الكتاب ١ : ١١٦ - ١٢٦

الخليفة الامام الحجاج ... ولما اختار الله له ما عنده ، وبلغ الاجل الذي قدره سبحانه لحياته وحده وقبضه اليه مطمئنا، مستغفرا من ذنبه فوقفت ازاء ارباب الشورى الذي تصح الامامة باتفاقها ، وتنعقد بعقد ميثاقها، من اعلام العلم ... وخلص الثقات، ووجوه الطبقات، على مبايعة وارث ملكه بحقه، الحائز في ميدان الكمال واحراز ما للإمامة من الشروط والخلال ... وجمع الله فيه شروط الملك على الاختيار، مولانا ، وعمدة ديننا ودنيانا ... أبو عبد الله وصل الله أسباب سعده ... ورأوا أن قد ظفرت بعروة الحق ايديهم ... فبادروا وانثالوا ... وهبوا الى بيعته، تطيرهم اجنحة السرور ... واجتمع منهم طوايف الخاصة والجمهور ما بين الشريف والمشروف، والرؤساء أولوا المنصب المعروف ، وحملة العلم ، وحملة السيوف ، وساير الكافة ، أولوا البدار بمثلها والخفوف ، فعقدوا له البيعة الوثيقة الاساس ... الحائزة شروط الكمال ، الماحية بنور البيان ظلم الإشكال، الضمينة حسن العقبى، ونجح المآل ."

بعد ذلك تذكر شروط البيعة ، والتزام الجمهور بها، مع توكيد عقد بيعتهم بأن أشهدوا الله عليها، و أعطوا أيمانهم على الالتزام بها، فإنهم بايعوا سلطانهم "على ما بويع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن له من الصحابة والآل، وعلى السمع والطاعة وملازمة السنة والجماعة، فأيديهم في السلم والحرب ردٌ ليده، وطاعتهم اليه، خالصة في يومه وغده، وأهواؤهم متفقة حالَيّ الشدة والرخاء، وعهودهم محفوظة على تداول السراء والضراء. أشهدوا عليها الله وكفى بالله شهيدا، واعطوا صفقات أيمانهم تثبيتا للوفاء بها وتأكيدا . "

وبعد اختتام البيعة تكتب اسماء المبايعين بخطوط ايديهم ، ويؤرخ للبيعة أيضا :" ... وكتب الملأ المذكورون أسماءهم بخطوط ايديهم ، شاهدة عليهم بما التزموه دنيا ودينا ... في الثاني والعشرين من شوال من عام خمسة وخمسون وسبعماية ."

لقد اتخذ سلاطين هذا النوع من الرسائل وسيلة اعلامية، للتمسك بالدولة والقائمين عليها من خلال ابراز مآثرها، واهتمامها بالرعية، وقوتها، وتمسكها بالدين، وذلك بطرق متباينة، ففي البشائر مثلا يذكرون انتصاراتهم وقوتهم على اعدائهم. وفي المواعظ والارشادات نجدهم يقومون بالدعوة الى التمسك بالدين، والاستعداد للجهاد، مع التنبيه على التزام الطاعة فيما يتلى عليهم .في حين أنهم في البيعات يركزون على ما خصهم الله به من شرف القيام بأمر هذه الأمة، لدفع كيد عداها ولنصرة دين الله عز وجل.

وفي كل ما يكتبون يركزون على الجانب الديني، فهو عماد حكمهم وسبب بقائهم فيه، ممزوجا مع الجانب السياسي ونظريتهم في الحكم.

الفصل الثالث

مشاهير كتاب الانشاء في عصر بني الأحمر، والسمات المميزة لاسلوب كل منهم

١ – أبو الحسن علي بن الجيّاب

٢ – لسان الدين بن الخطيب

٣ – أبو عبد الله بن زَمْرك

برز في عهد بني الأحمر جملةٌ من الأعلام المجيدين، الذين برعوا في كتابة الرسالة الديوانية، واستطاعوا أن يسيروا فيها خطوات واسعة، حتى استقامت على عودها من حيث الأساليب والشكل والمضامين .

وفي هذا الفصل قصرت الحديث على ثلاثة من أعلام هذا العصر ، يمثلون -الى حد ما- أعلام الكتابة الديوانية في عصر بني الأحمر ، وما وصل اليه فن الكتابة الديوانية آنذاك . وهم أبو الحسن بن الجيّاب ، ولسان الدين بن الخطيب ، وأبو عبدالله بن زمْرك .

فقد اخترت أبا الحسن ابن الجيّاب ، وذلك أنه ابتعد قليلا عن تأثير كتابة الموحدين الديوانية ، وربما كان بداية الابداع الفني في الأدب الأندلسي في عصر بني الأحمر ، وعصر الاستقرار السياسي لدولتهم .

أما لسان الدين بن الخطيب فلأنه يمثل مدرسة مستقلة في كتابة الرسالة الديوانية ، لا يجوز تجاوزه عند الحديث عن هذه الحقبة.

وأما ابن زمْرك فلأنه يمثل المرحلة التي اعقبت لسان الدين بن الخطيب ، وابتعد قليلا عن بداية أفول نجم الدولة النصرية .

أبو الحسن بن الجيّاب

هو علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن الأنصاري، يُكنى أبا الحسن، ويُعرف بابن الجيّاب. (١) ولد سنة ٦٧٣هـ، في غرناطة. (٢)

لم تتحدث المصادر التي ترجمت له عن أسرته، أو عَقِبه، وكل ما ورد فيها ذكر اثنين من أولاده الأول واسمه أبو القاسم، وقد رثاه والده بقصيدة منها : (٣)

أمِن بعد ما أودعتُ روحيَ في الثَّرى	ووسّدت مِنّي فَلْذة القلب مَرْمَسَا
وبعد فـــراق ابني أبي القاسم الذي	كساني ثَوْبَ الثُّكْلِ ، لا كان مَلْبسا
أؤمّل فـي الدنيا حياة وأرتضـــي	مقيــلاً - لدى أبنائها - ومُعرَّسا

أما ولده الثاني ، فلم تذكر المصادر اسمه لصغر سنه، لكنها ذكرته في زيارة والده إلى شيخه الصوفي أبي عبد الله الساحلي بمالقة، قال ابن الخطيب في ذكر ابن قُعنب الأزدي: (٤) "حدثني ملازمه، وقفتُ عليه، أبو القاسم بن الشيخ الرئيس أبي الحسن بن الجيّاب، وقد أعمل والده رحلة إلى مالقة لزيارة شيخه الذي تلمذ له ... واستصحب ولده الصغير، فسأله عن سفر أبيه ، فقال : نعم ، واحتمل أخي ، فقال أظنه منذ ولد كان غير مُغتطس، فحمله الشيخ فَغَطَّسه. "

نشأ أبو الحسن في كنف بني نَصْر، فقد اتصل بخدمتهم مُذ كان يافعاً، وكتب عن

---

١ - الإحاطة ٤: ١٢٥، درة الحجال ٣: ٢٣٤، نفح الطيب ٥: ٤٣٤.

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن، بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر ، ط ٢، ١٩٧٩، ٢: ١٨٩ .

وقد ورد اسمه في الكتيبة الكامنة ص ١٨٣ " علي بن محمد بن علي بن سليمان الأنصاري " .

وفي نثير الجُمان ١٢٥، ونثير فرائد الجُمان ٢٣٩.علي بن محمد بن سليمان بن الجيّاب الأنصاري الأغرناطي.

وعند : ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي ٧٩٩هـ، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ص ٢٠٧، علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان الأنصاري .

وفي نَيْل الإبتهاج، ٢٠٤ علي بن محمد بن سليمان بن حسن بن الجيّاب الأنصاري الغرناطي.

٢ - الإحاطة ١: ١٤٧، نفح الطيب ٥: ٤٤٥، الديباج المذهب ٢٠٨، درة الحجال ٣: ٢٣٤، ٢٣٧ .

بغية الوعاة ٢: ١٨٩ .

٣ - نفح الطيب ٥: ٤٣٩، والقصيدة في ٥: ٤٣٨-٤٤٠ .

٤ - الإحاطة ١: ١٧٣ .

سلاطينهم "خمسين سنة أو ينيف عنها " (١). خدم خلالها ستة منهم، (٢) وقال فيهم الأشعار، منها في المديح، ووصف القصور، والمصانع، وما يكتب على القبور. (٣) وقد تدرّج في حظوته عند مخدوميه، حتى نال رئاسة الكُتّاب، وبعد ذلك تقلّد الكتابة والوزارة ، حتى لُقّب بذي الوزارتين. إذْ عمل في ديوان الإنشاء في عهد السلطان محمد الفقيه ٦٧١-٧٥١هـ، تحت إمرة أبي عبد الله بن الحكيم(٤)، واستمر في خدمة السلطان محمد المخلوع ٧٠١-٧٠٨هـ، (٥) ثم عن السلطان نصر بن محمد أبي الجيوش ٧٠٨-٧١٣هـ، حيث خلف أبا عبد الله بن الحكيم في رئاسة الكتّاب، (٦) ثم عن السلطان أبي الوليد اسماعيل بن فرج ٧١٣-٧٢٥هـ، (٧) ثم عن ولده السلطان أبي عبد الله محمد بن اسماعيل ٧٢٥-٧٣٣هـ، (٨) ثم عن السلطان أبي الحجّاج يوسف الأول ٧٣٣-٧٥٥هـ، (٩) وقد قلّده الوزارة إضافة إلى رئاسة الكتّاب (١٠)، وظل كذلك حتى وفاته .

وعلى الرغم من تعاقب السلاطين على الحكم، والتناحر فيما بينهم، إلا أن أبا الحسن ظل حائزاً على ثقتهم، لم تتبدل به الأحوال، بتبدل الدّول، بسبب إخلاصه لصاحب الأمر، فقد كان يؤمَّر فيأتمر ،"جَلداً على الخدمة" (١١)، "غيوراً على الخطّة". (١٢) وقال عنه لسان الدين بن الخطيب :" استعانت به السياسة فدارت أفلاكها على قُطب شباة يراعه، وتعاقبت الدول، فلم ترَ له بديلاً، ولا وجدت لسنّة اصطباغة تبديلا". (١٣) إلاّ أن ابن الخطيب غمز من قناة شيخه،

---

١ – الإحاطة ٤: ١٢٦ .

٢ – نثير الجمان ١٢٦ .

٣ – انظر قصيدته التي كتبت على قبر السلطان أبي الوليد اسماعيل بن فرج في الإحاطة ١: ٤٠١-٤٠٢ .

٤ – الإحاطة ١: ٥٦١ .

٥ – اللمحة البدرية ٦٤، الإحاطة ١: ٥٤٩، العبر ٧: ٦٨٩ .

٦ – الإحاطة ٣: ٣٣٦، اللمحة البدرية ٥٨، العبر ٧: ٦٨٩ .

٧ – الإحاطة ١: ٣٨٩ .

٨ – المصدر نفسه ١: ٥٤٥ .

٩ – المصدر نفسه ٤: ٣٢٠ .

١٠ – نثير الجُمان ١٢٦ .

١١ – الديباج المذهب ٢٠٨ .

١٢– الإحاطة ٤: ١٢٥ .

١٣–المصدر نفسه ٤: ١٢٦، وقد وردت في الكتيبة الكامنة ١٨٣، والتاج المُحلىّ ٣٧٩ : " استعانت به السياسة فدارت افلاكها على شباة يراعه، وتعاقبت دول العَدْل فلم ترَ له عديلاً، ولا وجدت لسنة اصطباغه تبديلا".

وجعله مشاركاً – بطريقة ما– في مقتل السلطان أبي عبد الله محمد ابن اسماعيل عام ٧٣٣هـ، حيث يقول :(١) " .... تولى كِبْرها شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب، فارتكب منها وَصْمَةً، محت على غُرَر فَضله إلى كثير من خُدّامه، ومماليكه".

نشأ أبو الحسن نشأة ثقافية واسعة، ونهل من العلوم والآداب ما وسعه ذلك، حتى أصبح مبرّزا فيها، ساعده في ذلك توقُّد ذهنه (٢)، ونقاء قريحته، وإيثار السلاطين للعلماء والأدباء، ومشاركة كثير منهم في العلم والأدب. كما أن خدمته في ديوان الإنشاء، وتولّيه الوزارة، ساعده على الاتصال بعلماء وأدباء عصره، الذين كانوا يَفِدون على غرناطة، حيث الإشعاع الفكري والثقافي في الأندلس، ومحجّ العلماء والأدباء آنذاك. كذلك فإن عمله أتاح له التنقّل في بعض البلدان في مهمات رسميّة عن سلاطينه، التقى خلال تنقلاته بعلماء وأُدباء تلك البلاد، فأفاد منهم، وأفادوا منه، لتشكل رافداً من روافد ثقافته.

كما تتلمذ أبو الحسن على شيوخ عصره الكبار الذين كان لهم الأثر الكبير في تشكيله الثقافي والمعرفي ، وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب أن ابن الجيّاب كتب له شيوخه الذين تتلمذ عليهم ، فمنهم من لقيه وأجازه إجازة عامة، ومنهم من أجاز له ولم يَلْقَهُ . (٣) فممّن تتلمذ على أيديهم، أبو جعفر أحمد بن الزبير، (٤) وأبو الحجّاج الساحلي، (٥) ومالك بن

١– الإحاطة ١: ٥٤٢ .

٢– بغية الوعاة ٢: ١٨٩ .

٣– الإحاطة ٤: ١٢٨

٤– هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن الزُبير، مولده في جَيّان عام ٦٢٧هـ، كان خاتمة المحدثين ، وإليه انتهت الرياسة بالأندلس بصناعة العربية، معظّماً عند الخاصة والعامّة، ولي قضاء المناكح، والخطبة بالحضرة، له كتاب "صلة الصلّة" وهو مطبوع، وكتاب "أملاك التأويل في المتشابه اللفظ في التنزيل" و " البرهان في ترتيب سورة للقرآن". وشعره مختلف عن نمط الإجادة، توفي في ربيع الأول / ٧٠٨هـ، وكانت جنازته عظيمة، احتمل طلبة العلم نَعْشه على رؤوسهم إلى جدثه. انظر ترجمته في الإحاطة ١: ١٨٨–١٩٣، وفيات الونشريسي ١٠٠، تذكرة الحفّاظ ٤: ١٤٨٤–١٤٨٥، درة الحجال ١: ١١، الديباج المذهب ٤٢، الدرر الكامنة ١: ٨٩ .

٥– هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الساحلي، المشهور بالطويجن من أهل غرناطة ، وكان أبوه أمين العطارين فيها ، رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، وعاد فاستوطن بلاد السودان، وقد كان فقيها عالماً ، ت ٧٤٧هـ .

ترجمته في الإحاطة ١: ٣٢٩، الكتيبة الكامنة ٢٣٥، نثير الجُمان ٢٠٥، نفح الطيب ٢: ١٩٢ .

المُرحّـــل، (١) وأبو الحسن بن فضيلة المعافري(٢)، وأبو عبد الله بن رُشَيد الفهري، (٣) وممّن أجاز له، ولم يلقه، ابن الغمّاز الأندلسي، (٤) وأبو محمد بن القرطبي، (٥) وغير هؤلاء كثير، فقد ذكر المقري:(٦) " ومن مشايخه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، وخلق".

وثقافة أبي الحسن ثقافة واسعة شامل، فـاق أقـرانه بـها، وكان لهم قدوة في تحصيل المعارف ، فقد كان له مشاركة في كثير من العلوم والآداب والفقه ... إلخ ، وقد أثنى عليه كل من ترجم له ، اعترافاً بعلمه وفضله ، قال عنه لسان الدين بن الخطيب(٧) : " لا تمر مذاكرة في فن ، إلا وله فيه التبريز ، ولا تُعرض جـواهر الكلام إلاّ وكلامـه الإبـريز" وقال عنه

---

١ –هو أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن المرّحل السبتي، مولده بمالقة ٦٠٤هـ، ذو العلم والأدب والقراءات، وغيرها ، نظم قصيدة في الفرائض ومن بديع نظمه " التبيين والتبصير لكتاب التيسير" وقد نشر له الأستاذ هلال ناجي عروضاً في الدوبيت محققة " . في مجلة المورد المجلد الثالث ، العدد الرابع ص ١٧٤–١٧٥ .

توفى في ٦٩٩هـ، انظر ترجمته في درّة الحجال ٣: ١٩–٢٦ .

٢– هو أبو الحسن فضل بن محمد بن علي بن فضيلة المعافري، ولد سنة ٦٠٧هـ، كان صوفياً محققاً، أديباً بليغاً، ولي الخطابة والإمامة بالمسجد الأعظم ، وأقرأ به مدة كبيرة .توفي في ١٨ / محرم/ ٦٩٩هـ، وكانت جنازته مشهودة. انظر ترجمته في الإحاطة ٤: ٢٥٦–٢٥٧ .

٣– هو محمد بن عمر بن محمد بن عمر ... بن رُشيد الفهري الرحّالة، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن رُشيد. ولد عام ٦٥٧هـ وقيل ٦٥٩هـ، وكان جمّاعة للكتب ، ريّان الأدب ، حافظاً للأخبار والتواريخ ، ورد على الأندلس عام ٦٨٠هـ، وتقدم إماماً وخطيباً بالمسجد الأعظم، ثم انتقل إلى فاس معظماً عند الملوك والخاصة ، وله شعر يتكلّفه، ألف كتاباً سماه : مِلء العَيْبَة، فيما جُمِعَ بطول الغَيْبة، في الوجهتين الكريمتين، إلى مكة وطيبة". وتوفي بفاس ٧٢١هـ. ترجمته في : الإحاطة ٣: ١٣٥–١٤٣، أزهار الرياض ٢: ٣٤٧–٣٥٦، الديباج المذهب ٣١٠–٣١١ .

٤– هو أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد، المعروف بابن الغماز الأندلسي، ولد سنة ٦٠٩هـ، قاضي القضاة بتونس، كان موصوفاً بالعلم والفضائل والرئاسة، ولي قضاء الجماعة سبع مرات فحُمِدَت سيرته، اعتنى بلقاء رجال الحديث، وأجاز خلائق في الشرق والغرب، توفي عام ٦٩٣هـ، ترجمته ، الديباج المذهب ٧٦–٧٩، نيل الإبتهاج ٦٤، المرقبة العليا ١٢٢–١٢٣. و الغُبْريني ، أبو العباس أحمد بن أحمد ٧٠٤هـ، عنوان الدراية فيمن عُرف في المائة السابعة ببجّاية، تحقيق الأستاذ رافع مونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، ص٧٠ .

٥– هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون القرطبي ، ولد في رمضان ٦٠٣هـ، أخذ عن جده لأمه ، أبي عبد الله محمد بن قاسم المعافري، وأبي القاسم بن بقي ، وأبي عبد الله القزّاز، توفي ٧٠٢هـ، انظر ترجمته في درة الحجال ٣: ٤٤ .

٦– نفح الطيب ٥: ٤٣٤ .

٧ –التاج المحلّى ٣٧٩ وفي الكتيبة الكامنة ١٨٣ : "... لا يمر الكلام في فنٍ، إلا كان في ميدانه التبريز، ولا تعرض جواهر الافهام على ميدان الإبهام ، إلا انتسب إليه الإبريز ".

أبو الوليد بن الأحمر(١) : "... وغرّب ذكر علومه العقلية والنقليّة وشرّق ، وأشأم إفصاح يراعة وأغرق". وقال عنه ابن خلدون (٢) " شيخ العدوتين في النظم والنثر، وسائر العلوم الأدبية". وقال عنه ابن القاضي (٣): "كان أديباً نحوياً لغوياً ، شاعراً، ناظماً، ناثراً، ذاكرا للتاريخ. حافظاً للكثير من شعر المولّدين"، كما كان "عارفاً بأيام العرب ووقائعها" (٤)، وقالوا عنه، إنه كان مشاركاً في كثير من العلوم، إماماً في الفرائض والحساب، مشاركاً في علم التصوُّف ، عارفاً بالقراءات والحديث، حاملاً راية المنظوم والمنثور، قائماً على العربية واللغة، متبحراً في التاريخ والآداب، إماماً في البلاغة والأدب. (٥) وقال عنه تلميذه ابن الخطيب أيضاً :(٦) ".... وكلما ظهرت علينا -معشر بنيه- من شارةٍ تُجلى بها العين، أو إشارةٍ كما سُبِك اللُجين، فهي إليه منسوبة وفي حسناته محسوبة".

وكما أثنى على علمه مترجموه، فقد أثنوا - أيضاً- على ما يتمتع به من صفات شخصية، وما هو عليه من خُلقٍ ودين وورع، وحبٍّ للخير، والتّقشُف، فقد كان يتمتع بنفس " هذّبت الآمال شمائلها، وجادت الرياضة خمائلها، ومراقبة لربّه... دين لا يُعجم عوده".(٧) كما كان "صاحب مجاهدة، وملازمةٍ وعبادة، على طريقة مُثْلى من الانقباض والنزاهة ، وإيثار التّقشُف" (٨)، "مُحِبّاً لأهل الخير".(٩) ويكره الغيبة والنميمة فكان يُشْغِل الكُتّاب بالألغاز والطُرَف، يقول لسان الدين بن الخطيب في ذلك :(١٠) : "ويرى أنّ طريقها في اللغو أسلم الطرقات. فيشغلنا بجلوائها، عن أغراض الألسنة وأهوائها" .

وكان أبو الحسن يُشارك في المناظرات الأدبية التي كان يعقدها الكَتَبة في ديوان

---

١ - نثير فرائد الجُمان ٢٤٠ .

٢- العبر ٧: ٦٨٩ .

٣- درة الحجال ٣: ٢٣٥ .

٤- نثير الجُمان ١٢٦ .

٥- الإحاطة ٤: ١٢٥، الديباج المذهب ٢٠٧، درة الحجال ٣: ٢٣٤ .

٦- التاج المُحلى ٣٧٩، الكتيبة الكامنة ١٨٤ .

٧- التاج المُحلى ٣٧٩، الكتيبة الكامنة ١٨٣ .

٨- الإحاطة ٤: ١٢٥، الديباج المذهب ٢٠٨، بُغية الوعاة ٢: ١٨٩ .

٩- الديباج المذهب ٢٠٨ .

١٠- الكتيبة الكامنة ١٨٩ .

الإنشاء، وكان يُظهر في ذلك سرعة بديهة عزّ نظيرها. قال أبو القاسم بن جُزّي : (١)، (٢) "خرج علينا من بيت الكتابة من حضرة غرناطة ، شيخنا الرئيس أبو الحسن بن الجياب، ونحن معشر الكتّاب مجتمعون، فأنشدنا بديهةً ، مخاطباً للجميع :

أصاحبنَـــا يا صاحبَ الأدباء ويا نُخبَةَ الكُتّابِ والشُعـراء

لأعطيتهم فَصلَ الخطاب ووَصلِه فيعجز عَنكُمْ واصل بن عَطاء"

إضافة إلى ما ذكره لسان الدين بن الخطيب بإشغاله الكتاب بالألغاز والطُرف. (٣)

ولمعارفه الكثيرة، وبروزه في كثير من العلوم، وتمتعه بتوقّد الذهن، وسماحة النفس، وغزارة الحفظ (٤). وما هو عليه من دين وورع، استحق لقب "شيخ طلبة الأندلس" كما نعته بعض من ترجم له . (٥)

وقد انتفع به كثيرٌ من أعلام القرن الثامن الهجري، وتتلمذوا على يديه، ورووا عنه ، أمثال لسان الدين بن الخطيب حيث قال(٦) : " هو شيخي الذي تأدبت بين يديه" ، وفي موضع آخر (٧) " وتأدبت بالشيخ الرئيس صاحب القلم الأعلى الصالح الفاضل أبي الحسن بن الجيّاب"، وقال صاحب الديباج المذهب (٨) : " وهو شيخ ابن الخطيب مؤلف كتاب الإحاطة، تأدب به وتخرج بين يديه" ، وفي درة الحجال (٩): " أخذ عنه ابن الخطيب السلماني ، وتأدب بين يديه". كما أخذ عنه أبناء لسان الدين بن الخطيب الثلاثة، (١٠) وابن خاتمة الأنصاري، (١١) وعبد الحق بن عطية المحاربي، (١٢) وروي عنه أبو القاسم بن رضوان النجاري، (١٣) وغيرهم.

١- هو محمد بن محمد بن أحمد بن جُزيّ الكلبي، مولده ٦٩٣هـ ، كان قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون من عربية وأصول ، تقدم خطيباً بالجامع الأعظم، وإماماً له، دوّن وصنف، وكان كاتباً في ديوان الإنشاء، استشهد بالوقيعه الكبرى بطريف عام ٧٤١هـ ، ترجمته في الكتيبة الكامنة ٤٦-٤٨، الديباج المذهب ٢٩٥-٢٩٦، نيل الإبتهاج ٢٣٥ ، نفح الطيب ٥: ٥١٤-٥١٧، أزهار الرياض ٣: ١٨٤-١٨٧ .

٢- أزهار الرياض ١: ١٩٢، درّة الحجال ٣: ٢٣٧ .

٣- انظر بعضاً من هذه الأحاجي في الكتيبة الكامنة ١٨٩-١٩٣، ونفح الطيب ٥: ٤٤٣-٤٤٥ .

٤ - الإحاطة ٤: ١٢٥ . ٥ - الإحاطة ٤: ١٢٥، بُغية الوعاة ٢: ١٨٩ ، الديباج المذهب ٢٠٧ .

٦ - الإحاطة ٤: ١٢٦ . ٧ - الإحاطة ٤: ٤٥٨ . ٨ - ص ٢٠٨ .

٩- ص ٣: ٢٣٤ . ١٠ - نفح الطيب ٧: ٢٨٩ . ١١- درّة الحجال ٢: ٨٧ وقد مرت ترجمته .

١٢ - مرت ترجمته .

١٣ - هو أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري، المالقي الفاسي ولد ٧١٨هـ كان متضمناً في معارف شتى، عارفاً بعقد الشروط ، شاعراً مجيداً كاتباً بليغاً، تولى كتابة علامة السلطان أبي عنان المريني،وكان تولى العدول في مالقة، انظر ترجمته في الإحاطة ٣: ٤٤٤، نثير الجمان ٢٣٣-٢٤٧. نيل الإبتهاج ١٤٥-١٤٧، مستودع العلامة ٥١-٥٦، التعريف بابن خلدون ٤١-٤٤، الكتيبة الكامنة ٢٥٤-٢٥٩، وقد ذكره البخاري بالياء والخاء، جذوة الإقتباس ٢: ٤٣٦ .

خلّف أبو الحسن ديوان شعر جمعه تلميذه لسان الدين بن الخطيب وهو يقول في ذلك :(١)
"... وشعره كثير مُدون ، جمعته، ودونته، يشتمل على الأغراض المتعددة، من المعشرات النبويات، والقصائد السلطانيات، والأخوانيات، والمقطوعات الأدبيات، والألغاز والأحجيات كما ذكر المقري هذا الديوان -أيضاً- ضمن مؤلفات لسان الدين بن الخطيب بقوله "..". وتدوين شعر شيخه ابن الجيّاب". (٢) أما ابن القاضي فلم يذكر هذا الديوان ، وإنما قال"... وله أشعار كثيرة". (٣)

أما آثاره النثرية ، فقد اقتضب تلميذة لسان الدين بن الخطيب من رسائله الديوانية أجزاءً سمّاها : " تافهاً من جَمّ، ونقطة من يَمّ" (٤).

وقد قال المقّري في أدب أبي الحسن (٥): " ويَظْهر لي أنّ نَظْمه أعلى طبقة من نثره، وعلى كل حال فهو لا يتكلف نَظْماً ولا نثراً " ، أما ابن الخطيب فقال عن أدبه بإنه(٦) "جامع بين حصافة اللفظ، ولطافة المعنى".

أُصيب أبو الحسن بمرض الطاعون الذي اجتاح الأندلس عام ٧٤٩هـ، و "طال به المرض حتى أذهب جواهر بدنه" (٧)، وظل هكذا حتى اختاره ربه إلى جواره ليلة الأربعاء ٢٣/ شوال/ ٧٤٩هـ، (٨) وحُملت جنازته ودُفنت بباب البيرة " وكانت جنازته آخذة نهاية الاحتفال" (٩). حضرها "السلطان فمن دونه". (١٠) وقد رثاه الفقيه أبو عبد الله بن جُزَيّ (١١) بقصيدة منها : (١٢)

---

١ - الإحاطة ١: ١٢٨ وقد جُمِعَ ديوان ابن الجياب برسالة ماجستير في الجامعة الاردنية مقدمة من السيد مشهور عبد الرحمن الحبازي عام ١٩٨٣ م . ٢ - نفح الطيب ٧: ١٠١ .

٣ - درّة الحجال ٣: ٢٣٧ .

٤ - الإحاطة ٤: ١٤٧، نفح الطيب ٧: ١٠١، والكتاب لم يصلنا .

٥ - نفح الطيب ٥: ٤٦٤ . ٦ - التاج المُحلى ٣٧٩ .

٧ - الإحاطة ٤: ١٢٥ .

٨ - المصدر نفسه ١: ١٤٧، نفح الطيب ٥: ٤٤٥، درة الحجال ٣: ٢٣٨، وفي بغية الوعاة ٢: ١٨٩ أن وفاته ليلة الأربعاء ١٣/شوال/ ٧٤٩هـ.

وفي نيل الإبتهاج ٢٠٥ " توفي ١٣/ شوال/ ٧٤٩هـ" ، وفي العبر ٧: ٦٨٩ " هلك في الطاعون الجارف سنة ٧٤٩هـ" وفي الديباج المذهب ٢٠٨ " توفي سنة ٧٤٩ هـ" وفي وفيات الونشريسي ١١٦ توفي ٧٤٠هـ.

٩ - الإحاطة ٤: ١٤٧ .

١٠ - المصدر نفسه ٤: ١٤٧، بغية الوعاة ٢: ١٨٩، نيل الابتهاج ٢٠٥ .

١١ - تقدمت ترجمته .

١٢ - القصيدة في الإحاطة ٤: ١٤٩-١٥٢، وفي نفح الطيب ٥: ٤٤٨-٤٤٩ .

ألم ترَ أنّ المَجْد أقوتْ مَعالمُــه   فأطنابه قد قوّضــت ودعائمُه
بَكت فقْدك الكتّابُ إذْ كان شَمْلُهم   يؤلفه من روح فَضلك ناعمُه

كما رثاه لسان الدين بن الخطيب خامس يوم وفاته بقصيدة منها : (١)

ما لليــراع خواضــع الأعنـــاق   طــرق النعــيُّ فهــنّ في إطراقِ
ما للصحــائف صوّحت روضاتها   أسـفاً ، وكــنَّ نضــيرة الأوراق
خَطْبٌ أصاب بني البلاغةِ والحِجا   شــبّ الزّفيــرُ بها عـن الأطْواقِ

وقد قال لسان الدين بن الخطيب عمّا رثّي به شيخه، وعن تأبينه (٢) " ... قصائد مطولات يخرج استقصاؤها عن الغرض، فكان هذا التأبين غريباً، لم يتقدم به عهدٌ بالحضرة، لكونها دار ملك، والتجلّة في مثل هذا مقصورة على أولي الأمر".

أنشأ أبو الحسن -أثناء خدمته في ديوان الإنشاء - رسائل ديوانية كثيرة، في شتّى الأغراض، قال عنها لسان الدين بن الخطيب.(٣) " أمّا نثره فسلطانيات مطولات"، وقد أثنى عليها مترجموه، فقال عنه لسان الدين بن الخطيب بأنه "شيخ الكتابة وبانيها"(٤) وفي موقع آخر(٥) : " .... والحق أن نعدل عن سلطانياته لاشتهارها" ، وفي موضع آخر(٦) "فاضل الخطّة، وباري القوس". وقال عنه أبو الوليد بن الأحمر (٧) : "كان قد امتطى من ديوان الإنشاء جواداً تقدم بها، مُجلياً ، وغدا كل منتم لهذه الطريقة مصلياً". وقال المقّري (٨): ".... كان أبو الحسن رئيس كُتّاب الأندلس وهم رؤساءُ غيرهم" ، وفي موضع آخر وصفه بأنه (٩): "لا يتكلف نظماً ولا نثراً" . وقال عنه ابن القاضي (١٠): " له قلم فصيح، وباعٌ في الكتابة والخطابة، مديد فسيح" .

---

١ - القصيدة في الإحاطة ٤: ١٤٧، وفي نفح الطيب ٥: ٤٤٥-٤٤٧ .
٢ - الإحاطة ٤: ١٥٢، نفح الطيب ٥: ٤٥ .
٣ - الإحاطة ٤: ١٤٧ .
٤ - الكتيبة الكامنة ١٨٣، التاج المُحلّى ٣٧٩ .
٥ - الكتيبة الكامنة ١٨٤ .
٦ - الإحاطة ١: ٣٨٩ .
٧ - نثير الجُمان ١٢٦، نثير فرائد الجُمان ٢٤٠ .
٨ - أزهار الرياض ١: ١٩٢ .
٩ - نفح الطيب ٥: ٤٦٤ .
١٠ - درة الحجال ٣: ٢٣٥ .

وعلى الرغم من ذلك فقد ضنّت علينا المصادر التي ترجمت له بإيراد جزء من رسائله الديوانية -على كثرتها- ما عدا المقّري الذي أورد له رسالتين ديوانيتين، إحداهما (١) إعلام سلطان المغرب بعقد صُلح مع ملك قشتالة، والثانية(٢) في موضوع العزاء والهناء لسلطان المغرب أيضاً. رُبما اسعفتنا لتلمّس طريقته بالكتابة، وما يميز أسلوبه الإنشائي في رسائله الديوانية.

اتصفت الرسالتان ببناءٍ فني متماثل، في رسوم المكاتبة؛ فقد تكونت كلُّ واحدةٍ منهما من مقدمّة (٣)، يُذكر فيها اسم المُرسِل والمُرسَل إليه، مع ذكر نعوتهما، والدعاء للمخصوص بالرسالة، وإزجاء التحية والسلام. ثم الحمد لله. والصلاة على الرسول الكريم، وعلى آله وصحبه، مقرونة بالدعاء لصاحب الرسالة. وبعد ذلك يدخل إلى موضوع الرسالة والغاية التي أُنشئت من أجلها، ثم الخاتمة بالدعاء للمخصوص بالرسالة والسلام .

إلا أن الأسلوب يتباين في الرسالتين، حسب الغرض من الرسالة، ففي حين عمد إلى الإيجاز في رسالة المعاهدة، نجده عمد إلى الإطناب -نسبياً- في رسالة العزاء والهناء، إلا أن هذا الاطناب، لم يكن مُنَفِّراً، أو قلقاً، مثلاً قال في الحمد لله، والصلاة والسلام على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، في الرسالة الأولى :" أما بعد حمد الله الذي أولاكم مُلكاً منصوراً، وفخراً مشهوراً، وأحيا بدولتكم العليّة لمكارم الأخلاق ذكراً منشوراً، والصلاة والسلام على سيدنا، ومولانا محمد رسول الله الذي اختاره بشيراً ونذيراً، وشرح بهدايته صدوراً، وجعل الملأ الأعلى له ظهيراً، والرِّضا عن آله وصحبه الذين ظاهروه في حياته، وخلفوه في أمته بعد وفاته، فنالوا في الحالين فضلاً مسطوراً، وأجراً موفوراً".

وقال في الرسالة الثانية : " أمّا بعد حمد الله الواحد القهار الحيّ القيوم، حياة لا تتقيد بالأعصار ، القادر الذي كُلُّ شيء في قبضة قدرته محصور بحكم الاضطرار، الغنيّ في ملكوته فلا يلحقه لاحق الافتقار، المريد الذي بإرادته تصريف الأقدار، وتقدير الآجال والأعمار، العالم الذي لا تغرب عن علمه خفايا الأسرار، وخبايا الأفكار، مالك المُلك وأهله، ومدبّر الأمور بحكمته وعَدْله، تذكرةً لأولي الألباب، وعبرة لأولي الأبصار، خالق الموت والحياة، لينقلنا من دار الفناء إلى دار القرار. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المختار، الذي نهتدي بهديه الكريم في الإيراد والإصدار،والإحلاء والإمرار،في الشدة والرخاء ، والسرّاء

١- نفح الطيب ٥ : ٤٥٨ – ٤٦١ ٢ – المصدر نفسه ٥ : ٤٦١ – ٤٦٤

٣ – لم يذكر المقّري ، نفح الطيب ٥: ٤٦١، مقدمة الرسالة الثانية، واكتفى بالإشارة إليها : " ومن إنشاء ابن الجيّاب رحمه الله تعالى في العزاء بالسلطان ابي الحسن المريني ما صورته بعد الصدر".

والضرّاء، بسيره الكريمة الآثار، ونتعزّي بالمصيبة به عمّا دهم من المصائب الكبار، ونقدم منه إلى ربّنا شفيعاً ماحياً للازورار، وآخذاً بالحجز عن النار، ونعلم أننا باتباع سبيله نسعد سعادة الأبرار، وبإقامه ملته، وحماية شِرْعته، ننال مرضاة الملك الغفّار. والرّضا عن آله وصحبه، وأُوليائه وحزبه، الذين ظاهروه في حياته على إقامة الحقّ الساطع الأنوار، وخلفوه في أُمته قائمين بالعدل ، حامين للذمار".

كما أننا نستبين مما سبق حِذْق الكاتب في تحميداته، بما وافق غرض الرسالة، فألفاظ القطعة الثانية –مثلاً– كلها تتحدث عن القضاء والقدر، وأن البقاء لله وحده "الحي القيوم حياةً لا تتقيد بالأعصار، ... المُريد الذي بإرادته تصريف الأقدار، وتقدير الآجال والأعمار"، ثم الاقتداء بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي"... نتعزّي به عمّا دهم من المصائب الكبار". لذلك فالمتدبِّر لهذا النصّ ، يستطيع أن يتبين موضوع الرسالة، فهي له كالعنوان ،وقد نقل الكلاعي عن الفتح بن جنّي قوله: "إذا كان المُرسِل حاذقاً أشار في تحميده إلى ما جاء بالرسالة من أجله" .(١)

ويستعمل أبو الحسن في لغة الكتابية أسلوبين متباينين لصيغة المتكلم، ففي رسالة المعاهدة يستخدم صيغة المفرد ،في حين يستخدم صيغة الجَمْع في رسالة العزاء، ففي الرسالة الأولى " فكتبته كتب الله لكم عوائد السعادة، وحباكم من الائه بالحُسن والزيادة –من حمراء غرناطة – حرسها الله– " وفي الثانية : " فإناَ كتبناه –كتب الله لكم عوائد النصر، وربط على قلبكم بالصبر – من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى". ولربما كان استعماله صيغة المفرد مقصوراً على المعاهدات ، كَوْنها لا تصح إلاّ بموافقة السلطان، في حين أنّ المواضيع الأخرى قد تصحُ بغير ذلك، فالحزن –مثلاً– ظاهرة عامّة، يشترك فيها السلطان وغيره، ولا يرتبط أحدهما بموافقة الآخر، على خلاف المعاهدات، فهي مقصورة على موافقة السلطان .

ويتمتع أبو الحسن بأسلوب شيّق ممتع، محبب للنفس ، فهو يتحدث بأسلوب مسجوع غير متكلف ، ولا منفّر ، فلا يلتزم حرفاً واحداً حين يعقد سجعاته في تراكيبه، فإذا أحسّ أن طول السّجعة قد يؤدي إلى الملّل ، انحرف عن ذلك الحرف إلى حرفٍ آخر، كي يعقد سجعة أخرى في الفقرة ذاتها، لذلك نجد أن الفقرة الواحدة يتنازعها أكثر من سجعة. فمثلاً يقول في رسالته المعقوده للعزاء : "وكنّا طول حياته لم نجد أثراً لِفقد الوالد، لِما أولانا من جميل العوائد، وكرم المقاصد، جزاه الله أحسن جزائه، وأعاننا على توفية حقه وأدائه، ولمثل هذه المصيبة– ولا مثل لها– تُظلم الأرجاء، ويضيق الفضاء، وتبكيه مسوّمة الجياد،ومقام الجهاد،والسيوف في الأغماد،

---

١ – إحكام صنعة الكلام ٦٦–٦٧ .

وشتى العباد والبلاد، فلا تسألوا كيف هو عندنا موقع هذا الخطب العظيم والحادث المقعد المقيم، والرّزيّة التي لا رزيّة مثلها، والحادثة التي أُصيبت بها الملّة وأهلها، فَوَجَدْنَـا لِفَقْده يتضـاعف مـع الآناء، ويتجدد تذكار ما سلف من أعمال الملوك الفضلاء، ولكنه أمر حكم، وقضاء من الله جزم، وسبيل يسلك عليها الأوّل والآخر، والآتي والغابر، وليس والله إلا التسليم، لمـا حكم بـه الحكيـم".

وهو بذلك لم يأتِ بتراكيبـه قَسْراً كـي تـؤدي مهمـة السّجع، ولا يتكلـف ألفاظـاً كـي تتناسب مـع السجعة المعقودة. ولربما استعمل السجع المُركّب (١)، فـي بنـاء سجعاته، اي أنـه يسـتخرج مـن السجعة الواحدة سجعتين داخليتين : " وأما بعد حمـد اللـه الواحـد القهّـار ... مـالك المُلـك وأهلـه، ومدبر الأمور بحكمته وعَدْله، تذكرة لأولي الألباب وعبرة لأولي الأبصار .... والصلاة والسـلام على سـيّدنا ومولانـا محمـد رسـوله المصطفى المختـار، الـذي نهتـدي بهديـه الكريـم فـي الإيـراد والإصدار، والإحلاء والإمرار ، في الشدة والرخاء، والسراء والضراء، بِسِـيره الكريمـة الآثـار"، فالسجعة معقودة على حرف الراء أدخل مرّة حرف الهاء ثم عاد إلى حرف الـراء، ومـرّة أخـرى أدخل الهمزة وعاد إلى حرف الراء أيضاً .

أما الموازنة بين الجُمل فهي ظاهرة جليّـة ، يعقدهـا مقرونـة بالأسـلوب المسـجوع ايضـاً، مُبدياً قُدْرة على امتلاك ناصية السَّجع، والموازنة بين الجمل ، ففي رسالة المعاهدة يدعو للسلطان المخصوص بالرسالة بقولـه : "السـلطان الكذا ابقـاه اللـه فـي مُلْـك منيـع الذّمـار، وسـعـــد بـاهر الأنوار، ومجد رفيع المقدار، وسلطان عزيز الأنصار، كريم المآثر والآثار." وفـي رسـالة العـزاء يقول : " وأما هذه البلاد الأندلسية -حماها الله- فهي وإن فقدت من السـلطان الأعلـى أبـي سـعيد أكرم ظهير، ووقع مصابه منها محلٌ كبير، فقد لجأت منكم إلى منْ يحميها، ويكفُّ بـأس أعاديهـا، ويبتغـي مرضـاة خالقهـا فيهـا. فملككـم بحمـد اللـه تعـإلى مُقتبـل الشـباب ،جديـد الأثـواب، عريـق الأنساب، أصيل الأحساب، ومجدكم جارٍ على أعْراقه جري الجياد العِراب".

ويعتمد أبو الحسن الأسلوب المُرسل إذا ما تعرّض لأمرٍ لا يحتاج فيه إلى إبراز مقدرته اللغوية ،أو البلاغيــة فتـأتي معانيـه واضحـة ، جليّة، لا لُبس فيهـا، ولا تحتمـل التـأويل ، فيسـرد المعلومة بالأسلوب الذي يوصلها بمعناها ، دون أن يجشّم نفسه عناء التكلـف والتصنّـع، علـى أن هذا الأسلوب لـم يكـن منفصـلاً عـن الأسـلوب المسـجوع ، فقـد يسـتعمل الأسـلوبين فـي الرسـالة الواحدة ، وهـاهو في رسالة المعاهدة يبدأهـا بالأسلوب المسجوع، لكنه ينحرف عنه إلى الأسلوب المُرسل حين يتحدث عن الصّلح،وحيثياته، وأهدافه و مراميه، يقول في إعلام السلطان

---

١ - استعمل هذا المصطلح الدكتور شوقي ضيـف فـي كتابـه الفن ومذاهبـه فـي النثر العـربي ، دار المعـارف بمصر ، الطبعة السادسة . ص ٣٣٤

المخصوص بالرسالة عن الصُّلح : " .... وكان خديمنا نقروز بحكـــم الاتفـاق قـد ورد اشـبيلية لبعض أشغاله، فاستحضره وأخذ معه أمر الصُّلح وشرح أحواله، وأعاده إلـى معضمكـم ليستفهم ما عنده ، ويعلم مذهبه وقصده، فأُعيد إليه إن أراد المصالحة على صُلح والـده ، مـع هـذه الديـار النّصرية، من غير زيادة على شروط تلك القضية، ولا يعرض لاسترجاع معقل من المعاقل التـي أُخلصت من يد النصرانية، وأن يكون عقده على الجزيرة ورُندة ، وغيرها مـن البـلاد الأندلسـية، فلا بد من مطالعة محل والدنا السلطان أمير المسلمين أبي سـعيدَ أيّده اللـه، واسـتطلاع مـا يـراه، وحينئذ نعمل بحسب نظره الجميل مُقتضاه، وأكدَّ على نقروز في أنـه إن انقـاد لهـذا الأمـر فليعقـد معه هدنة لأمد من الدهر، بقدر مـا يتّسِع لتعريفكم بهذه الحـال وإعلامكم، ويسـتطلع فيهـا نظـر مقامكم، فما هو إلاّ أن عاد يوم تاريخ هذا الكتاب ملك قشتالة ، وقد أجاب إلى الصـلح وانقاد إليـه، على حسب ما شرط عليه، وأعطى مهادنة مـدة شـهر فبراير ، ليعـرف بهـا مقـامكم ، ويتعلـم مـا لديه".

لقد استخدم أبو الحسن أسلوباً سهلاً ، بعقد جملته متضمنـة معنـى واضحـاً، مُحـلاة ببعـض السجعات التي ترد عفو الخاطر، ولم تكن مقصودة لذاتها، وبذلك يكون قد امتلك الأسلوبين بحـذق ومهارة، دون تكلف لألفاظٍ وعبارات ، ومعانٍ، قد تذهب عن كتابته بريقها .

لسان الدين بن الخطيب

محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السّلماني، قُرطبيّ الأصل ثم طليطليه، ثم لوشيّه، ثم غرناطيّة، يكنى أبا عبد اللـه، ويلقب بالألقاب المشرقية بلسان الدين. (١) وُلد في ٢٥/ رجب ٧١٣هـ وهو من عائلة تُعرف قديماً ببني الوزير، ثم حديثا بلوشة ببني الخطيب. وبيتهم في قرطبة بيت فقه، وهم بها أهل نباهة. (٢) وكان له في لوشة "سلف معدود في وزرائها". (٣)

وكان أبوه من أهل العلم والأدب والطب، قَدِم غرناطة "واستُخدم لملوك بني الأحمر، واستُعمل على مخازن الطعام" . (٤) كما كان سريع البديهة، حاضر الجواب، قال لسان الدين:(٥) أنشدت والدي أبياتاً من شعري ورقاعاً من إنشائي، فَسُرَّ وتهلل، وارتجل رحمه الله :

الطِبُّ والشِعْرُ والكِتَابة   سِمَاتُنا في بَني النَّجابَة

هُنَّ ثلاثٌ مُبلِّغـــــاتٌ   مراتباً، بعضُها الحِجابة

وكان لوالد لسان الدين الأثر الكبير في حياة ولده السياسية ، وحظوته عند السلاطين، وتشكيلته المعرفية، والأدبية يقول لسان الدين بعد وفــاة والــده " (٦) ..... وخلفني عالي

---

١ – الإحاطة ٤: ٤٣٩، البدر الطالع ٢: ١٩١، نفح الطيب ٥: ٨ ، أزهار الرياض ١: ١٨٦، والسلماني نسبة إلى سلمان أحد أحياء مُراد من عرب اليمن، القحطانيين، دخل الأندلس منهم جماعة من الشام. انظر نفح الطيب ٥ : ٢٢ ، وفي التعريف بوالده يقول لسان الدين: عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السلماني، الإحاطة٣: ٣٨٦. وفي درة الحجال ٢: ٢٧١، محمد بن عبد الله بن الخطيب السّلماني، وفي إنباء الغُمر ١: ١٢٩، قدّم أحمد على علي، وكذلك ابن عماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي ١٠٨٩هـ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدس القاهرة، ١٣٥٠هـ،٦: ٢٤٤ قدّم أحمد على علي. وفي نثير فرائد الجُمان ص٢٤٢: " ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلدة لوشة، عبد الله بن الفقيه القائد الكاتب سعيد بن عبد الله، بن الفقيه القائد الكاتب سعيد بن عبد الله بن الفقيه الصالح وليّ الله الخطيب سعيد بن أحمد السّلماني".

٢ – الإحاطة ٣: ٣٨٦، جذوة الاقتباس ١: ٣٠٨ .

٣ – أزهار الرياض ١: ٢٠٤، العبر ٧: ٦٨٩ .

٤ –أزهار الرياض ١ : ٢٠٤ العبر ٧: ٦٨٩، إنباء الغُمر ١: ١٣٠ .

٥ – نفح الطيب ٥: ١٦، أزهار الرياض ١: ١٨٧ .

٦ – الإحاطة ٤: ٤٤٣.

الدرجة، شهير الخُطة، مشمولاً بالقبول ، مكنوفاً بالعناية".

كما كان لشيوخه الذين تتلمذ عليهم الأثر الكبير في تشكيل شخصيته الثقافية والمعرفية، فقد تتلمذ على مجموعة من الشيوخ،(١) ذائعي الصيت في الأندلس،في الآداب والعلوم،ومن هؤلاء شيخه أبو الحسن بن الجيّاب فقد "اختص به اختصاصاً تاماً".(٢) وأبو الحسن القيجاطي(٣)، وهو أول من انتفع به.(٤) وأبو عبد الله بن الفخّار (٥)، وأبو القاسم بن جُزّي(٦)، وأبو زكريا بن هُذَيل (٧) ، فقد اختصّ بصحبته وتعلم منه الفلسفة،(٨) وأبو بكربن شبرين(٩)، وأبو سعيد فرج بن لبّ. (١٠)

---

١ - سرد ابن الخطيب شيوخه في الإحاطة ٤: ٤٥٨-٤٦١، والمقّري في النفح ٥: ١٨٩--٦٠٥، وأزهار الرياض ١: ١٨٧-١٨٩ .

٢ - أزهار الرياض ١: ١٩٢ ، درة الحجال ٣: ٢٣٤، الإحاطة ٤: ١٥٦ .

٣ - هو علي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله القيجاطي ،ورد غرناطة عام ٧١٢هـ، وقعد بمسجدها يقرىء فنوناً من العلم، ولي الخطابة ، وناب عن بعض القضاة بالحضرة، وقصده الناس، وأخذ عنه القريب والبعيد، وكان أديبا لوذعياً فكهاً حلواً ، مولده ٦٥٠هـ، ووفاته ٧٣٠هـ، وكانت جنازته عظيمة حضرها السطان واحتمل الطلبة نعشه. انظر ترجمتــه في : الإحاطة ٤: ١٠٤-١٠٧، الكتيبة الكامنه ٣٧-٤٠، التاج المحلّى ٣٦١، بُغْية الوعاة ٢: ١٨٠ نفح الطيب ٥: ٥٠٧، درة الحجال ٣: ٢٣٩، نيل الابتهاج ٢٩٢.

٤ - الإحاطة ٤: ١٠٤ .

٥ - هو أبو عبد الله محمد بن علي الفخار الألبيري، من شريش ، انتقل إلى مالقة، وتصدر للإقراء والتدريس بها، كان شيخ النحاة بالأندلس غير مدافع، له عدة تصانيف أكثرها في النحو، وله شعر "شهير الشان بالاخشيشان" توفي ٧٥٤هـ ، انظر ترجمته في : الكتيبة الكامنة ٧٠-٧١، بُغية الوعاة ٢: ٨٠، نفح الطيب ٥: ٣٥٥-٣٥٩، الجزري محمد بن العمري ، غاية النهاية في طبقات القرّاء ، تحقيق جو تهلف برجسترسر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ٢ : ٢٠٠- ٢٠١ .

٦- مرت ترجمته.

٧ - هو يحيى بن أحمد بن هُذيل التجيبي الغرناطي ، الشهير بابن هذيل ، طبيب مشهور، وله مشاركة في الفلسفة والحساب والهندسة و الأصول والآداب، وهو شاعر مبدع، وله ديوان شعر اسمه "السلمانيات والعربيات" لم يصلنا، توفي ٧٥٣هـ ، أنظر ترجمته في الإحاطة ٤: ٣٩٠، الدرر الكامنة ٤: ٤١٢، نثير فرائد الجُمان ٣٢٠-٣٢٣، التاج المحلي ٣٩٤، نفح الطيب ٥: ٤٨٧-٤٩٧، الكتيبة الكامنة ٧٣-٨٠ وقد ورد فيها خطأً عنوان الترجمة بإنها لابن شقرال الطرسوني .

٨ - العبر ٧: ٦٨٩، إنباء الغمر ١: ١٣٠ .

٩ - مرت ترجمته .

١٠ - هو فرج بن قاسم بن أحمد بن لبّ التغلبي، من أكابر علماء المالكية بالمغرب، أقرأ بالمدرسة النصريّة عام ٧٥٤هـ. وفتاويه مشهورة هناك، وقلّ مَنْ لم يأخذ عنه، له تواليف منها، شرح جمل الزجاجي، وشرح تصريف التسهيل ، وفتاوي مدونة، ت ٧٨٢-٧٨٣هـ.ترجمته في الكتيبة الكامنة ٦٧-٧٠، نفح الطيب ٥ : ٥٠٩ - ٥١٤ الاحاطة ٤ : ٢٥٣ بغية الوعاة ٢: ٢٤٣-٢٤٤. نيل الابتهاج ٢١١، درة الحجال ٣: ٢٦٥-٢٦٨.

وأبو البركات بن الحاج البلفيقي. (١)

وكان لسان الدين بن الخطيب أديباً كبيراً، شاعراً وناثراً، قال عنه ابن خلدون(٢) : "كان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر ، والمعارف والآداب، لا يساجل مداه، ولا يُهتدي فيها بمثل هداه" . وقال في موضع آخر : (٣)" ونبغ في الشعر والترسيل بحيث لا يُجاري فيهما".

وثقافة لسان الدين ثقافة شاملة مترامية الأطراف ، لا يوجد شيء -غالباً- في المعارف والآداب والعلوم، إلا وله فيه مشاركة نافعة ، حتى ليبدو " أن الثقافة الأندلسية من أولها في الأندلس إلى آخرها ، قد صفيت وتقطرت في لسان الدين بن الخطيب ، لتعدد مناحيه ، وسعة علمه وكثرة انتاجه". (٤) "فقد كان عنوان عصره في فنون الآداب وضروب العلم".(٥) وقال عنه أبو الوليد بن الأحمر : (٦) " ... وهو نفيس العدوتين، ورئيس الدولتين، بالاطلاع على العلوم العقلية، والامتناع بالمفهوم النقلية".

ولسان الدين مؤلف ماهر، جَلِدٌ على التأليف ، يواصل الليل بالنهار، لا يلحقه كَلَل ، ولا مَلَل، وأكثر مؤلفاته يعكف على تأليفها في الليل (٧)، وقد أربت مؤلفاته على ستين مؤلفاً، (٨) قال عنها أبو الوليد بن الأحمر : " .... وله الأوضاع المصنَّفات ، آذان إحسانها هي المقرَّطات المشنَّفات". (٩)

١- هو أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم بن الحاج البلفيقي ، من أهل المريّة ، شيخ المحدثين والفقهاء والأدباء ، والصوفية، والخطباء بالأندلس ، وهو من بيت كبير علماً ، وصلاحاً، وزهداً، وله تآليف ذكر فيها خبر أسلافه، ومن تواليفه " المؤتمن على أنباء أبناء الزمن"، توفي في شوال ٧٧١هـ، وقيل ٧٧٣هـ. ترجمته في التعريف بابن خلدون ٦١، وجذوة الاقتباس ٢: ١٨٣، الكتيبة الكامنة ١٢٧-١٣٤، المرقبة العليا ١٦٤، الديباج المذهب ١٦٤، نفح الطيب ٥: ٤٧١-٣٨٧، الإحاطة ٢: ١٤٣-١٦٩، غاية النهاية ٢: ٢٣٥-٢٣٦ .

٢ - التعريف بابن خلدون ١٥٥،

٣ - أزهار الرياض ١: ٢٠٥، العبر ٧: ٦٩٢ .

٤- ظهر الإسلام ٣: ٢٢٥ .

٥ - الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ٢٢٦ .

٦ - نثير فرائد الجُمان ٢٤٣ .

٧- شذرات الذهب ٦ : ٢٤٦

٨ - سرد لسان الدين مؤلفاته في الجزء الرابع من الإحاطة ص ٤٥٨-٤٦١، وذكرها المقّري في نفح الطيب ٧ : ١٠٢ ، وزاد عليها ما ألفه بعد تأليف الإحاطة . كما ذكرها أبو الوليد ابن الاحمر في نثير فرائد الجُمان ٢٤٤

٩ - نثير فرائد الجُمان ٢٤٤ .

فقد ألّف في الأدب والتاريخ ، والطب، والفلسفة، والموسيقى والجغرافيا والسياسة ... وغيرها، وهذه المؤلفات قيمة، فريدة في تنوعها، لا يجد الباحث مندوحة عنها في تناوله لأي دراسة كانت تختص بالأندلس، وقد حُقّق منها جزءٌ هو في متناول الباحثين الآن.

تنقّل لسان الدين بن الخطيب في المناصب الإدارية والسياسية، ونال حظوةً وجاهاً كبيراً عند سلاطين غرناطة ، فقد انتظم في ديوان الإنشاء مرؤوساً بأبي الحسن بن الجياب، (١) بعد وفاة والده في موقعة طريف عام ٧٤١هـ. ثم ترقّى إلى رئاسة الكُتّاب مُثناة بالوزارة (٢)، بعد وفاة شيخه ابن الجيّاب (٣)، أخريات شوال عام ٧٤٩هـ. ليبدأ نجم لسان الدين السياسي بالظهور، فقد كان السفير والوزير . والكاتب ، والنائب عن السلطان في غيابه .ومن فصول منشور أبي الحجّاج يوسف الأول له " ... وأطلقنا يده على كُلّ ما جعل الله لنا النظر فيه"، (٥) ويشير لسان الدين إلى مكانته عند أبي الحجّاج بقوله "..... فأسند لي جميع أمره". (٦)

وبعد وفاة أبي الحجاج ، استأثر به محمد الخامس الغني بالله، فقد افرده في الوزارة لأول أمره، واتخذ للكتابة غيره. (٧) وخلال ذلك جمع ثروة طائلة، فقد كان محباً للمال، جمّاعة له، شغوفاً ببناء المساكن والجنّات، وقد ذُكر أن أبا الحسن ابن الجيّاب رفض تزويجه ابنته لعلمه أنه محب للمال، ومتعلق بالدُنيا. (٨)

كما أظهر لسان الدين بن الخطيب في عمله، حُسن إدارة وتمكن سياسة، وأصبح محبوباً اينما حلّ وارتحل ، فقد كان مُعظّماً عند الملوك، يراسلهم -بصفته الشخصية- ويراسلونه ، حتى كان له عند العدو وقْعٌ عظيم في النفس، فقد ذكر الحافظ ابن حجر قصة تعبر عن ذلك،حيث قال : (٩) "... وذكر الشيخ محمد القصباني أن ابن الأحمر وجهه رسولاً إلى ملك الفرنج في رسالة . فلما اراد الرجوع أخرج له رسالة من ابن الخطيب بخط يده، تشتمل على نظم ونثر. قال : فلما قرأتها ، قال لي : مثل هذا كان ينبغي أن يُقتل ؟ ! . ثم بكى حتى بلّ ثيابه".

---

١ – العبر ٧: ٦٨٩، أزهار الرياض ١: ٢٠٥ .　　٢ – الإحاطة ٤: ٣٢٠، انباء الغمر ١: ١٣٠ .

٣ – درة الحجال ٣: ٢٣٤، الإحاطة ٤: ١٢٦ .

٤ – نفح الطيب ٦: ١٠٢ .　　٥ – الإحاطة ٤: ٤٤٣ .

٦ – أعمال الأعلام ٣٠٥ .

٧ – أزهار الرياض ١: ٢٠٦ .

٨ – انظر رسالة أبي الحسن النباهي للسان الدين والذي يتهمه فيها بكثير من الأمور في نفح الطيب ٥: ١٢٩

٩–أنباء الغمر ١: ١٣٣ ، الشوكاني، محمد بن علي ت ١٢٥٥هـ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع ، دار المعرفة ، بيروت ٢: ١٩٣ .

نُكب لسانُ الدين خلال عمله لدى سلاطين غرناطة مرتين، افلت من الأولى بشفاعة سلطان المغرب . أما الثانية فلم تكن بأفضل من سابقتها فقد سَطّرت نهايته؛ ففي عام ٧٦٠هـ، كانت الثورة على الغني بالله الذي استطاع الهروب دون أن يَمسّه سوء .(١) وظل لسان الدين تحت إمرة السلطان الجديد، إلاّ أنه اعتقل فيما بعد وانتهبت داره، وصودرت أملاكه وأمواله، حتى جاءت شفاعة سلطان المغرب به، فأفلت من تلك النكبة ، ولحق بسلطانه في المغرب(٢)، وحين عاد السلطان للمُلْك ثانية " بعد أهوال تشيب لها الذوائب". (٣) ، عاد إلى ما كان عليه ويزيد، وأصدر له السلطان ظهيراً بإعادته إلى سابق عهده (٤)، يقول ابن خلدون : (٥) "... وانفرد ابن الخطيب بالحلّ والعَقْد، وانصرفت إليه الوجوه، وعُلِّقت به الآمال، وغَشيَ بابَهُ الخاصةُ، والكافة، وغصّت به بطانةُ السلطان وحاشيته، وتفننّوا في السعايات فيه". وحين تَوَجّس خيفة من حاشية السلطان الذين أوغروا قلبه عليه، قرّر الفرار إلى المغرب. بعد ما ثبت له بما لا يدع مجالاً للشك، أن وضعه لا يسمح له بالبقاء أكثر من ذلك، وقد وصف مَنْ حوله من بطانة السلطان بقوله (٦) : " .... وصرتُ أنظر إلى الوجوه، فأنظر الشَرَّ في نظراتها، أنظر إليهم يتناقلون الإشارات بالعيون ، والمغامزة بالجفون، والمخاطبة باللغوز، فإذا انصرفوا صَرّف الله قلوبهم، فقلبوا الأمور، ونقلوا العيوب، وأفسدوا القلوب، وتعلّلوا بالأحلام وقواطع الأحكام." وقد تعلّل بتفقد الثغور وهرب إلى المغرب عام ٧٧٣هـ، (٧) جاعلاً بذلك حدّاً لحياته السياسية، لينقطع للتأليف، يقول في مقدمة كتابه الكتيبة الكامنة : (٨) " أما بعد، فإنني لما استوفيت أو طاري، واستكملت أدواري ، وتشوّفت ظلمي إلى مطالع أنواري، واستوعبت من صحبة المغرب حُصّتي، وختمت بالدعاء قصتي، ونزلت عن منصتي، وابتلعت غصّتي... وسميت هذا

---

١ – الإحاطة ٢: ٥٣٢ .

٢ – الإحاطة ٤: ٤٤٣-٤٤٤، العبر ٧: ٦٩٣، نفح الطيب ٥: ١٠٠ .

٣ – أعمال الأعلام ٣١٤ .

٤ – انظر الظهير المؤرخ بتاريخ ٢/ رمضان/ ٧٦٣هـ في الإحاطة ٤: ٤٥٠-٤٥٢، وقد ورد لأول مرة ذكر ذي الوزارتين كأحد ألقابة .

٥ – العبر ٧: ٦٩٤-٦٩٥ .

٦ – أعمال الأعلام .

٧ – التعريف بابن خلدون ١٣٩، العبر ٧: ٦٩٦، الاستقصا ٤: ٥٨، وقد أفاض ابن خلدون في وصف فرار لسان الدين في العبر ٧: ٣٤١-٣٤٢، ٨: ٣٣٢-٣٣٦ .

٨ – صفحة ٢٧ .

الوضع بالكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. "خلا الجوّ لحساده بعد ذلك، واعملوا الحيلة في نكبته، واثبتوا عليه كلمات منسوبه إليه تقتضي الزّندقة ، فحكم عليه بذلك (١)، وأُحرقت كتبه التي أُشيرَ فيها بزندقته، منتصف عام ٧٧٣هـ(٢)، أما التهمة الأخرى والتي لا تقل عن سابقتها، وهي اقناع السلطان بتآمر لسان الدين مع سلطان المغرب للاستيلاء على الأندلس والقضاء على دولة بني الأحمر. (٣) وقد أزمع السلطان الاقتصاص مِنه، وتنفيذ الحكم الذي يستحقه فيه، فوجّه الرُسل تِباعاً إلى المغرب، حتى تم اعتقاله، وتمت محاكمته هناك في المغرب،ووبّخ على ماأُسند إليه من تهم،(٤)وتشاور الفقهاء في قتلة، فأفتى بعضهم بذلك، (٥) فطوقوا عليه السجن ليلاً، وقُتل خنقاً وذلك في عام ٧٧٦هـ، (٦) لتوضع بذلك نهاية لحياة مليئة بالعمل الدؤوب والصخب.

خلّف لسان الدين بن الخطيب قَدْراً من الرسائل الديوانية، التي أنشأها خلال عمله في خدمة سلاطين غرناطة. جمع كثيراً منها في مجموعاتٍ، مثل كناسة الدكان، وريحانة الكتّاب، وما بَثّه خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة. نستطيع من خلالها أن نتبين أسلوبه، وما انماز به عن غيره، حتى أصبح مثلاً يُحتذى، مثلما اتخذه القلقشندي في كتابه صُبح الأعشى نموذجاً للرسائل الديوانية في الأندلس.

وصف لسان الدين كتابته الديوانية لدولة بني الأحمر بقوله : (٧) " ... وأما كتابتي عنها، فأبهى من وجوه البشاير، وأحلى من الشهد في يد الساير". كما وصفها ابن خلدون وأشار إلى تميُّزها (٨) "...وصدرت عنه غرائب من الترسيل،في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة"أما المقّري فقال:(٩)"أما نثره فهو الزخار، بل البدر الذي به الافتخار، وناهيك أنّ كَتْبه الآن في المغرب قِبلَة أرباب الانشاء التي إليها يُصلّون، وسوق دُرَرِهم النفيسة التي يزيّنون بها

---

١ – العبر ٧: ٦٩٦، أزهار الرياض ١: ٢١١، إنباء الغمر ١: ١٣١، البدر الطالع ٢: ١٩٢، وانظر كتاب النباهي الذي يتضمن ذلك في أزهار الرياض ١: ٢١٢-٢١٦، مؤرخ في جمادي ١ / ٧٧٣هـ .

٢ – المرقبة العليا ٢٠٢ .

٣ – الاستقصا ٤: ٦٢ .

٤ – نثير فرائد الجُمان ٢٤٣، جذوة الاقتباس ١: ٣١١، درة الحجال ٢: ٢٧٤ .

٥ – إنباء الغمر ١: ١٣٢ ، شذرات الذهب ٦: ٢٤٦، نفح الطيب ٥: ١١١ .

٦ – أنباء الغمر ١: ١٣٢، نثير فرائد الجمان ٢٤٣، جذوة الاقتباس ١: ٣١١، درة الحجال ٢: ٢٧٤، البدر الطالع ٢: ١٩٣ .

٧ – الاكليل الزاهر ٤٢٢ .

٨ – العبر ٧: ٦٩٠، أزهار الرياض ١: ٢٠٥ .

٩ – نفح الطيب ٦: ١٦٤ .

صدورَ طُروسِهم ويُحلّون." أما اسماعيل بن الأحمر(١) فقد نعته بـ"كاتب الأرض إلى يوم العرض" ويشير إلى تميزه عن غيره من الكتّاب حتى لكأنه أعشى أبصارهم: (٢) "وإلاّ فانظر كلام الكُتّاب الأول من العُصبَة، وكيف كان فيهم بالإجادة صاحب القَصَبَة، للبراعة واليراعة، وبه أُسكت صائلهم، وما حُمِدت بُكَرُهم وأصائِلُهم". لذلك فإن "رسائله ظلّت ذا اثر فيما يَنْسِج الكُتّاب"(٣) فيما بعد .

لما يأتِ لسان الدين بن الخطيب بجديد في شكل الرسالة الديوانية، بل حافظ على مظهرها الخارجي، كما كانت عليه عند أسلافه من الكُتّاب. إلا أنه كان له الأثر الكبير في طريقة عَرْض مقاطع الرسالة -التي تتكون عادةً من المقدّمة، والموضوع، والخاتمة- من حيث الاستعمالاتُ اللغوية، والبلاغية، واستخدام المصطلحات العلمية والأدبية وغيرها فهذا الظهير(٤) الذي صدر بخصوص ابن مهيب اللخمي يتكون من وصف الظهير "هذا ظهر كريم"، ثم يذكر اسم السلطان الذي صدر عنه، ثم المخصوص به، بعد ذلك يسرد مبرّرات اصدار هذا الظهير، والغرض منه، ثم يختمه بواجبات الرعية وأصحاب الاختصاص بالتزام العمل بمقتضاه.

ومن ذلك رسالة أبي الحسن الجياب عن سلطانه في مخاطبة سلطان المغرب (٥) : يبدأها بذكر المقام ونعوته مع ذكر المرسل اليه صاحب المقام ، والمرسل " المقام لدى الملك المنصور الأعلام ... مقام محل الاب الواجب الاعظام. السلطان كذا أيده الله، معظم مقامه... فلان".

ثم يأتي بالحمدلة والصلاة والسلام على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، والترضي عن الصحابة مع الدُعاء لمقام المرسل اليه : " أما بعد حمد الله ... والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله ... والرّضى عن آله وصحبه .. والدعاء لمقامكم الأعلى " .

ثم ذكر موضع اصدار الرسالة مع الدعاء بمعنى الكتابة: " فكتبته - كتب الله عليكم عوائد السعادة ... - من حمراء غرناطة - حرسها الله -".

ثم يدخل إلى موضوع الرّسالة بقوله :"وإلى هذا"، ثم يأتي بالغَرَض إلى آخره، ويختتم الرسالة بالدعاء للمخصوص بالرسالة والسلام .

---

١ - نثير فرائد الجُمان ٢٤٣ .

٢ - المصدر نفسه ٢٤٣ .

٣ - الحسن بن محمد السائح، منوعات ابن الخطيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٩٨٧، ص ٩٢

٤ -الإحاطة ٢: ٤٢٠ - ٤٢١

٥ - نفح الطيب ٥: ٤٥٨-٤٦١.

ومن ذلك رسالة البشارة التي كتبها ابو عبد الله بن الحكيم عن السلطان محمد الفقيه في فتح قيجاطه (١)، بدأها " من فلان إلى فلان"، ثم يذكر الحمد لة، والصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم ، والترضي عن الصحابة : " أما بعد حمد الله ... والصلاة والسلام على نبيه ورسوله .. وعلى آله الأبرار ، وأصحابه الاشداء على الكفار ...".

بعد ذلك يذكر موضع اصدار الرسالة، مع الدّعاء بمعنى الكتابة : " فإنا كتبنا لكم - كتب الله لكم من سماع البشائر ، ما يَعِدُ بتحويل الأحوال ... من قيجاطة ..." ثم يذكر موضوع الرسالة ويختم بالسلام .

امتازت رسائل لسان الدين بن الخطيب بالاطناب بشكل واضح وجليّ. فهو يطيل في المقدمة ، كما يُطيل في التحميدات والصلاة على الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -، وجُلّ مقاطع الرسالة، وفي جميع رسائله على تفاوت طولها من رسالة لأخرى، ومن غرض لآخر. ويلاحظ أن تحميداته غالباً ما تطول، خاصة في الموضوعات المتعلقة بالتهاني والفتوحات والبشاير، وما شاكل ذلك . فهذه تحميداته في رسالته التي بعثها إلى سلطان مصر يهنئه فيها باستعادة الاسكندريّة عام ٦٦٧هـ: (٢) " أمّا بعد حمد الله الذي جعل قلادة الإسلام على الدوام آمنة من الانخرام، والانتشار، مفصّلة النُظام بحَرْز المآثر العِظام والآثار، مُعرّف أهلها في حُزن البسيطة وسهلها، عوارف الصُنع المُثار، وإقالة العثار، القوي العزيز، الذي لا يُغالَب قدره بالاحتشاد والاستكثار، ولا يبدّل غيبه المحجوب، بعدما عين حُكْمَه للوجوب في خزائن الاستبشار، حتى تظهر خبيئة عنايته بأوليائه، المُعترفين بآلائه بادية للأبصار، فيما قرُب وبعُد من الأعصار، ورحمته عند الاستغاثة به والانتصار، في مختلف الأقطار والأمصار، الولي الذي لا تكدر هبات فضله شروط الاعتصام، ولا يشين خطب حمده ضرائر الاقتصاد والاختصار، والصلاة على سيدنا ومولانا نخبة الأكوان وسر الدهور والأزمان، وفائدة الأدوار، نور الله المتميّز باختصاصه، واستصفائه واستخلاصه ، قبل خلْق الظلمة والأنوار، ورحمته الشاملة الهامية، الهائلة على الهضاب والوهاد، والنِّجاد والأغوار، وأقرب عوالم الشهادة والخلْق إلى حضرة الحق، على تعدد الرتب وتفاضل الأطوار، منقذ الناس من البوار، ومبوئهم من جوار الله خير الجوار، نبي الرحمة والجهاد والغوار، المنصور على الأحزاب، عندما استداروا بمثوى نبوّته على الأُطم والأسوار دَوْر السّوار، الواعد عن ربه بظهور دينه الحق على الأديان، فمهما أوقدوا ناراً، تكفل الله بإطفاء النار، وإخماد الأوار . والرُضا عن آله وأصحابه حماة الذمار،

---

١ - الاحاطة ٢ : ٤٦٦ - ٤٧٣

٢ - الرّسالة موجود في ريْحانة الكُتّاب ١: ٢٩٥-٣٠٣، صُبح الأعشى ٨: ١٠٨-١١٨ .

ومقتحمي الغمار، وباذلي كرام الأموال من دونه، ونفائس الأعمار، القائمين في سما مِلّته للاهتداء بسننهم والاقتداء بسننهم مقام النجوم الهادية والأقمار، ما صقلت مدارس النسيم سيوف الأنهار، وخجل الوردِ من تبسم البهار، وغازلت عيون زهر المجرة عيون الأزهار، وطرد أدهم الليل أشهبَ النهار."

وإذا أضفنا إلى هذه القطعة، قطعة أخرى من رسالة بعث بها إلى سلطان تونس، يشكره فيها على هدية بعثها، ويُخبره فيها عن جملة فتوحات منّ الله بها على المسلمين (١) يقول في تحميداته " ... أمّا بعد حمد الله الذي أخفى حكمته البالغة عن أذهان البشر، فعجزت عن قياسها، وجعل الأرواح كما ورد في الخبر تحنُّ إلى أجناسها، مُنْجد هذه الملة من أوليائه الجلّة، بمن يروض الآمال بعد شماسها، وييسِّر الأغراض قبل التماسها، ويعني بتجديد المودّات في ذاته، وابتغاء مرضاته، على حين إخلاق لباسها، الملك الحق واصل الأسباب بحولة، بعد انتكاث أمراسها، ومغني النفوس بطَوْله، بعدَ إفلاسها، حمداً يدر أخلاف النِّعم بعيد إبساسها، وينشر رِمَمَ الأعمال من ارماسها، ويقدِّس النفوسَ بصفات ملائكة السماوات بعد ابلاسها. والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله، سراج الهداية ونبراسها، عند اقتناء الأنوار واقتباسها، مطهر الأرض من أوْضارها وأدناسها، ومُصْطفى الله من بين ناسها، وسيد الرسل الكرام، ما بين شيثها وإلياسها، الآتي مهيمناً على آثارها في حين فترتها، وبعد نصرتها، واستيناسها، مُرْغِم الضراغم في أخياسها، بعد افترارها وافترَاسها، ومعفِّر أجرام الأصنام ومصمت أجراسها. والرضا عن آله وأصحابه، وعترته وأحزابه، حماة شرعته البيضاء وحرُاسها، وملقحي غراسها، ليوث الوغى عند احتدام مراسها، ورهبان الدُّجى تتكفل مناجاة السميع العليم، في وحشة الليل البهيم بإيناسها، وتفاوُح نواسم الأسحارِ، عند الاستغفار، بطيب أنفاسها. والدُّعاء لخلافتكم العليّة المستنصرية، بالصنايع التي تشعشع أيدي العِزّة القعساءِ من أكواسها. ولا زالت العصمة الإلهية كفيلة باحترامها واحتراسها، وأنباء الفتوح، المؤيدة بالملائكة والروح، رَيْحان جُلاّسها، وآيات المفاخر، التي ترك الأوّل للآخر، مُكْتَتَبة الأسفار بأطراسها، وميادين الوجود، مجالاً لجياد جودها وباسها، والعزُّ والعَدل منسوبين لفسطاسها وقسطاسها، وصفيحة النصر العزيز تفيض كَفُّها المؤيدة بالله على رياسها، عند اهتياج أضدادها، وشِرة انتكاسها، بانتهاب البلاد وانتهاسها، وهبوب رياح رياحها، وتمرّد مرداسها.

---

١ – الرسالة موجودة في : الإحاطة ٤: ٥٦١– ٥٨٨ ، ريحانة الكتّاب ١: ١٧٩ – ٢٠٢ ، العبر ٩٥٩–١٠١٨ ، التعريف بابن خلدون ١٥٥–٢٠٨ ، نثير فرائد الجمان ٢٥٦–٢٨٨، صبح الأعشى ٦: ٥٣٦–٥٥٩ .

فإن كتبناه إليكم – كتب الله لكم من كتاب نصره أمْداداً، تذعن أعناق الأنام، لطاعة ملككم المنصور الأعلام عند احساسها، وآتاكم من آيات العنايات آية تضرب الصخرة الصمّاء ممن عصاه بعصاها، فتبادر بانبجاسها، من حمراء غرناطة – حرسها الله– وأيام الإسلام، بعناية الملك العلام، تحتفل وفود الملائكة الكرام، بولائمها وأعراسها، وطواعين الطعان، في عدو الدين المعان، وتجدد عهدها، بعام عُمْواسها. والحمد لله حمداً مُعاداً، يقيد شوارد النعم، ويستدرُ مواهب الجود والكرم، ويؤمن من انتكاب الجدود، وانتكاسها، وليّ الآمال ومِكاسها، وخلافتكم المثابة التي يُزْهى الوجود بمحاسن مجدها، زَهْو الرياض بوردها وآسها، وتستمد أضواء الفضائل من مقبّاسها، وتروي رواة الإفادة والإبادة، غريب الوجادة، عن ضحاكها، وعباسها" .

يتضح في القطعتين الماضيتين ، أن لسان الدين ذو مقدرة كبيرة على الاطناب المسرف، وما ينطوي عليه من لف ودوران، حول الموضوع في حشدٍ كثيرٍ من الألفاظ والعبارات للدلالة على مفهوم واحد ، والإكثار من الفقرات المتباينة ، شرحاً للفكرة، وتوضيحاً لها.

وثمة ظاهرة أخرى تبرز في أسلوب لسان الدين، وهو اعتماده على السجع، وتدبيج رسائله فيه، والتفنُن في ضروبه والإطالة في تركيب سجعته، فهو في القطعة الأولى اعتمد حرف الراء مسبوقاً بحرف الألف روياً لسجعته، وفي القطعة الثانية حرف الهاء مسبوقاً بحرف السين، وقد أطال النَفس في اعتماده على حَرف واحدٍ للقطعة الواحدة. بالإضافة إلى الاطناب في بناء سجعته. وحتى لا يَمَلُ القاريء من هذا الاطناب، اعتمد في بناء سجعته على استخراج سجعتين داخليتين من السجعة الواحدة. ففي القطعة الأولى : " .... والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله، نُخبة الأكوان وسر الدهور والأزمان، وفائدة الأدوار، نور الله المتميّز باختصاصه، واستصفائه واستخلاصه، قبل خلقه الظلمة والأنوار".

وفي القطعة الثانية تظهر بشكل مُطّرد فلا تكاد تمرُ جملةٌ إلا وأعمل فيها هذا الضرب من السجع : " ... وييسر الأغراض قبل التماسها، ويعني بتجديد المودات في ذاته، وابتغاء مرضاته، على حين اخلاق لباسها.... والرضا عن آله واصحابه، وعترته وأحزابه، حُماة شرْعَته البيضاء، وحُرّاسها".

كما يظهر في القطعة الثانية سِمة أخرى في بناء سجعته، فإنه اعتمد أسلوب التناوب أو السجع المزدوج – إن صحّ هذا التعبير– في الحروف التي يعقدها لسجعته، فهو يبدأها –مثلاً– على حرف الراء ، وفي الجملة التالية على الهاء : "أما بعد حمد الله الذي أخفى حكمته البالغه عن أذهان البشر. فعجزت عن قياسها. وجعل الأرواح كما ورد في الخبر تحن إلى أجناسها". وفي موضع آخر يراوح بين حرف الهاء مسبوقة باللام، وحرف الهاء مسبوقة بالسين " ... الملك الحق، واصل الأسباب بَحوله، بعد انتكاث أمراسها، ومغني النفوس بطَوله، بعد افلاسها". ثم يسير

إلى تركيبة أخرى في بناء سجعاته، فمع تناوب الحروف في السجعة الواحدة ، نجده يمضي إلى أسلوب أكثر تعقيداً ،فيستخرج سجعتين داخليتين، مع المحافظة على تناوب الحروف :"... ليوث الوغى عند احتدام مراسها، ورهبان الدُجى، تتكفل مناجات السميع العليم، في وحشة الليل البهيم، بإيناسها"، فهو راوح في كلمتي الوغى والدجى ثم أدخل العليم، والبهيم، ليعود إلى حرف الهاء المعقودة عليه السجعة الأصلية. ولربما جاء بثلاث سجعات داخلية، زيادة في التعقيد، واظهار أكبر قدرة على تعمّل السجع : "فإنا كتبناه إليكم ... من حمراء غرناطة – حرسها الله – وأيام الإسلام، بعناية الملك العلام، تحتفل الملائكة الكرام ، لولائمها وأعراسها." كذلك فعل في القطعة الأولى مبتدئاً تحميداته بها : " .... أما بعد حمد الله الذي جعل قلادة الإسلام على الدوام، آمنة من الانخرام، والانتشار، مُفصّلة النِّظام، بحرز المآثر العظام، والآثار".

وهكذا فإنه يكثر من التنوع في سجعاته، متنقلاً من حرفٍ لآخر مع المحافظة على رويٍّ واحد يجعله قَفلاً لكل تركيبةٍ من هذه التراكيب، حتى لا يفقد قارئه نشاطه. إلا أن هذه القوّة في التراكيب، تتلاشى شيئا فشيئاً، ولربما لا نجدها في آخر الرسالة،حيث يبدو التكلف ظاهراً مماهو عليه في بدايتها ، وقد لا يأتي بهذه التعقيدات في السجع، ويكتفي بالسجع المألوف البسيط.

وظاهرة أخرى في بناء سجعاته، إذْ يعتمد التلاعب اللفظي فيها، حيث يركب جملته من بعض الألفاظ، ثم يعيد صياغة هذه الجملة من الألفاظ ذاتها، لتُعطي معنىً آخر، مُبرزاً في ذلك مقدرةً على توليد المعاني بعضها من بعض ، فمثلاً يقول في رسالة عن سلطانه الغني بالله إلى سلطان المغرب، حين عودة ولده إليه، بعد أن استعاد ملكه عام ٧٦٣هـ (١) : "والحمد لله تعالى، حمداً يلهمه ويتيحه، نسأله إمداداً يسوّغه ويبيحه، على أن أحسن العقبى، وأعقب الحسنى، وأرى النعم بين فُرادى ومثنى". وفي رسالة أخرى يعلم فيها سلطان المغرب بوفاة أبي الحجّاج ، وتولية ولده الغني بالله يقول : (٢) " ... وإلى هذا وصل الله سعدكم وأبقى مجدكم، فإننا لما نعلم من مساهمة مجدكم. التي تقتضيها كِرام الطِّباع، وطِبَاع الكَرم، وتدعو إليها ذِمَم الرّعي، ورعيَ الذِّمم، نعرفكم ... لما كان من وفاة مولانا الوالد وما يتيسّر إلينا من أمره"، وفي موضوع آخر في رسالة إلى سلطان مصر بغرض التهنئة (٣) "... فإنا كتبناه لمثابتكم السلطانية ... من منزلنا بحمراء غرناطة، دار ملك الجهاد بجزيرة ثغر الأندلس –والى الله عنها الدفاع– ووصل لها بشرف مخاطبتكم الارتفاع والانتفاع، حتى تشفع بتهانيكم الأوتار، وتوتر الأشفاع". ففي المرة الأولى"أحسن العقبى،وأعقب الحسنى"،وفي المرة الثانية"كرام الطباع ، طباع الكرام" و"ذمم

---

١ – الرسالة موجودة في نفح الطيب ٦: ٣٤٠-٣٤٣

٢ – المصدر السابق ٤: ٤٢٤-٤٢٩ .

٣ – صبح الأعشى ٨: ١١٢ .

الرعى، ورعي الذمم" وفي المرة الثالثة " ...تشفع ... الأوتار ، وتوتر الأشفاع "إنه ضَرْب من التراكيب المتعمَّدة، والتي تعتمد على تبادل الألفاظ لمواضع بعضها، إلا أن التكلف واضحٌ في مثل هذه التراكيب، وإن كانت تنمُّ عن مقدرة على تطويع الألفاظ، واستلام ناصية اللغة والتمكن منها، وتوظيفها كيفما أراد .

لذلك فلسان الدين بأسلوبه المسجوع هذا والذي يمتاز بالاطناب أيضاً، لا يُلْحق شأوه، بل لقد هابه من لهم باعٌ طويل في الكتابة الديوانية ، أمثال ابن خلدون،فقد ذكر أنه كتب لابن الخطيب جواباً عن بعض الرسائل التي كان قد بعث له بها، يقول (١) : " فأجبْته عن هذه المخاطبات ، وتفاديت من السجع خشْيَة القُصُور عن مساجلته، فلم يكن شأوه يُلْحَق" .

كما كان لهاتين الخاصيتين عند لسان الدين-السجع والاطناب- عند علماء المشرق آراء متباينة، فمنهم من أشاد بها، ومنهم مَنْ غمَز من هذا الأسلوب،على الرُّغم من ثنائه على كتابته بمجملها. فقد ذكر المقري أن قاضي القضاة،برهان الدين الباعوني(٢) كتب على هامش بعض تآليف لسان الدين في الإنشاء ما نصه:"هذا بليغ إلى الغاية."وكتب إثره بعضُ أكابر علماء المشرق ما نصه : "هذا خط العلامة قاضي القضاة برهان الدين الباعوني، وهو شديد الاعتناء والمدح للمصنف ابن الخطيب الأندلسي مُعظِّم له ولإنشائه، وهو خليق بالتعظيم، جديرٌ بمزيد التمجيد والتكريم، فكيف لا وهو شاعرٌ مُفْلِق وخطيب مِصْقع، وكاتب مترسِّلٌ بليغ، لولا ما في انشائه من الإكثار الذي لا يكاد يخلو من عثار، والاطناب الذي يُفْضي إلى الاجتناب، والاسهاب الذي يقدُّ الإهاب، ويورث الالتهاب" .(٣) فقد عاب على لسان الدين مَيْله إلى الاطناب، والاكثار في كتابته.

وكما كان لسان الدين مجيداً في أسلوبه المسجوع. فقد كان اسلوبه المُرْسل لا يقلُّ درجةً عنه، فقد كان كاتباً فذاً يستطيع أن يكتب بالأسلوب المرسل بمقدرة كبيرة، وإن كان هذا الأسلوب نادر الاستعمال في ذلك الوقت ، كما يذكر في تقديمه لإحدى رسائله حيث يقول: (٤) "ولما وصل

---

١ - التعريف بابن خلدون ١٢٣ .

٢ - هو إبراهيم بن أحمد بن ناصر بن عبد الرحمن البرهان أبو اسحاق الناصري الباعوني الدمشقي، ولد بصفد ٧٧٧هـ ، ولي الخطابة غير مرة، نعته المقري بقاضي القضاة مع أنه رفض تولي هذه الخطة ، برع في فن الإنشاء وصناعة الأدب والترسل والنظم والنثر، بحيث أنه لم يكن في زمنه من يدانيه.

توفي ٢٤ ربيع ١/ ٨٧٠هـ . انظر ترجمته في الضوء اللامع ١: ٢٦-٢٩ ، البدر الطالع ١: ٨ .

٣ - نفح الطيب ٦: ٢٦.

٤ - رَيحانة الكُتّاب ١: ١٥٢ ، والرسالة فيها ١: ١٥٢-١٥٩ .

السلطان -أيده الله- من غـزاة أُطْريرة (١)، بعد استفتاح حصن أشر (٢)... صدر عني في التعريف بذلك لسلطان المغرب ، وهو من الكلام المرسل الذي قلّما أُلوي على سَجْع ، ولا وقـف على قافية، لشفوف هذا الغرض في هذه الأقطار".

يقول في هذه الرسالة "أما بعد حمد الله الملهم المنعم، العلي الكبير، الولي النصير، محرك العزايم، بباعث الإسلام، ومكيف الصنايع الخفيات على الأذهان، الموفّق للخير، المُعين عليه، الولي الحميد، الذي لا ملجأ منه إلا إليه، ناصر المؤمنين، ومُظْهر دينه على رُغم الجاحدين، وكُره الكافرين .... فإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم سني الحظ وهني الفتح، بعد الاعتراف بدولتكم بيُمن الطير، ونُصبْة السعد، ونفاق سوق الصُنع بهذا القطر، والله مُتمّم الفضل، ومجدّد عـــادة اللُطف"وهكذا يسير على هذا النسق الخالي من التنميق والسجع الذي لا يأتي إلا عفو الخاطر .

كما كتب أيضاً في هذا الأسلوب بين يدي سلطانه كتاب أمان للرعية بعد القضاء على ثورة علي بن نصر عام ٧٦٣هـ (٣) يقول في ذلك: (٤)"... وكان مما أمليته يومئذ بين يدي السلطان من الكلام المُرسل ما نصُه : هذا كتاب كريم أصدرناه بتوفيق الله، شارحاً للصدور، ... يعلم من سمعه أو يقف عليه ويقرأه، ويتدبّر ما لديه، ما عاهدنا عليه الله، من تأمين النفوس، وحقن الدماء، والسير في التحامي عنها، على السنن السواء، ورفع التثريب، عن البعيد فيها والقريب، والمساواة في العفو عنها، والغفران بين البري والمريب، وحمل من يظن أنه ينطق بعين العداوة في باطن الأمر وظاهره مُجمل الحبيب، وتَرك ما يُتوعّد بها من المطالبات . ورفع التّبعات، مما لا يُعارض حُكماً شرعياً، ولا يناقض سبباً في الدين مرعياً".

وميزة أخرى تظهر في أسلوب لسان الدين ، من حيث دقة الوصف والإحاطة بموصوفاته، مما يؤدي إلى الاطناب أيضاً، ففي الرسالة التي بعثها لصاحب تونس، بعد أن وصف الخيل التي بعثها للأندلس بشكل مُجْمل، وشرع في وصف كل واحدٍ منها، واصفاً ألوانها، وسرعتها، وجمال خِلقتها، يقول : " من كل عبل الشوا، سابق للنجم إذا هوى، سامي التّليل، عريض ما تحت الشّكّيل، ممسوحة أعطافه بمنديل النسيم البليل. من كل أحمر كالمدام، تجلى على النّدّام بعد الفدام، أتحف لونه بالورد، في زمن البرد، وحُيّيَ أُفُق مُحيّاه بكوكب السعد، وتشوّف الواصفون إلى عد محاسنه، فأعيت على العدّ، بحر يساجل البحر،عند المدّ، وريح تباري الريح عند الشدّ، بالذراع الأشدّ، حكم له مدبر فلك الكَفَل باعتدال فصل القدّ، وميّـزه قَدْرُه المميز يوم

---

١ - مر التعريف بها . ٢ - مر التعريف بها . ٣ - انظر هذه الفتنة بالاحاطة ٢ : ٦٥ - ٦٦

٤ - ريحانة الكتّاب ٢ : ٥٧ - ٥٩ ، نفح الطيب ٧ : ٣٩٠ - ٣٩١ .

الاستباق، بقَصَب السّباق، عند اعتبار الجَدّ، وولد مختّط غرته وأشكال الجمال، على الكمال، بين البياض والحُمْرة، ونقاء الخدّ، وحفظ رواية الخُلُق الوجيه، عند جده الوجيه، ولا تنكر الرواية على الحافظ بن الجدّ .(١)

وأشقر أبي الخَلْق، والوجه الطَّلق، أن يُحقّر، كأنما صيغ من العسْجَد، وطُرّف بالدُّر، وأُنعل بالزّبَرْجَد، ووُسِم في الحديث بسمَة اليُمْن والبركة، واختصّ بفَلْج الخصام عند اشتجار المعركة، وانفرد بمضاعف السّهام، المنكسرة على الهام، في الفرائض المُشْتركة، واتصفت فلَك كَفَله بحركتَي الإرادة والطَّبْع، من أصناف الحركة، أصغى إلى السماء باذن المُلْهَم، وأغرى لسان الصهيل- عند التباس معاني المُهْمَز والتسهيل- ببيان المُبْهم، وفُتِنَت العيون، من ذهب جسمه ولُجَين نَجْمه، بحب الدّنير والدّرهم، فإن انقضّ فرجم، أو ريح لما هَجَم، وأن اعترض فشفق لاح به للنجم نجم .

وأصفر قَيْد الأوابد الحُرّة،وأمسك المحاسن،وأطلق الغُرَّة، وسُئِل مَنْ أنتَ في قَواد الكتايب، وأولي الأخبار العجايب، فقال أنا المهلّب بن أبي صفرة،(٢) نرجس هذه الألوان، في رياض الأكوان، تحيا به محيّا الحرب العوان،أغارَ بنخوة الصائل عن مُعَصفَرات الأصايل، فارتداها، وعمد إلى خيوط شعاع الشمس،عن جانحة الأمس،فالحم منها حُلّته وأسداها، واستَعَدت عليه مُلْك المحاسن فما أعداها،فهو أصيل، تمسك بذيل الليل عَرْفه وذَيْله،وكوكب يطلعه من القتام ليله،فيحسده فرقد الأفق وسهيله...".ويستمر على هذا النسق حتى يأتي على أوصاف الخيول جميعها،الأشهب، والأبيض،والقرطاسي،حاذياً في ذلك حذو ما وصف به الخيول الآنفة الذكر.والمستقريء لهذه الأوصاف،يجد أنه تفنن في حَشْد كثير من العبارات لتعطى صورة واضحة عن الموصوف،فقد أطال في الوصف ومَدَّ في أطرافه.مُبْدياً براعة في التصوير،ومقدرة على الرسم بالكلمات،لكن منظر المعاني ينبسط أمام القاريء انبساطا يخرجها من حيّز التنوع إلى حيز الاستمرار والإملال (٣)، "فكانت الإجادة في الكتابة عنده في الإحاطة والاطناب"(٤).

---

١ – هو محمد بن عبد الله الفهري يكني أبا بكر، ويعرف بابن الجد، ولد عام ٤٩٦هـ، في لبلة، ثم استوطن اشبيلية، وعاصر ابن رشد وأبا بكر المغربي، توفي عام ٥٨٦هـ، انظر ترجمته في الديباج المذهب ص ٣٠٢ .

٢ – أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة الأزدي، له حروب كثيرة مع الخوارج ، ظهرت فيها شجاعته . انظر ترجمته في ابن خلكان ، أبو العباس ، شمس الدين أحمد بن محمد ٦٨١هـ ، وفيات الأعيان ، وأنباء ابناء الزمان ، تحقيق د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ٢ : ١٩١-١٩٥

٣ – الفن ومذاهبه في النثر العربي ٣٣٤ .

٤ – د. محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب الأندلسي، التطُّور والتجديد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢ ص ٦٤٠

وميزة أخرى ينماز بها أسلوب لسان الدين، من حيث استعماله المصطلحات العلمية والنحوية واللغوية في تراكيبه، وعلى الرغم من قِلّة اعتماده عليها، إلا أنها ظاهرة موجودة في رسائله. ونستطيع أن نستبين هذه الظاهرة في ثنايا رسالته إلى سلطان تونس. فمثلاً يصف القلم الذي خَطّ الرسالة التي وردت من سلطان تونس برفقة الهدية. " وأكرم به من حكيم أفصح بملغوز الإكسير، في اللفظ اليسير، وشرح بلسان الخبير، سرّ صناعة التدبير، كأنما خدم الملكة الساحرة، بتلك البلاد، قبل اشتجار الجلاد، فآثرت بالطارف من سحرها والتّلاد، أو عثر بالمعلّقة، وبتلك القديمة المُطلّقة، بدفينة دار، أو كنز تحت جدار، أو ظفر لباني الحنايا قبل أن تقطع به من أمانيه المنايا" إنه أورد مصطلحات علمية بحتة فقد أتي بالإكسير وهو الكيمياء، (١) " وأهل الصناعة تسمية الحجر الأكرم" (٢)، وملح الإكسير "هو الدواء الذي إذا طبخ به الجسد المذاب جعله ذهباً، أو فضة أو غيره، على البياض أو الصفرة" (٣). وثمة اصطلاح نحوي في هذه الرسالة فبعد أن عدد الخيول مع ذكر أوصافها، بيّن أن ذكرها على هذا النحو لا يعني أن مَنْ ذُكِرَ أولاً خيْرٌ من اللاحق ، موريـاً باستعماله الواو حرفاً للعطف الذي لا يفيد الترتيب بين المعطوفات على رأي النحاة :"... وقلنا : الواو لا ترتب، ما بين فَحْلٍ وحرّة، وبهرمانة ودرة".

وفي موقع آخر جاء بالمصطلحات التي تختصُّ بعلمي الموسيقى، والحساب، " ... وقد أسرج بن سريج (٤) وألجم وأفْصح القريض بعدما جمجم، وأعرب الناي الأعجم،ووقّع معبد (٥) بالقضيب، وشرعت في حساب العِقْد بَنَان الكفّ الخضيب، وكأنّ الأنامل فوق مثالث العود ومثانيه، وعند إغراء الثقيل بثانيه ، وإجابة صدى الغناء بين مغانيه ." فحساب العقد نوع من

---

١ – الزبيدي: محمد مرتضى ، تاج العروس من جواهر القاموس، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بن غازي ، مادة كسر ، يقول ايضاً : " ولأهل الصنْعة في الإكسير كلام طويل" .

٢ – شهاب الدين الخفاجي ، محمود بن محمد بن عمر، ١٠٦٩هـ شفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل، تحقيق د. محمد عبد المنعم الخفاجي ، المطبعة المنيرية بالأزهر ، ط ١، ١٩٥٢، ص ٤٠ .

٣– محمد بن أحمد بن يوسف ، ت ٣٨٧هـ، مفاتيح العلوم، تحقيق إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب ، بيروت ، ط٢، ١٩٨٩، ص ٢٨٤

٤ – هو عُبَيْد بن سُريج يكنى أبا يحيى، كان مغنياً مشهوراً، وكان لا يغنّي إلا مُقنّعاً لأنه أحول، غنّى في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ،ومات في خلافة هشام بن عبد الملك،عن عمر يناهز ٨٥ عاماً ، وهو أول من ضرب على العود الفارسي على الغناء العربي. انظر ترجمته عند : أبي الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين، الأغاني، مصور عن طبعة دار الكتب المصرية، ١: ٢٥١ .

٥ – هو مَعْبد بن وهب ، غنى في أول دولة بني أمية ، وأدرك دولة بني العباس كما قيل، وهو إمام أهل المدينة في الغناء، وكان من أحسن الناس غناءً ، وأجودهم صنعةً، ترجمته في الأغاني ١ : ٣٦–٥٩ .

الحساب يكون بأصابع اليد .(١) والمثالثُ والمثاني هن أوتار العود (٢)، ومصطلح الثقيل يختص بالموسيقى ، بكيفية إيقاع الموسيقى من العود.

وحين وصف أحد الخيول -الأشقر- ذكر حركة كَفَله بقوله : " واتفق فلك كفله بحركتي الإرداة والطبع من أصناف الحركة" . والطبع ما يقع على الإنسان بغير إرداة(٣)، أو هو الجِبِلّة التي خُلِق الإنسانُ عليها، أما الإرداة ، فعند الصوفية حجب النفس عن مراداتها، وعند أهل الحكمة " صيغة توجب للحي حالاً يقع منه الفعل على وجه دون وَجه". (٤) وهكذا نجده يبث هذه المصطلحات متفرقة بين الفَيْنة والأخرى في ثنايا الرسالة.

فأما صوره التي يسوقها في رسائله ، فإنها تتسم بالحركة، والمستقريء لكثير من هذه الصور، يعيش وضعاً متحركاً غير ساكن، يدخل في أعماق النفس، ولا يقتصر على الوَصْف الخارجي. فهو في الرسالة ذاتها التي أرسلها إلى سلطان تونس يصف الصورة التي كانت عليها حالة جيش المسلمين بعد العودة من غزو قرطبة : "... وعُدنا والبنود لا يعرف اللّف نَشْرَها، والوجوه المجاهدة لا يُخالط التقطُّب بِشرها، والأيدي بالعروة الوثقى مُعتلقة، والألسُن بشكر نِعَم الله مُنْطلقة، والسيوف في مضاجع الغمود قَلِقَة، وسرابيل الدروع خَلِقة، والجياد من ردّها إلى المرابط والأواري، ردّ العواري، حنقِة، وبعبارات الغيظ المكظوم مُختنقة، تنظر إلينا نظر العاتب، وتعود من ميادين المراح والاختيال تحت حلل السلاح، عَوْد الصبيان إلى المكاتب، والطبل بلسان العزّ هادر ، والعزمُ إلى منادي العَوْد الحَميد مبادر، ووجود نوع الرماح ، من بعد ذلك الكفاح نادر، والقاسِم ترتّب بين يديه من السبي النوادر، ووارد مناهل الأجور غير المُحلاّ، ولا المهجور، غير صادر، ومناظر الفضل الآتي ، عقب أُخَيّه المتأتّي على المطلوب المواتي، مصادر، والله على تيسير الصعاب، وتخويل المنن الرِّغاب، قادر".

---

١ - البغدادي ، عبد القادر بن عمر ١٠٩٣ هـ ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ٣: ١٤٧ . ويقول في حساب العقد: وألفوا فيه كتباً وأراجيز، منها أرجوزة أبي الحسن الشهير بابن المغربي، ومنها في عِقْد الثلاثين :

واضْمُمْها عند الثلاثين تُرى كقابضِ الإبْرَة من فَوْق الثّرى .

٢ - انظر ذلك في كتاب الأغاني الجزء الأول في مواضع متفرقة ، وفي مفاتيح العلوم ص ٢٦٠، يقول: إن أوتار العود أربعة أغلظها البَمْ والذي يليه المَثْلَثْ بفتح الميم وتخفيف اللام، والذي يلي المَثْلَث المَثْنى بفتح الميم وتخفيف النون .والرابع هو الزير وهو أدقّها. كما ورد أيضاً أصوات العود والنغمات في هذا المصدر ص ٢٦٢-٢٦٤ .

٣ - الجرجاني،علي بن محمد الشريف الجرجاني، ت٨١٦هـ، التعريفات،تحقيق د.عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة ص ١٥٩

٤ - المصدر السابق ٢٦ .

إن خبرة لسان الدين بن الخطيب في ديوان الإنشاء، وموهبته الفنية الفذة في القدرة على الترسل، وطول خدمته في بلاط بني نصر، وتقلبه في الوظائف الإدارية والسياسية -التي أتاحت له الاتصال بمشاهير كتاب عصره، والاطلاع على الرسائل الديوانية للدول الأخرى من خلال أساليبها، وطرائقها الذي تمثلها، قد آتت أكلها، من حيث انضاج الرسالة الديوانية في الأندلس، حتى أصبحت المثال الواجب احتذاؤه. ولا غرابة أن قلت: إن لسان الدين بن الخطيب هو الذي على يديه استقامت الرسالة الديوانية في الأندلس على سوقها (١).

---

١ - انظر الرسالة المنسوبة إلى السلطان محمد الأحنف مؤرخة في ٨٥٥هـ.

والرسالة المرسلة من السلطان سعد بن الأحمر، وطريقة بنائها، وتناول موضوعاتها مؤرخة في ٨٦٨هـ في كتاب المماليك والفرنج ١٨١ - ١٨٤ و ١٩١ - ١٩٩.

أبو عبد الله بن زمرك

هو "محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف بن محمد الصريحي، يُكنى أبا عبد الله ويُعرف بابن زَمْرَك".(١) وقد أُختُلف بضبط "زمرك" فضبطه ابن خلدون بفتح الزاي والميم وسكون الراء تارة (٢)، وفتح الزاي والرّاء وسكون الميم -وهو الأرجح- تارة أخرى (٣)، أما غرسياغومس (٤) فقد رَجّح ضَبْطه بفتح الزاي والرّاء ، مع احتمال ضمهما. أما الدكتور أحمد سليم الحمصي (٥)، فقد ضبطه بضم الزاي وسكون الميم وفتح الراء "زُمْرَك"، في حين ضبطه الدكتور محمد عبد الله عنان (٦) بفتح الزاي والرّاء وسكون الميم.

وُلد ابن زمْرَك في غرناطة في الرابع عشر من شوال سنة ثلاثٍ وثلاثين وسبعماية.(٧) وقد أعاد لسان الدين الخطيب نسبه إلى عائلة الصريحي التي عدّها من العائلات العربية، التي يُستَشهد بها على أصالة المجتمع الغرناطي وعروبته، فقد قال في طبيعة تكوين المجتمع الغرناطي (٨): " ... يكثر فيه القُرشيُ، والفهريُ، والأمويُ ... والصريحيّ ... وكفى بهذا شاهداً على الأصالة، ودليلاً على العروبية".

أما نسبه الأدنى فيحدثنا عنه عليّ بن لسان الدين بن الخطيب ، في تعليقه على هامش ترجمه ابن زمرك في الإحاطة، من أنّ والد ابن زمرك كان حدّاداً بالبيازين، وأنّ بيته بالأندلس من البيوت الوضيعة (٩). إلاّ أنّ هذه الرواية تدور حولها الرِّيبة، من حيث وضاعة بيت ابن زمرك، ولا غرابة في ذلك، إذا ما عُرفت العلاقة التي تربط بين الاثنين ، بسبب ضلوع ابن زمرك في محنة لسان الدين بن الخطيب ، والسّعي في قتلة.

---

١ - الإحاطة ٢: ٣٠٠، وفي نفح الطيب ٧: ١٤٥، وأزهار الرياض ٢: ٧ ، ونيْل الابتهاج ٢٨٢، لم يذكر محمد قبل الصريحي، كما نقل المقري اسمه عن كتاب ألفه يوسف الثالث أبو الحجاج سلطان غرناطة سمّاه "البقية والمُدْرك ، من كلام بن زمرك" أن اسمه : " محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف، يُعرف بابن زمرك " وفي نثير فرائد الجمان ٣٢٦-٣٢٧ " أبو عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك الفرضي الأغرناطي". وربما كانت هذه الاختلافات في ذكر تسلسل النسب يعود سببه إلى الاختصار .

٢ - التعريف بابن خلدون ٢٢٦ . ٣ - المصدر نفسه ٢٦٢ . ٤ - إميليو غرسيا غومس، مع شعراء الأندلس والمتنبي، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٩٧٤م، ص ٢٣٧.

٥ - د. احمد سليم الحمصي، ابن زمرك الغرناطي؛ سيرته وأدبه، مؤسسة الرسالة، ودار الإيمان، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص ٨٤ . ٦ - نهاية الأندلس ١٤٥ .

٧ - الإحاطة ٢: ٣١٤، نفح الطيب ٧: ١٦٩، أزهار الرياض ٢: ١٠، جذوة الاقتباس ١: ٣١٤ .

٨ - الإحاطة ١: ١٤١ . ٩ - نفح الطيب ٧: ١٦٠-١٦١ .

وتحدثنا الروايات التي بين أيدينا أن أسلافه قد استوطنوا شرقيّ الأندلس، ثم رحلت عائلته إلى غرناطة، وسكنت ربض البيّازين، وبه وُلد أبو عبد الله، ونشأ. (١) ولربما كانت عائلته فقيرة، فقد سكنت حي البيازين الذي يُعدُّ حيّاً شعبياً كبيراً، يسكنه اصحاب المهن. (٢) ومع ذلك فقد نشأ "كالشهاب يتوقّد"(٣) شغوفاً بالعلم، مُحباً له منذ نعومة أظفاره، أبدى مواهب نادرة في تلقيه للعلوم، ومواظبة على حضور حلقات الدّرس، "مصابح كُلَّ يوم أعلام العلوم". فقد بدأ تعليمه على "مكتّب الفئة القرآنية" (٤) الذي قربّه إلى جانبه، (٥) لِمَا أبداه من ذكاء ونقاء قريحة، وتوقُّد ذهن ، وهذه سمات اتّصف بها، نالت اعجاب شيخه ابن الخطيب الذي قال عنه : (٦) "هذا الفاضل صَدْرٌ من صدور طلبة الأندلس، وافراد نجبائها ... شَرِه المذاكرة ... شعلة من شعل الذكاء، تكاد تحتدم جوانبه".

تتلمذ –بعد ذلك – على خيرة عُلماء عصره، (٧) وقد نهل من علمهم الغزير، ما جعله عَلَماً من أعلام ذلك العصر، في تحصيله الثقافي والمعرفي؛ فقد قرأ العربية، نحوها وفقهها على "رحلة الوقت في فنّها" (٨)، أبي عبد الله بن الفخّار، (٩) وأبي القاسم الحُسني (١٠) إمام الفنون اللّسانية" (١١) والأستاذ المُفتي أبي سعيد بن لُبّ، (١٢) وقرأ الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزواوي، (١٣)، ودرس مناهج الصوفيّة على ابن مرزوق (١٤) حين قدم غرناطة

---

١ – الإحاطة ٢: ٣٠٠، نفح الطيب ٧: ١٤٥ .

٢ – يقول القلقشندي في صبح الأعشى ٥: ٢٠٧، إنّ حيّ البيازين "كثير العمارة، يخرج منه خمسة عشر ألف مقاتل ، وهو ربض مستقل بحكامه، وقضاته، وغير ذلك ".

٣ – أزهار الرياض ٢: ١٤ .

٤ – المكتّب ، هو الذي يعلّم الصِّبيان الكتابة، قال الحسن البصري "وكان الحجّاج مُكتباً من الطائف، أي معلماً". انظر تاج العروس مادة "كتب".

٥ – أزهار الرياض ٢: ١٤.   الإحاطة ٢: ٣٠١ .

٧ – ذكر شيوخ ابن زمرك في الإحاطة ٢: ٣٠٢–٣٠٣، نفح الطيب ٧: ١٤٧، أزهار الرياض ٢: ٩.

٨ – الإحاطة ٢: ٣٠٢ .   ٩ – تقدمت ترجمته .

١٠– تقدمت ترجمته .   ١١– الإحاطة ٢: ٣٠٣ .   ١٢– تقدمت ترجمته .

١٣– هو العلاّمة المُفتي أبو علي منصور علي بن عبد الله الزواوي، ذو الرُّتبة العليا في العلم والدين، والتقلُّل من الدُّنيا، والحِذْق بالفُتيا، مع الخط البارع ، والنظم الرائق والكتابة غير المتأخرة عن الطبقات النبيلة انظر ترجمته في بُغية الروّاد ١: ١٣٢، نيل الابتهاج ٣٤٥–٣٤٦.

١٤– تقدمت ترجمته .

عام ٧٥٣هـ، "واختص به" (١). وروى عن جملة من الشيوخ منهم القاضي أبو البركات بن الحاج،(٢) والخطيب أبو عبد الله اللوشي، (٣) والمقريء أبو عبد الله بن بييش (٤)، ودرس الأدب على شيخ عَصره لسان الدين بن الخطيب، وبرع فيه ، وانضوى فترةً إلى شيخ الصوفيّة أبي جعفر بن الزيّات.(٥) ثم "أعمل الرّحلة في طلب العلم والازدياد"(٦) إلى عدوة المغرب، وقرأ بعض العلوم العقلية بمدينة فاس على الشريف الرُّحلة الشهير أبي عبد الله العلوي التلمساني (٧). "واختص به اختصاصاً ، لم يخلُ فيه من إفادة مِران، وحُنكةٍ في الصناعة". (٨)

كما كان ابن زمرك يتابع ما يصدر عن العلماء المشارقة والمغاربة من مؤلفات، فيستزيد منها، مُبدياً حُبّاً جماً لمصادر العلم والمعرفة، للوقوف عليها في مظانّها، فقد ذكر ابن خلدون أنه وصلته رسالة من ابن زَمْرك ، وهو في مصر، طلب منه أن يرسل له "ما أمكن من كلام الفضلاء، وأشياخهم، على الفاتحة". (٩)

وبعد أن نهل من هؤلاء العلماء الأفذاذ، ورأى في نفسه ما يؤهله للتدريس " نصب نفسه للناس متكلماً فوق الكرسي المنصوب ، وفوق المحفل المجموع ، مُستظهراً بالفنون التي بَعُد فيها شأوه من العربية ، والبيان واللغة ، وما يقذف به في لُجّ النقل من الأخبار والتفسير".(١٠)فكانت"... محاضراته الأدبية جميلة(١١) ، "وآدابه مستميلة ". (١٢) وقد

---

١ – أزهار الرياض ٢: ١٥ .　　٢ – تقدمت ترجمته .

٣ – هو الفقيه الكاتب محمد بن محمد بن عبد الله اللوشي الغرناطي، يكنى أبا عبد الله، شاعر مدّاحاً ، نشأ مدللاً في حجور الدولة النّصريّة، وله أدب بلغ في الإجادة الغاية، وقد أقبل على الزهد أخريات حياته، مولده حدود ٦٧٨هـ، وفاته ٧٥٢هـ، الإحاطة ٢: ٢٦٩-٢٧٢، نثير فرائد الجُمان ٣٢٩، الكتيبة الكامنة ١٧٥-١٧٧ .

٤ – هو عبد الله بمحمد بم محمد بن بييش العَبْدري ، ولد في حدود ٦٨٠هـ، شيخ قديم الطلب، ومعلّم مُدرب ، معروف بانقباضه وصَوْنه، كان ضليعاً بالعربية، وله شعر لم يقصر فيه عن المدى ، وقد أثرى من التكسب بالكتب ، توفي بغرناطة عام ٧٥٣هـ. انظر ترجمته في : الكتيبة الكامنة ٩٠-٩٣، بغية الوعاه ١: ٢٣٣ ، نفح الطيب ٥: ٣٨٤-٣٨٥، ٦: ٢٤٤-٢٤٥.

٥ – تقدمت ترجمته .　　٦– الإحاطة ٢: ٣٠١-٣٠٢، نفح الطيب ٧: ١٤٦ .

٧ – هو الشيخ أبو عبد الله الشريف التلمساني صاحب "المفتاح في أصول الفقه" ، وشارح "الجمل الخونجية" ، وتوفي عام ٧٧٢هـ، ودفن في المدرسة اليعقوبية من تلمسان المحروسة . انظر نفح الطيب ٥: ٢٧٢ .

٨ – الإحاطة ٢: ٣٠٣ .　　٩ – التعريف ٢٧٢-٢٧٣ .

١٠ – الإحاطة ٢: ٣٠١، نفح الطيب ٧: ١٤٦ .　　١١ – نثير فرائد الجُمان ٣٢٨ .

١٢ – الكتيبة الكامنة ٢٨٣ .

قعد للإقراء بجامع مالقة ، وانحاز إلى حلقات دَرْسه " أممٌ طما منهم البحر، وتراءى لأبصارهم وبصائرهم الفخر". (١) ثم انتقل إلى غرناطة، فقعد للتدريس بها ، وكان السلطان يحضر حلقات درْسه فيسمع ما كان يلقيه بمسجد الحمراء، قال يوسف الثالث بن الأحمر ": (٢) ومِراراً عدّة سمع ما يلقيه وليُّ الأمر".

وقد ساعده في توافد الطلبة عليه، غزارة علمه،وسعة معارفه "فما شاءه المُحاضَر يجده في خضله(٣)، ويتلقاه من باهر فضله"(٤)، وحسن أخلاقه، وفكاهته، ومجالسه الممتعة، والإيثار بما لديه، "ومقابلة الناظر إليه بالاحتشام ... على طهارة وبذل، وكَرم نَفْس، لم يعهد أجمل مشاركة منه لإخوانه".(٥) وقد نعته ابن الخطيب بإنه : (٦) "مقبولٌ هَشٌ خلوب، عذب الفُكاهة، حلو المجالسة،... خفيف الرّوح، ... عفّاً، طاهراً". لذلك فقد أخذ عنه وأفاد منه كثير ،وقد ذكر المقري نقلاً عن صاحب الإشارات والإفادات قوله : (٧) " إفادة : أفادني عن صاحبنا الفقيه الكاتب أبي عبد الله بن زمرك إثر إيابه إلى وطنه، من رحلة العُدْوة، في علم البيان، فوائد أذكر منها الآن ثلاثاً: الفقه في اللغة، وهو النظر في مواقع الألفاظ، وأين استعملتها العرب، ... والثانية تحرّي الألفاظ البعيدة عن طَرَفي الغرابة والابتذال، فلا يُستدل بالحوشي من اللّغات، ولا المُبتذل في ألسنة العامّة، والثالثة اجتناب كلّ صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى، أو تشوّش عليه، إذ المقصود الوصول في بيان المعنى إلى أقصاه، الاتيان بما يحصّله سريعاً، ويمكّنه في الذهن، وتحرّي كل صيغة تمكّن المعنى، وتحرّض السامع على الاستماع".

لم يستمر ابن زمرك في التدريس طويلاً، فقد ولج عالم السياسة منذ صغره، وكان لابن مرزوق، ولسان الدين بن الخطيب فضل كبير عليه، فكان لملازمته ابن مرزوق أن وقع في نفسه، فأدْناه إليه، ففي أثناء مقامه بغرناطة، قدّمه إلى ولد سلطان المغرب أبي سالم إبراهيم بن السلطان أبي الحسن المريني، اللائذ وقتذاك بغرناطة، فتقلّد عنه الكتابة، (٨) ثم ألحقه لسان الدين ابن الخطيب، في إدارة الدولة بعد وفاة أبي الحجّاج يوسف الأوّل (٩)، وجعله في عداد الكتّاب.

وبعد الحادثة على الغني بالله عام٧٦٠هـ، هاجر كثير من العلماء والأدباء -خوفاً على

---

١ – نفح الطيب ٧: ١٦٨ . ٢ – المصدر نفسه ٧: ١٦٨ .

٣ – الخضل، اللؤلؤ الصافي الجيّد. انظر لسان العرب مادة "خَضَلَ" . ٤ – نفح الطيب ٧: ١٦٦ .

٥ – المصدر السابق ٧: ١٦٦ .

٦ – الإحاطة ٢: ٣٠١ . ٧ – نفح الطيب ٧ : ٢٧٩

٨ – نفح الطيب ٧: ١٦١، نقلاً عن علي بن لسان الدين في تعليقه على ترجمة ابن زمرك في الإحاطة ٢ : ٣٠٢

٩ – ابن زمرك سيرته وأدبه ٨٨ .

أرواحهم- إلى المغرب،(١) وكان ابن زمرك ممن هرب في تلك الحادثة، فاتصل بشيخه ابن مرزوق، وانتظم في جملة كُتّاب سلطان المغرب أبي سالم إبراهيم. (٢) فقد ذكر ابن الخطيب:(٣) أنه "ورد على السلطان أبي سالم ملك المغرب -رحمة الله تعالى عليه- وفد الأحابيش بهدية من ملك السودان، ومن جملتها الحيوان الغريب المُسمى بالزرافة ، فأمر من يعاني الشّعر من الكُتّاب بالنظم في ذلك الغرض، فقال وهي من بدائعه :

لولا تألق بارق التذّكار ما صاب واكف دمعي المدرارِ " .

واتصل أيضاً بسلطانه -الغني بالله- وكان مُلازماً له، مما جعله يأنس به "لحلاوة منطق، ورَفْع استيحاش، ومراوضة خُلُق".(٤) ومشاركة له في طلب المُلك. (٥) وأثناء عودة الغنيّ بالله لاسترجاع مُلكه، واحتلاله برندة عام ٧٦٢هـ(٦)، كان ابن زمرك مرافقاً له،فخصّه بكتابة سره،(٧)وحين عاد إلى غرناطة واستعاد مُلكه أقرّه على ما هو عليه،وأصدر له ظهيراً بذلك.(٨) "فَحَسُن منابه ، واشتهر فضله، وحَسُنت وساطته، ووسع الناس تخلّقه". (٩)

وبذلك يكون ابن زمرك دخل ميدان السياسة، مشاركاً فيها، معدوداً في رجال حاشية السلطان الأقوياء، وشعرائه المعدودين "فصدر عنه من المنظوم في أمداحه، قصائد بعيدة الشأو، في مدى الإجادة ... في الأغراض المتعددة، من القصائد، والميلاديات، وغيرها" (١٠).

وفي عام ٧٧٣هـ، هرب لسان الدين بن الخطيب إلى المغرب، وبعث لسلطانه رسالة يعتذر فيها عن ذلك ، (١١) وجَدَّ ابن زمرك مع القاضي أبي الحسن النباهي (١٢) في القضاء

---

١ - نفاضة الجراب ١٩ . ٢ - الإحاطة ٢: ٣٠٢ .

٣ - المصدر السابق ٢: ٣٠٦، والقصيدة ٢: ٣٠٦-٣٠٧ .

٤ - الإحاطة ٢: ٣٧-٣٨ . ٥ - اللمحة البدرية ١١٣، أزهار الرياض ١: ٢٠١ .

٦ - الإحاطة ٢: ٣٠٢، أزهار الرياض ٢: ٨-٩ .

٧ - انظر الظهير في : نفح الطيب ٥: ١٣٤، ريحانة الكتّاب ٢: ٨٤-٨٦، صُبح الأعشى ١١: ٢٤-٢٦ .

٨ - الإحاطة ٢: ٣٠٢، نفح الطيب ٧: ١٤٦، أزهار الرياض ٢: ٩ .

٩ - نفح الطيب ٧: ١٦٦.

١٠ - الإحاطة ٢: ٣٠٢ . ١١ - انظر الرسالة في التعريف بابن خلدون ص ١٤٧ - ١٥٢ .

١٢- هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي النُباهي البنّي ، ولد عام ٧١٣هـ، كان من أصدقاء لسان الدين بن الخطيب ، لكنه انقلب عليه ، وافتى بزندقته، كان أبو الحسن قاضي الجماعة بغرناطة، وهو من الأعلام المعدودين فيها، أثنى عليه ابن الخطيب في الإحاطة ، وعاد ولقبه بجعسوس في الكتيبة الكامنة، وألف فيه كتاباً سماه "خلع الرّسن في وصف القاضي أبي الحسن"ولأبي الحسن كتاب مطبوع أسمه " المرقبة العُليا، في من يستحق القضاء والفتيا". كان حياً عام ٧٩٢هـ. انظر ترجمته ، الإحاطة ٤: ٨٨، الكتيبة الكامنة ١٤٦-١٥٢، أزهار الرياض٢ : ٥- ٧ ، نيل الإبتهاج ٢٠٥، نفاضة الجراب ١٨٠ .

عليه والاستعجال بقتلة. وبعد هروب لسان الدين خلفه ابن زمرك في الوزارة، (١) واستعمله سلطانه في السفارة عنه، فقد ذكرابن خلدون (٢) أنه لقي ابن زمرك عام ٧٧٦هـ، وهو في طريقه إلى المغرب بغرض التهنئة للسلطان الجديد، والعزاء بالسلطان السابق، سفيراً عن سلطانه. ويبدو أن هذه السفارة –وإنْ كانت بغرض التهنئة– تشمل تنفيذ الحكم بلسان الدين الخطيب، وليِّ نِعمته وسبب جاهه ونعيمه. وقد قام ابن زمرك بسفارته خَيْر قيام، حيث حوكم ابن الخطيب، وقُتِل ، وهذه غاية كانت تراود الغني بالله منذ هروب ابن الخطيب. فكان ذلك سبباً في زيادة حظوة ابن زمرك لديه،فاسند إليه الكتابة والسِّفارة،والحجابة،(٣) كما أعطاه العلامة.(٤)

لم تسعفنا المصادر التي بين أيدينا عن ابن زمرك منذ عام ٧٧٦هـ، إلاّ ما ذكر هو في إحدى رقاعه، حيث يقول عَن سلطانه "خدمته سبعاً وثلاثين سنة" (٥). وربما كانت حياته هادئة مطمئنة خالية من الخصوم والمنافسين، فقد كان في أوْج مجده السياسي والأدبي، (٦) بسبب حظوته الكبيرة عند الغنيّ بالله (٧). وقد برهن على مهارته السياسية؛ فسيَّر شؤون الدولة بأسلوب جديد، بتفضيله المفاوضة مع النصارى، وإبرام العقود والمعاهدات التي تضمن له السِّلم، وحُسْن الجوار، فقد ذكر ما أولاه إياه سلطانه "... وفوَّض لي في عقد الصُلْح بين الملوك بالعدوتين، وصُلْح النصاري عقدته تسع مرات". (٨) وقد أثنى على هذا القول يوسف الثالث بقوله : (٩) " قُلنا صدق في جميع ما ذكره، والعقود بذلك شاهدة له".

لكن الأمور لم تدم على هذه الحال من الحظوة والجاه ، فقد سَجّل موت محمد الخامس نهاية حظوة ابن زمرك" (١٠)، وبدأت ألسنة الحسد تعمل فِعْلتها ، مما دفعه لمشانأتهم، "فكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حُجّاب الدولة، والاسترسال في الرّد عليهم بالطبع والجِبِلّة، مع الاستغراق في غِمار الفتن أندلساً وغرباً". (١١) مما أدى لاعتقاله بقَصَبة المرية " لأسباب يطول شرحها،أظْهَرُها شراسةٌ في لسانه،واعتزازٌ بمكانه، وتضريب بين خُدّام السلطان وأعوانه ".(١٢)

---

١ – نفح الطيب ٥: ١٦٣ . ٢ – التعريف ٢٢٦-٢٢٧ .

٣ – يقول ابن خلدون في الحجابة : " ومعنى الحجابة – في دولنا بالمغرب – الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وأهل دولته، لا يشاركه في ذلك أحد. انظر التعريف ٩٧ .

٣ – نفح الطيب ٥: ١٦٣، وقد ذكر المقّري نقلاً عن يوسف الثالث مقطوعة يمدح بها ابنُ زمرك الغني بالله بمناسبة توليته العلامة ، نفح ٧: ٢٣٨ . ٥ – أزهار الرياض ٢: ١٧ .

٦ – مع شعراء الأندلس والمتنبي ٢٥٦ . ٧ – نيل الإبتهاج ٢٨٣، جذوة الاقتباس ١: ٣١٤ .

٨ – أزهار الرياض ٢: ١٧ .

٩ – المصدر السابق ٢: ١٧ . ١٠ – مع شعراء الأندلس والمتنبي ٢٥٨ .

١١ – أزهار الرياض ٢: ١٨ . ١٢ – المصدر السابق ٢: ١٩ .

ومكث فيه حتى أول شهر رمضان من عام ٧٩٤ هـ، قبل وفاة أبي الحجّاج يوسف الثاني الذي خلّفه ولّده محمد السابع في١٦/ذي القعدة/٧٩٤هـ، (١) واستمر على وزارته أياماً قلائل، ثم عزله، وقدّم الفقيه أبا بكر ابن عاصم ت ٨٢٩هـ (٢) لمدة عام، اشتغل خلالها ابن زمرك بالتدريس بمالقة ثم بمسجد الحمراء، (٣) ثم أُعيد إلى خُطته "وقد دمثت بعض أخلاقه، وخمدت شراسته، وحلا بعضُ مذاقه".(٤) لكنه لم يلبث أن عاد إلى سيرته الأولى، من فظاظةٍ وغِلْظةٍ مع المشتغلين معه، ورتّب عليهم أموراً لم يقترفوها " .. فمن نفسٍ يروّع سِربها ، ويكدر بالامتحان والامتهان شربها، ومن ضارعة خاضعة لله سُلِبَت، وطوليّت بغير ما اكتسبت ، وتعدّت الأيدي إلى أقوام جُلّة سعدوا بشقائه ،وامتحنوا وهم المبرّأون من تزويره واعتدائه ... فسئم الناس وساطته".(٥) ممّا حدا بالسلطان تدبير أمر مقتلة، فدخل عليه أحد مخدوميه ليلاً ، وزعموا أنه رفع المصحف بينه وبين قاتله مستشفعاً به، لكنه لم يُسعفه ذلك، فقتله شرّ قِتْلة، و قتل معه ابنيه، ومَنْ كان معه من خدمه " كل ذلك بمرأى عينٍ من أهله وبناته، ... فكانت أنكى الفجائع، وأفظع الوقائع". (٦) وقد رثاه السلطان يوسف الثالث أبو الحجّاج بمقطوعة مطلعها :(٧)

هل كان إلاّ حياً تحيا العِبَادُ بهِ   هل كان إلاّ قذىً في عَيْن ذي عورِ

كما جمع يوسف الثالث أشعاره وكتاباته، وما استلب من أملاكه، "كلفاً بالأدب لوضوح فضله، وتأدية لما يجب من رعاية أهله".(٨) وكانت وفاته بعد عام ٧٩٥هـ.(٩) وقد اختُلِف في هذا التاريخ. (١٠)

---

١ – نفح الطيب ٧: ١٦٩ .

٢ – سبقت ترجمته .

٣ – نفح الطيب ٧: ١٦٨ .

٤ – أزهار الرياض ٢: ١٩ .

٥– المصدر السابق ٢: ١٩–٢٠ .

٦ – أزهار الرياض ٢: ٢٠ .

٧ – المصدر السابق ٢: ١٣/ نفح الطيب ٧: ١٦٤ وهي عبارة عن خمسة ابيات .

٨– نفح الطيب ٧ : ١٦٥   ٩– نفح الطيب ٧ : ١٧٠

١٠ – في نيل الابتهاج ٢٨٣، كان حيّاً سنة ٧٩٢ هـ، وفي جذوة الاقتباس ١: ٣١٤، ايضا كان حياً ٧٩٢هـ، وفي الدرر الكامنة ٤: ٣١٣ كان حيّاً قبل التسعين وسبعماية، وفي "مع شعراء الأندلس والمتنبي" ص ٢٦٠، وتوفي بعد ٧٩٥هـ، والدكتور محمد عنان في نهاية الأندلس ١٥٠، ٤٨٢، أواخر عام ٧٩٧هـ، وفي "ابن زمرك سيرته وأدبه " ص ٢٩٧ . الشهر الأول أو الثاني على الأكثر ٧٩٦ هـ .

كان ابن زمرك ، شاعراً وشّاحاً وكاتباً، وكان نتاجه الأدبيّ وفيراً، امتدت إليه يد العبث، كما امتدت لنتاج غيره مِمّن سبقوه، وممن لحقوه. حتى قيّض الله له من يلمّ بعض ما تناثر منه، وهو السلطان يوسف الثالث، فقد جمع بعضاً من نظمه في كتاب سماه "البقية والمُدْرك، من كلام ابن زَمْرَك" لم يصلنا منه إلاّ ما أورده المقّري في كتابيه نفح الطيب، وأزهار الرّياض .

ظهرت شاعرية ابن زمرك منذ صغره، وكان وسيلته لإرضاء أولياء الأمر، فقد مدح شيخه ابن الخطيب بقصيدة في صغره، (١) مطلعها :

أما وانصداع النور من مطلع الفجر ....

أما قصائده في سلطانه الغني بالله ، فيكاد يكون وقف شعره فيه ، فقد ذكر في إحدى رقاعه التي أوردها يوسف الثالث قوله بمعرض حديثه عن خدمته للغني بالله : (٢) " ... أنشدته فيها ستا وستين قصيدة في ستة وستين عيدا،وكل ما في منازله السعيدة من القصور، والرياض، .... من نَظْم رائق، ومدح فائق في القباب والطاقات ، والطُرز ، وغير ذلك فهو لي ... وهنأته بكذا وكذا قصيدة ".

وكان ابن زمرك شاعراً بلاطياً، لا يُشقّ غباره، وكانت إجادته "في القصائد التي تطول".(٣) وقد وصف شعره ابن الخطيب بقوله: (٤)" وشعره مُترامٍ إلى نمط الإجادة ، خفاجيّ النّزعة، كَلَفٌ بالمعاني البديعة، والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة." كما نسبت إليه الروضيات " بسبب كثرة اشعاره في وصف الرياض والبساتين والطبيعة بشكل عام". (٥) على أن جُلّ ذلك يتردد في ثنايا قصائده. كما استخدم بعض شعره في الزّخرفه الكتابية، التي تنظم لهذه الغاية، (٦) كما انتشرت اشعاره مخطوطة على جدران المباني والمساجد والقصور في الحمراء، حتى أصبحت هذه الأشعار جزءً من زخارف هذه المباني، و "رُبّما كان ابن زمرك الشاعر الوحيد ... الذي نشر ديوان أشعاره في آنق ثوب، لقد زُيّنت جدران الحمراء بقصائده، ونُقشت أبياته فيها" (٧) وبذلك يكون واحداً من الابداعات الفنية الأشدُ صلابة في مقاومة عوامل الفناء .

---

١ -الكتيبة الكامنة ٢٨٤ والقصيدة في الكتيبة الكامنة في ١٨٤-٢٨٨ تسعة وخمسون بيتاً. الإحاطة ٢: ٣٠٥ ، نفح الطيب ٧: ١٤٧ .

٢- أزهار الرياض ٢ : ١٦ - ١٧٠ ، نفح الطيب ٧ : ١٦٧

٣- الكتيبة الكامنة ٢٨٣   ٤ - الإحاطة ٢: ٣٠٣ .

٥ - د. محمد رضوان الداية الأدب الأندلسي والمغربي ، مطبعة خالد بن الوليد ، دمشق ١٩٨٠ -١٩٨١ ، ص ٣٢٧

٦ - انظر في ذلك - مثلا - نفح لطيب ٧ : ١٦٩ .   ٧ - مع شعراء الأندلس والمتنبي ٢٩٧

لم يصلنا من نتاج ابن زمرك النثري إلا النُزر اليسير، وقد لا يتعدى بضعة رسائل مبثوثة في بعض المصادر التي ترجمت له ، وذلك على الرغم من إشادة مترجميه بنثره، فقد ذكر لسان الدين بن الخطيب أنه: (١) " ... امتد في ميدان النثر ، والنّظم باعه"، ووصفه اسماعيل بن الأحمر(٢) بأنه "... علَم الكتابة بالصّولة ... والنظم والنثر جاري في ميدانهما فسبق". ونعته يوسف الثالث بـ "الناظم الناثر" (٣). كما أنّ عمله في ديوان الإنشاء يتطلب منه الكتابة عن سلطانه كُلّ مخاطباته وأوامره ، وقد اشار إلى ذلك الظهير الذي قدّمه فيه للكتابة عنه، حيث قال: (٤) "... وجعل أقلامه جياداً، لإجالة أمره العليّ ، وخطابه السّني، في ميادين الأقاليم، ... ناطقاً عن مقامه بالمخاطبات العجيبة، واصلاً إلى المعاني البعيدة، بالعبارة القريبة." ويبدو أنه لم يجرؤ أحد على لمّ شتات رسائله، ونثره، مثلما لم يجرؤ أحد على ذكر تلامذته، بسبب ما آل إليه أمره، وسخط سلطانه عليه لئلا يكون عرضة للعقاب.

وبسبب هذه القلة من الرسائل، فإنني أتلمس ما انماز به أسلوبه، من خلال ما هو متوافر لدي من رسائل -وإنْ كان جُلّها رسائل اخوانيه- علّها تعطي صورة واضحة عن أسلوبه الكتابي.

أورد المقّري قطعة لابن زمرك، يحثّ فيها الناسَ على الدّفاع عن مَرج غرناطة، كغيره من العلماء والوزراء والكتّاب الذين صدر عنهم رسائل "يُحركون -بها- (٥) حميّات ذوي البصائر والأبصار، ويستنهضون عزماتهم من كل الأمصار".(٦) ونص القطعة : (٧) "اعلموا أنا نذكر لكم ، مالا يغيب عن أديانكم وأحسابكم، إن هذا الجهاد وليمة دعا الله عباده إليها ، وحضّهم عليها ، فالآيات في المصاحف مسطورة ، والأحاديث مشهورة، لبيع النفوس فيها من الرحمن،وبذْلِ المُهَجِ رغبةً في حصول ثواب الملك الديّان ، ينزل الله فيها الملائكة

---

١ - الإحاطة ٢: ٣٠٢ .

٢ - نثير فرائد الجُمان ٣٢٧ .

٣ - نفح الطيب ٧: ١٦٣ .

٤ - نفاضة الجراب ٨٥ .

٥ -التي بين الشرطتين زيادة من الباحث ليستقيم بها السياق.

٦ - أزهار الرياض : ١: ٦٣ .

٧ - القطعة في أزهار الرياض ١: ٦٣-٦٤. وربما كانت هذه القطعة مُجتزأة من رسالة كاملة ، على عادة المقري حين يجتزيء بعض الفقرات من الرسائل للدلالة على أمرٍ ما. انظر نفح الطيب ١: ٥٠٥، اجتزأ وصف قرطبة من رسالة للسان الدين بن الخطيب ، ويقول الدكتور أحمد سليم الحمصي في كتابه ابن زمرك سيرته وأدبه ص ١١٥ إنه " أميل إلى عدّها قطعة مستقلة ".

المسوّمين، وتفرح الحور العين، وتسحُّ الرّحمة من ربّ العالمين، ويباهي الله ملائكته بالمجاهدين، وقد تضافرت على ذلك النصوص، وكفى شرفاً الفوز بمحبة الله في قوله (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص(١)، فينبغي فيه الاستغفار، من سالف الذنوب، وتطهير السرائر والقلوب، واجتماع الأيدي والكلمة في مرضات علاّم الغيوب".

اتسمت هذه القطعة بالأسلوب المسجوع بكاملها، دون ظهور أثرٍ للتكلف فيها ، وإنْ كان مقصوداً. فقد جاءت متناسقة ، دون تعقيد وتنافر، حتى الآية الكريمة التي وردت في القطعة، اتفقت برويّها، مع الحرف الأخير التي عُقِدت عليه الجملة السابقة "نصوص –مرصوص".

كما اتسمت هذه القطعة بالإيجاز غير المُخلّ ، فقد لاءم بين ألفاظها وعباراتها، والموضوع المقصود بها، فالأمر لا يحتاج إلى اطناب، بقدر ما يحتاج إلى قوة تأثير، حتى يأتي ثماره في النفوس .

- أمّا ألفاظها فجاءت سهلة واضحة، لم يقصد اللفظة لذاتها، بقدر ما تؤدّيه من معنىً، وهذه سِمة ينماز بها عن غيره من الكتّاب الذين دأبوا على إدخال الغريب في رسائلهم .

أما رسالته التي بعث بها إلى ابن خلدون عام ٧٨٩هـ (٢)، فقد ابتدأها بقصيدة طويلة مطلعها :

سلوا البارق النجديّ عن علَمَي نجدِ تبسم فاشتكى جفوني من الوجد

وقد اعتمد الأسلوب المسجوع في مقدمة رسالته، والموازنة بين الجمل : " سيدي علم الأعلام، كبير رؤساء الإسلام، مشرّف حَمَلَة السيوف والأقلام، جمال الخواصّ والظُهراء، أثير الدول ، خالصة الملوك ، مجتبي الخلفاء، نير أفق العلاء، أوحد الفضلاء، قدوة العلماء، حجة البلغاء". لكنه بعد أن يطول فيه الحديث على هذا النحو من السَّجع ، يقوم بإيراد السَّجع بصورة متكلفة، حيث تأتي جُمله مرتبةً ترتيباً ينمّ عن عناء كبير، ولربما كانت حشواً لا طائل منه. ولا فائدة فيه : "... بأي التحيات أفاتحك وقدرُك أعلى، ومطلع فضلك أوضح وأجلى، إنْ قلت تحية كسرى في السّناء وتُبّع، فأثر لا يُقتفى ولا يُتبع ، تلك تحية عجماء لا تبين، وزمزمة نافرها اللسان العربي المبين، وهذه جهالة جهلاء لا ينطبق على حروفها الاستعلاء، قد محا رسومها الجفاء، وعلى آثار دمنتها العفاء، وإن كانت التحيتان طالما اوجف الرّكاب ، ومقتطع البريد ، ولكن اين مما أريد".ويستمر في مقدمته في تمجيد ابن خلدون وأطرائه،على هذه الشاكلة، مضمّناً ذلك كثيراً من الصور البلاغية،والاستعارات،ومن طريف استعاراته في هذه القطعة:"... فالأولى أن أترك عذبة اللسان تلعب بها رياح الأشواق،وأسلّة اليراع تخضب مفارق الطروس ، بنجيع

---

١ – سورة الصف آية ٦١ .

٢– الرسالة موجودة في التعريف بابن خلدون ٢٦٢ – ٢٧٤

الحبر المُراق". فقد حول الأشواق إلى رياح شديدة عاصفة ، تلعب بلسان الكاتب، وتهزه وتحركه، "فيصدر عن حركاته صوت ملؤه المودّة والحنين". (١)

وحين يصل إلى غرضه في الرسالة ، فإنه يترك الكلام يسير على سجيّته ، فيرسله ارسالاً، لا يلوي فيه على سجع، فيبين غرضه، بأسلوب سهل واضح، وألفاظ واضحة لا غرابة فيها ولا تعقيد، ففي فصل من هذه الرسالة . يطلب فيها كتباً من الديار المصرية : " ... والمرغوب من سيدي،أن يبعث لي ما أمكن من كلام فضلاء الوقت وأشياخه على الفاتحة،إذْ لايمكن بعث تفسير كامل،لأني أثْبَتُّ في تفسيرها ماأرجو النفع به عند الله ...".

على أنه لا يقتصر في استهلال رسائله على السجع، فلربما جاء بالرسالة كاملة على الأسلوب المرسل، ففي رسالة له بعثها إلى لسان الدين بن الخطيب (٢)، يبتدؤها بقوله : " أبو معارفي، وولي نعمتي، ومعيد جاهي ، ومقوم كمالي، ومورد آمالي، ممَّنْ توالى نعمه علي، ويتوفر قسمه لدي، وأبوء له بالعجز، عن شكر أياديه، التي أحيت الأمل، وملأت أكف الرغبة، وانطقت الحدايق، فضلاً عن اللسان ، واياديه البيض وإن تعددت، ومننه العميمة، وإن تجددت، تقصر عن اقطاع أسمى شرف المجلس في الروض الممطور بيانه". فهو في هذه المقدمة للرسالة على الرغم من تدبيجها بعبارات الإجلال والإكبار والتعظيم لشيخه، فقد جاءت على الأسلوب المرسل، كما هو الحال إلى آخر الرسالة، وبعبارات واضحة، وتراكيب سليمة خالية من التعسف، وأسلوب سهل، وألفاظ قريبة واضحة لا تستعصي على الفهم، أبدى في ذلك حذقاً ومهارة، وتمكُّنا من اللغة.

وإذا ما شعر أن هناك لبساً في بعض التراكيب، أشار إلى ما يزيل الغموض عنها، فقد بدأ الرسالة بقوله: " أبو معارفي " فحتى لا يُظَنّ أن حقّها النصب على المنادى، أشار في نهاية الرّسالة أنه رفعها على الابتداء، تقريراً منه بواقع الحال، واعترافاً بالجميل على تقدير أبو معارفي أنت، على خلاف نصبها على النداء، التي لا تفيد سوى جلب الانتباه. يقول : " ولمّا بلغنا هذه الطيّة، وأنخنا المطية، قمنا بواجب تعريفكم على الفور بالأدوار، ورفعنا مخاطبة المالك على الابتداء ، والسلام".

وثمة سمة تسترعي الانتباه في أسلوب ابن زمرك، وهي غلبة قول الشعر في بداية رسائله، ففي رسالة أخرى بعث بها إلى لسان الدين بن الخطيب، صدّر رسالته بمقطوعة شعرية من ستة أبيات يقول في مطلعها : (٣)

---

١ - ابن زمرك سيرته وأدبه ١١٨ . ٢ - الرسالة في الإحاطة ٢: ٣١٣-٣١٤ .

٣- - الإحاطة ٢: ٣١٠ .

مالي بِحَمْل الهوى يدان (١) من بَعْد ما أعْوزَ التّداني

وإذا ما أضفنا هذه الرسالة، إلى الرسالة التي بعث بها إلى ابن خلدون (٢)، يتشكل عند الباحث تصوّر، بأن ابن زمرك يفضل تصدير رسائله بالشعر، الذي ينظمه خصيصاً لهذه الغاية.

وربما خَلُصنا من هذا كله إلى أن ابن زمرك ينماز بأسلوبه المرسل، وإنْ اعتمد السجع -غالباً- في صدر الرسالة، وذلك في مجال التعظيم والإجلال، للمخصوص بها. في حين يعرض غرضه بأسلوب سهل وألفاظ واضحة، وتراكيب سليمة، لا غرابة فيها، ولا تعقيد. وإن كان لابد من تصنيفه في مدرسة من مدارس النثر ، فهو "أقرب إلى مدرسة التصنيع من التصنع " (٣) .

---

١ – ينظر إلى المثل القائل " مالي بهذا الأمر يدان" اي لا أستطيع ، ولا أقدر عليه ، انظر: الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري ت ٥١٨هـ، مَجْمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. دار القلم، بيروت ٢: ٢٦٧ المثل رقم ٣٧٧٩ .

٢ – انظر ص ١٤ حاشية ١ .

٣ – ابن زمرك سيرته وأدبه ١٢١ .

الفصل الرابع

السمات الفنية للرسائل الديوانية

انمازت الرسائل الديوانية في عصر بني الأحمر بسمات ، انفردت بها عن غيرها من الرسائل الديوانية، الصادرة عن دواوين الإنشاء في الولايات الإسلامية الأخرى، في المشرق العربي والديار المصرية، جعلت كُتّابها مرهوبي الجانب في مخاطباتهم، كغيرهم من كُتّاب المغرب العربي آنذاك. (١) كما انمازوا -أيضاً- عن نظرائهم المغاربة، فهم "رؤساء غيرهم" كما يقول المقّري (٢) .

رسوم الكتابة الديوانية

أشار القلقشندي إلى أن الرسالة الديوانية عند بني الأحمر تُعبّر عن المكتوب إليه بميم الجمع، وبنون الجمع للمكتوب عنه، والتزام الدُعاء عند قولهم كتبنا إليكم، ونحو ذلك. (٣) إلاّ أن هذا الأمر ليس مُطّرداً في كلّ ما كتبوا، فقد يُعبّر عن المكتوب عنه بمفرده، دون الالتزام بنون الجمع، مثلما كَتَبَ أبو الحسن بن الجيّاب عن سلطانه أبي الحجاج يوسف الأول، إلى سلطان المغرب، حيث قال (٤) "... فكتبته -كتب الله لكم عوائد السعادة-".

كما أشار إلى ثلاثة أساليب في كتابة الرسالة الديوانية، وكل أسلوب له طرائقه الخاصة به، فالأسلوب الأول "أن تُفتح المكاتبة باللقب اللائق بالمكتوب إليه، وهو على أضرب، الضّرْب الأول، أن يُبتدأ بلفظ "المقام" وهو مختص بالكتابة إلى الملوك". (٥) وبعد استقراء النصوص المتوافرة، التي ابتدأت الرسائل بلفظ "المقام"، فإن هذا اللفظ مُختصّ بسلاطين عدوة المغرب دون غيرهم من سائر الملوك والأمراء والسلاطين، (٦) وقد كان الخطاب يوجّه لهم ، بقولهم "الملك المؤيّد بفضل الله"، (٧) ثم عدلوا عنه إلى المخاطبة بـ "المقام".

---

١ – صُبح الأعشى ٦: ٢٨٧ .

٢ – أزهار الرياض ١: ١٩٢ .

٣ – صُبح الأعشى ٧: ٤١ .

٤ – نفح الطيب ٥: ٤٥٩ .

٥ – صُبْح الأعشى ٧: ٤١ .

٦ – انظر الرسائل التي وجهت إلى سلاطين المغرب ، في ريحانة الكتاب، ١: ١٦٠، ١٧١ ، ونفح الطيب ٥: ٤٥٨.

٧ – انظر الرسالة التي بعثها السلطان محمد الثاني إلى أبي يوسف بن عبد الحق سلطان المغرب في الذخيرة السنية ١٤٠–١٤١ .

بعد ذكر "المقام" يصفه الكاتب بما يليق به، ثم يقال : مَحلُّ أخينا، أو مَحلُّ ولدنا، أو محل والدنا السلطان، ويؤتى بألقابه، ثم يُسمّى، بعد ذلك يُذْكر المُرْسِل "من فلان"، ويفعل فيه كذلك إلى منتهى نسبه، ويُدعى له بالبقاء وما يتبعه، ثم يُقال مُعْظم قَدْرة، أو معظم مقامه، وما أشبه ذلك، ويذكر اسم المكتوب عنه، ثم يُقال : أما بعد حمد الله، ويؤتى بالخطبة إلى آخرها، ثم يُقال: فإنا كتبناه إليكم من موضع كذا، ويؤتى على المقصود إلى آخره، وتختم بالدعاء، ثم بالسلام. (١) غير أن هذا التقسيم جاء فيما بعد، فكان في ابتداء أمرهم، تُفْتَتَح الرسالة بالبسملة، والصلاة والسلام على الرسول الكريم –صلى الله عليه وسَلّم–، ثم يوجّه الخطاب إلى المكتوب إليه، مع ذكر صفاته، ثم يذكر المكتوب عنه، ويأتي بالسلام بقوله " سلام على حَضرتكم العلية"، ويخلص إلى المقصود بقوله "أما بعد"، ثم يأتي عليه إلى آخره، ثم يختم بالسلام. (٢)

والضرب الثاني: أن يقع الابتداء بالمقرّ، والرَّسْم فيه أن يُقال: المقرّ، ويُنعت، ثم يُقال مقر فلان، ويُنْعَت بالألقاب، ثم يذكر المكتوب عنه، ثم يقال : "أما بعد حمد الله، ويؤتى على الخطبة إلى آخرها، ثم يُقال : فإنا كتبناه لكم من موضع كذا، ويتخلّص إلى المقصد بلفظ " وإلى هذا، فإن كذا وكذا"، ويؤتى على المقصد إلى آخره، ويختم بالسلام .(٣) وربما قُدِّم على لفظ "المقر"صِلَة يُعتَمد عليها في البداءة، كأن يقول " يُعتَمَد المقرّ ". (٤) وقد وردت في الرسائل الديوانية هذه اللفظة خاصة بأمير المدينة النبويّة المقدسة،(٥) إذ أن المقرّ لَقَبُ شرفٍ، ينعم به السلطان على الأمراء. (٦) .

الضرب الثالث: استفتاح الرّسالة بلفظ الإمارة، فيقال :"الإمارة التي نعتها كذا وكذا، إمارة محلّ أخينا، ويُدعى له، ثم يُقال مُعظّم إمارته، أو معظّم أخوته فلان، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمد الله ، ويؤتى بخطبة، ثم يُقال : فإنا كتبناه إليكم، كتب الله لكم كذا وكذا، من موضع كذا، ثم يتخلّص إلى المقصود بلفظ "وإلى هذا"، ويؤتى على القَصْد إلى آخره، ويُختم بالسلام، وبذلك يُكتب إلى الأمر من أبناء الملوك وغيرهم".(٧) كما كتب لسان الدين بن الخطيب

---

١ – صبح الأعشى ٧: ٤١–٤٢ .

٢ – انظر الذخيرة السنة ١٤٠–١٤١ .

٣ – صُبح الأعشى ٧: ٥١.

٤ – المصدر السابق ٧: ٥٨ .

٥ – انظر : ريحانة الكتّاب ١: ٢٠٦، صُبح الأعشى ٧: ٥١ .

٦ –محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣، ص ٣٢٢

٧ – صُبح الأعشى ٧: ٦١ .

عن سلطانه إلى أبي علي الناصر بن السلطان أبي الحسن المريني (١):" الإمارة التي لها المكارم الرّاضية، (٢) والعزائم الماضية، .... إمارة محلّ أخينا الذي نعظم مجده السامي الجلال، ونُثني على شيمه الطاهرة الخلال ... الأمير الأجل، الأعز ... أبو علي الناصر ... معظم إمارته الرفيعة الجانب ... الأمير عبد الله يوسف ... أما بعد حمد الله الذي شرح بالتوكل عليه صدوراً ... والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي بعثه بالحق هادياً ... والرّضا عن آله وأحزابه .. والدعاء لإمارتكم العالية بالسعد ... فإنا كتبناه إليكم -كتب الله لكم سَعْداً متجددَ الأحكام ..... وإلى هذا أيد الله إمارتكم ... أننا تعرفنا ما كان من قدومكم السعيد على احواز المريّة .. وإنكم أخذتم في تسكين الأوطان وتمهيدها، ... وإطفاء نار الفتن وإخمادها ... فكتبنا إليكم هذا الكتاب نُهنئكم بماسَنّاه الله لمجدكم الرفيع ... والسلام الكريم ورحمة الله وبركاته".

وفي مخاطبة سلاطين الديار المصريّة من المماليك، فالرسم فيه أن يُكتب "الأبواب الشريفة" ويصفها، ثم يقول "أبواب السلطان الفُلاني" ويصفه، ويذكر السلطان المكتوب عنه، ثم يقول أما بعد الحمد لله، ويأتي بخطبة في المعنى تشتمل على التحميد، والصلاة والسلام على الرسول -صلى الله عليه وسلم-، والرضا عن آله، وأصحابه رضي الله عنهم، ثم يقول :"فإنا كتبناه إليكم، ويأتي على ما يناسب المقام، ثم ينخرط في سلك المقصود إلى آخره، ويختم بالدُّعاء." (٣).

وأما ما يخاطب به الموحّدون ، فابتداء الخطاب يكون بـ "الخلافة" وذكر أوصافها، والثناء عليها، ونعت خليفتهم بأمير المؤمنين، والتعبير عن المكتوب عنه بنون الجَمْع." (٤)

أما الأسلوب الثاني الذي أشار إليه القلقشندي، فهو يتعلق بافتتاح الرسالة بالمُرْسِل أم بالمُرْسَل إليه، فقد تُفتتح الرِّسالة باسم المكتوب إليه تعظيماً له، "والرَّسم فيه أن يقال إلى فلان ويُنعت بما يليق به، ثم يؤتى بالسلام، ويقال : أما بعد، ويؤتى بخطبة، ثم يُقال : فإنا كتبناه إليكم، كتب لكم كذا وكذا، من موضع كذا، ويتخلص إلى المقصود بلفظ "وإلي هذا"، ويؤتى على المقصود إلى آخره، ويختم بالسلام". (٥) إلا أنني أرى أن هذا التقسيم على هذا النحو لم يكن

---

١ -المصدر السابق٧: ٦١-٦٤، ريحانة الكتّاب١: ٢٨٦-٢٨٩،وانظر أيضاً رسالة أُخرى في ريحانة الكُتّاب ١: ٤٨٠

٢ - هكذا وردت في صبح الأعشى، أما في ريحانة الكتّاب فقد وردت "الإمارة التي لم تزل المكارم الراضية ".

٣ - صُبح الأعشى ٨: ١٠٧-١٠٨. وربما كان الخطاب الموجه لهم بلفظ الأبواب، اقتداءً بما كان يخاطب به العباسيون في آخر دولتهم. انظر مصلطحات صبح الأعشى ٥٩ .

٤ -المصدر السابق ر٦: ٥٣٥، وانظر الرسالة التي اعتمدها القلقشندي في نثير فرائد الجمان ص٢٥٦،الاحاطة ٤: ٥٦١ ، وكان لقب الخلافة يطلق عليهم لأنهم يعيدون نسبهم إلى سلالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، انظر العبر ٦: ٢٢٧، ٢٦٧، ٢٧٥.

٥ - صبح الأعشى ٧: ٦٤ .

مُطّـرداً في بداية أمرهم، ولرُبما لم يتخذ هذا الشكل، فهذه رسالة محمد الثاني ٦٧١-٧٠١هـ إلى سلطان المغرب (١) خلت من ذكر موضع الرسالة، كما خلت من الحمدلة والصلاة على الرسول -صلى الله عليه وسلّم- مُكتفياً الكاتب بالبسملة والصلاة على الرسول -صلى الله عليه وسلّم- في بداية الرّسالة، كما جاءت "أما بعد" الذي يصل بها الكلام منقطعة عمّا بعدها، على خلاف ما أصبحت عليه فيما بعد، إذْ قُرنت بالحمد لله أينما وردت، وأصبحت سُنّة يسير عليها الكتّاب.

أما الضرب الثاني، فيتعلق بذكر المُرْسِل في ابتداء الرّسالة، وهو على صنفين: الصنف الأول فيما يكتب به إلى بعض الملوك والرسم فيه أن يُقال : من فلان إلى فلان، بألقابه ونعوته ونعوت آبائه، ... ثم يؤتى بالسلام، ويُقال أما بعد حمد الله، ويؤتى بخطبة، ثم يقال : فإنا كتبناه إليكم -كتب الله لكم كذا وكذا. ثم يقال وإلى هذا فإن كذا وكذا، ويؤتى على المقصود إلى آخره، ويُختم بالدُّعاء ثم السلام. (٢)

والصنف الثاني ما يكتب به إلى الرعايا، "والحكم فيه على نحو ما تقدّم" في الصنف الأول، إلا أنه يخاطبهم بأوليائنا. (٣) والاكتفاء بذكر نعوتهم وألقابهم،ومراتبهم ، فيقول "... إلى أوليائنا .. من الأشياخ الجلة الشرفاء، والأعلام العلماء، والصدور الفقهاء، والعدول الأزكياء، والأعيان الوزراء، والحُماة المدافعين عن الأرجاء، والأمناء الثقات الأتقياء، والكافّة الذين نصل لهم عوائد الاعتناء." (٤) ومثل آخر من رسالة أخرى بعثها السلطان لأهل المرية "... إلى أوليائنا في الله... القائد بالمريّة، والقاضي بها، والفقهاء، والأشياخ، والوزراء والأمراء، والكافة والدهماء". (٥)

الأسلوب الثالث فيما ذكر القلقشندي : أن تفتتح المكاتبة بلفظ "أما بعد". والرّسم فيه أن يُقال: أما بعد حمد الله، أو أما بعد فالحمد لله، ويؤتى بخطبة، ثم يُقال : فإنا كتبناه إليكم، من موضع كذا، كتب الله لكم كذا وكذا، ثم يتخلص إلى المقصود ، ويؤتى عليه إلى آخره، ويُختم بالدعاء ثم بالسلام". (٦)

---

١ – الذخيرة السنية ١٤٠ .

٢ – صبح الأعشى ٧: ٦٧ ، وانظر للرسائل الموجودة في ريحانة الكتاب ١: ٢٦٩، ٥٠١، ٥٠٩، ٥١٧ .

٣- المصدر السابق ٧: ٧٠ .

٤ – ريحانة الكتاب ٢: ٤٢ ، وانظر أيضاً نهاية الأندلس ص ١٥٧، صورة رسالة من السلطان إلى قادة وأشياخ حصن قُمارش بوجوب اليقظة والدفاع عنه .

٥ – صبح الأعشى ٧: ٧٠ .

٦ – المصدر السابق ٧: ٧٤ .

ومثال ذلك ما كتبه لسان الدين بن الخطيب عن سلطانه:(١) "أما بعد حمد الله محسن العواقب، ومخلد المناقب ... والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الماحي الحاشر العاقب، ... والرِّضا عن آله الذين كانوا في سماء ملته كالشهب الثواقب، فإنا كتبناه لكم -كتب الله لكم توالي المواهب- ... من حمراء غرناطة -حرسها الله- ... والحمد لله توالى الألطاف العجائب.(٢) وقد وصل كتابكم الذي أكّد السّرور وأصّله، ... وفصّلنا ما اتصل لكم من الصنع واطّرد، ... وكتبنا نهنئكم به هناءً مشفوعاً ، وبالدعاء لكم متبوعاً ... والله يصل سعدكم، ويحرس مجدكم . والسلام ".

أما ما يُكتَب في الظهائر، فالافتتاح بلفظ "هذا ظهير"، (٤) ثم يُتبع بنعته ويكاد يكون نعته -ابتداءً- موقوفاً على لفظ "كريم" فيقال : "هذا ظهير كريم" وهذه سنّة مطردة عندهم منذ ابتداء أمرهم، وحتى انقضاء دولتهم. (٥) ثم يذكر السلطان الصادر عنه، والمخصوص بالظهير ومسوغات اصداره، والغاية منه. وتاريخ اصداره .

إنّ الرسائل التي وصلت إلينا -غالباً- خالية من البسملة، ولربما كان هذا الأمر من باب الاختصار، كونها واجباً دينياً، في كل ما يبتديء به المسلم ، وليست قصراً على أمر بعينه. ودليل وجودها أن كثيراً من المواضع التي ترد فيها رسالة ما، يشير ناقلها إلى وجود البسملة، دون ذكرها، فهذا لسان الدين بن الخطيب يقول: (٦)" ولما توفي أبو الحجاج -رحمه الله- وولي ولده-رضي الله عنه-الأمر من بعده، كان ممّا صدر عني البيعة المنعقدة عليه من أهل الحضرة العلية، والإيالة الكريمة النصريـة، نصاً، بعد الفاتحة". ثم يورد النص المقصود. وفي تقديمه لرسالة أخرى يقول: (٧) "صدر عني من أمير المسلمين أبي الحجاج ما نصه بعد الفاتحة". كما أشار المقّري في تقديمه لإحدى رسائل أبي الحسن بن الْجيّاب. فيقول: (٨) "... ومن انشاء ابن الجيّاب -رحمه الله تعالى- في العزاء بالسلطان أبي الحسن المريني، ما صورته بعد الصّدْر."

---

١ - صبح الأعشى ٧: ٧٤-٧٥، ريحانة الكتّاب ٢: ١٣-١٤ .

٢ - في صُبْح الأعشى " والحمد لله على ما توالى من الألطاف والعجائب".

٣ - في المصدر السابق " فسررنا بما اتصل لكم من الصُنْع واطّرد".

٤ - المصدر السابق ١١: ٣-٤ .

٥ - انظر الظهير المؤرخ عام ٦٤٣هـ في الإحاطة ١: ٤٥ وفي ريحانة الكتاب باب الظهائر عمّا صدر في القرن الثامن الهجري ٢: ٦٤، ٦٩، ٧٣، ٨٠، ٨٤ . وفي نفح الطيب ٦: ١٥٥، الظهير الخاص بابن عاصم المؤرخ في صفر ٨٥٧ هـ.

٦ - ريحانة الكتّاب ١: ١٦٦ .

٧ - المصدر السابق ١: ١٢٧ .

٨ - نفح الطيب ٥: ٤٦١ .

وذكر القلقشندي في تقديمه لرسالة لسان الدين بن الخطيب إلى صاحب تونس ما نصه:(١)"... ونسختها بعد البسملة، على ما كتب به ابن الخطيب عن سلطانه ... إلى المستنصر بالله خليفة الموحّدين بتونس". وفي كتاب المماليك والفرنج للدكتور أحمد دراج، ورد نصُّ التقديم لإحدى الرسائل التي بعثها سلطان الأندلس إلى سلاطين مصر يقول النص : (٢) " ... نسخة كتاب صاحب الأندلس، الوارد على الأبواب الشريفة الملكية الظاهريّة خشقدم، بعد البسملة الشريفة".

وثمة أمر آخر اتصف فيه بناء الرّسالة الديوانية عند بني الأحمر، وهو تذييلها بالتاريخ الهجري، تلك السُّنة التي ابتدأها الخليفة عمر بن الخطّاب -رضي الله عنه-. (٣)

كما أن الدُّعاء إلى المخصوص بالرسالة، كان لازمة من لوازم خطبة الرسالة، أي أنها مقرونة مع الحمدلة، والصلاة والسلام على الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم-، والرِّضا عن آله وأصحابه الكرام. حيث يُقال مثلاً : (٤) "... أما بعد حمد الله والصلاة والسلام على سيدنا، ومولانا محمد ... والرّضوان على آله وصحبه، ... والدُّعاء لأبوابكم الشريفة، باتصال السّعد الذي تخضع له صيد الرّقاب". وهكذا في كل ما يُكتب من رسائل يأتي الدعاء للمخصوص في الرسالة بعد الترضّي عن الصحابة مباشرة .

أما فَصْلُ الخطاب "أما بعد"(٥)، فلم يكن منقطعاً عمّا بعده، في الرّسائل الديوانية، بل كان متصلاً اتصالاً لازماً مع الحمدلله، فحيثما ورد، كان مُتصلاً به، ولا يستغنى عنه، فيُقال : "أما بعد الحمد لله". في حين أنه ورد منقطعاً في بداية دولتهم. (٦)

لذلك فإنّ الرّسالة الديوانية اتخذت نمطاً معيناً في رسومها الكتابية، وإن تباينت الألفاظ والأغراض، والتقديم والتأخير التي لا تسير على وتيرة واحدة. فهي لا تعدو كونها تتألف من مقدمة يُذكر فيها المُرْسِل والمُرْسَل إليه، بغض النظر مَنْ هو الأسبق في السياق، ثم خطبة الرسالة التي تتكوّن من الحمدلة، والصلاة على الرسول الكريم -صلّى الله عليه وسلّم-، والترضي على آله وأصحابه الكرام، والدُّعاء للمخصوص بالرسالة. ثم ذكر موضع اصدار

---

١ - صُبح الأعشى ٦: ٥٣٥ .

٢ - ص ١٩١ .

٣ - الوزراء والكتاب ٢٠ .

٤ - المماليك والفرنج ١٨٢ .

٥ - احكام صَنْعة الكلام ٥٨ .

٦ - انظر الرسالة في الذخيرة السنية ١٤٠-١٤١ .

الرّسالة، والغاية منها. ثم الختام بالدُعاء -غالباً- وتذييل الرسالة بالتاريخ. وظلت هكذا لا تُبدل الأحداث من شكلها، و لا يستطيع الكاتب العدول عنها إلى سواها، فلا مندوحة له عنها. وعلى الرغم من هذا الإطار الذي أحيطت به، إلا أن بداخله فضاءً رحباً، أطلق الكُتّاب أعِنّة اقلامهم فيه، واخذوا للحديث فيه أشكالاً، وأنواعاً ، وأساليب يرصّعون بها رسائلهم ، بما تسعفهم به ملكتهم الأدبية، والمعرفية، وما تجود به قرائحهم، وتباروا في أفانين البلاغة والفصاحة، حتى أظهروها في حُلّة زاهية، أذهبت عنها جفاء الحدود الصارمة .

الأساليب

تنوعت أساليب كتّاب بني الأحمر في الرّسائل الديوانية، وقد عَدّ ذلك الدكتور شوقي ضيف عيباً من عيوب الكتابة الأندلسية، حيث يقول: (١) "..... إن الأندلسيين لم يستخدموا لأنفسهم مذهباً جديداً في تاريخ النثر العربي ... فقد وقفوا عند المحاكاة، وهي محاكاة اضطرتهم إلى ضروب من الخَلْط ، إذ ترى الكاتب الواحد يجمع في نماذجه بين المذاهب الثلاثة، التي رأيناها في المشرق، فتارة يصنع لنفسه نموذجاً من ذوق أصحاب الصنّعة ، وتارة يعدل عن ذلك إلى ذوق أصحاب التصنيع، وتارة ثالثة يَعدل إلى ذوق أصحاب التصنُّع. "غير أن ما سماه الدكتور شوقي ضيف بالخلط، ربما جعل الكتاب يتحررون من رِبَق التقليد الذي طالما وُسِم به الأدب بالأندلس. وأبعد كتابتهم عن أسلوب بعينه، ليختاروا لأدبهم ما يناسبه من طرائق. وهذه الأساليب هي :

<u>١ - الأسلوب المُرسل :</u> وهو الأسلوب الذي يترك فيه الكاتب الكلام يأتي على سجيته، دون تكلف، فيجري حُراً طليقاً من غير القيود التي تضعها الزّخرفة البديعية، فلا تقطيع ولاقافية ولا غيرها، حيث يجعل الكاتب المعنى هدفه، والتعبير عن مقاصد الرّسالة بأوضح الأساليب وأيسرها. "ولن تجد أيمن طائراً، وأحسن أوّلا وآخراً، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان، من أن تُرسل المعاني على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تُركت وما تريد، لم تكتسِ إلاّ ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلاّ ما يزينها.".(٢)

---

١ - الفن ومذاهبه في النثر العربي ٣٢٠-٣٢١ .

٢ - الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، أسرار البلاغة في علم البيان، علّق حواشيها محمد رشيد رضا، عن نسخة الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ١٠.

لم يتردد هذا الأسلوب في رسائل بني الأحمر كثيراً، ولم يكن شائعاً شيوع الأساليب الكتابية الأخرى، (١) إذا ما استثنينا رسائل المعاهدات مع الدول النصرانية المجاورة، التي جاءت بأسلوب واضح، هَمُّها إيصال الفكرة بأدق الألفاظ والعبارات، وبشكل منظم متسلسل.

وكان هذا الأسلوب كثيراً ما يتردد في ثنايا الرسائل، بما يختص بالأغراض التي تعقد من أجلها تلك الرسائل، (٢) فمن ذلك الرّسالة التي بعثها السلطان محمد الأحنف إلى سلطان مصر، فقد بدأ الرسالة بالأسلوب المسجوع ، وإذا ما وصل إلى الغاية من الرسالة كتب بالأسلوب المرسل يقول: (٣) ".. وإلى هذا فموجبه إلى تلكم الأبواب الشريفة، والإعلام بإن الواصل بهذا الكتاب إلى الأبواب العزيزة، التاجر الأتقى الأفضل أبو عبد الله محمد البنيولي -كتب الله سلامته-. توجه برسم تلكم الإيالة الكريمة ، وتلكم السّمطية العظيمة، وفي اكترائه، واكتراء مَنْ معه من المركب الذي وصل فيه إلى تلكم البلاد الشريفة ، واكتراؤه برسم ما يُسني الله من المعونة لهذا الثغر الغريب، والوطن الذي هو من العدو قريب، المترقب لما ييسره الله تعالى من صدقات المسلمين، ونوافل خيراتهم التي يعتمدون بها من عند الله من الثواب الجسيم، والجزاء الذي يخلد في دار النعيم، ومواهب أبوابكم العزيزة هي العطايا الفاخرة، والمنح التي توفي سعادة الآخرة. وأن المركب المذكور يصل بالسلامة إلى ثغر الإسكندرية -حماها الله- والقَصْد من أبوابكم العزيزة، أن تأمروا بالمشاركة في تفريغه وثقه، وفي كُلّ ما يحتاج إليه، حتّى يتم معونة هذا الوطن، المستصرخ بأبوابكم، المتَمسّك بأسبابكم، ومبلغ كِراء المركب المذكور في سفره وعودته ثلاثة عشر ألف دينار وخمسمائة دينار من الذهب الفارسي كتب الله سلامته."

نلاحظ في هذا النص أنه يخلو من المحسّنات اللفظية، حيث تحرّر الكاتب منها، وأرسل الكلام ارسالاً ، فجاءت الفكرة واضحة لا لَبْس فيها. وما جاء فيها من سَجْع إنما جاء دون قَصْد أو استدعاء .

٢ - <u>الأسلوب المتوازن :</u> وهو الذي تتعادل فيه الجمل على نحو السّجع،غير أنه يختلف عنه بعدم تقيده بالقوافي"وللكلام بذلك طلاوة،ورونق وسببه الاعتدال،لإنه مطلوب في كل الأشياء.وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان،وهذا لامراء فيه لوضوحه"(٤).وقد يُسمّى - أحياناً - أسلوباً مزدوجاً ، حيث يتماثل الكلام في السجع والوزن ، وقد تُعدُّ براعة

---

١ - ريحانة الكتّاب ١: ١٥٢ .

٢ - انظر صفحة (١٠٧) و صفحة (١٢١) .

٣ - المماليك والفرنج ١٨٣-١٨٤ .

٤ - ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي، وبدوي طبانه، مطبعة نهضة مصر، القاهره، ط ٢ ، ١٩٧٣، ١: ٣٧٨ .

الكاتب في اعتماده المزاوجة في كتابته، إحدى المقاييس البلاغية التي يُحكم فيها عليه، إذ "لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو، حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد لبليغٍ كلاماً يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن، لإن في نظمه خارج من كلام الخَلْق، وقد كَثُر الازدواج فيه، حتى حصل في أوساط الآيات، فضلاً عما تزاوج في الفواصل منه" (١).

وقد شاع هذا الأسلوب في رسائل بني الأحمر، وغلب على كثير منها. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله إلى سلطان المغرب بعد غزو أطريرة، (٢) يصف نتيجة المعركة ، وما كان لذلك من وقع جميل في نفوس المسلمين : "فيا بردها على كبد الإسلام، من نيران مشبوبة، وأوثان مطروحة، وأغلاق مفضوضة ... وباء المسلمون بشفاء الصدور، وسرور القلوب، وقرة العيون."(٣). يتضح من ذلك أن الكاتب عَمَد إلى الإتيان بالفواصل على وزنٍ واحد، دون أن تتفق على رويٍّ بعينه، فمشوبية ، ومطروحة، ومفضوضة على وزن واحد، كما أن الصدور والقلوبه والعيون على وزنٍ واحدٍ أيضاً. كما عمد إلى استعمال الاعتدال بين الجمل، بحيث لا تتجاوز الجملة لفظتين. مستخدماً التقطيع الصوتي في بناء العبارة.

ومن وجوه هذا الأسلوب " .. أن تكون ألفاظ الجزئين المزدوجين مسجوعة، فيكون الكلام سجعاً في سجع"... وهذا الجِنْس إذا سلم من الاستكراه، فهو أحسن الوجوه."(٤)

ومن ذلك ما ورد في رسالة ابن الخطاب الغافقي: " فتلقوا يا معشر أوليائنا هذه البشائر، العاطرة النواسم، الوافرة المقاسم، بالصدور المنشرحة، والثغور البواسم"(٥). فالعاطرة، والوافرة، سَجع، والقواسم والمقاسم سجع. فهو سجع في سجع.

ومن ذلك وصف ظهير ابن عاصم الذي قدمه لقضاء الجماعة، "... فهو وإن تكاثرت المرسومات وتعددت ، وتوالت المنشروات وتجدّدت ، أكبر مرسوم تمّم في الاعتقاد نظراً خطيراً. "(٦) وفي موضع آخر في الظهير ذاته يصف ابن عاصم وما هو عليه بالنسبة لعلماء عصره فهم " ... في زمانه تخرجوا . وفي بستانه تأرجوا، ومن خلقه اكتسبوا، وإلى

---

١ – أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي،محمد أبو الفضل ابراهيم،دار احياء الكتب العربية،مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة ط ١، ١٩٥٢، ص ٢٦١ .

٢ – مرّ التعريف بها .

٣ – ريحانة الكتّاب ١: ١٥٦-١٥٧ .

٤ – كتاب الصناعتين ٢٦٣ .

٥ – مجلة دعوة الحق ٩٣ .

٦ – نفح الطيب ٥: ١٥٥ .

طرقه انتسبوا، وعلى موارده حاموا، وفوق فوائده قاموا، وبتعريفه عرفوا، وبتشريفه شرفوا، وبصفاته كلفوا، وبعرفاتــه وقفوا ... "(١). فتكاثرت وتوالت سجع، والمرسومات والمنشروات سجع، وتعددت وتجددت سجع، وزمانه وبستانه سجع، وتخرجوا وتأرّجوا سجع ... إلخ.

لكن هذا الأمر لم يطرد في الرسالة الواحدة، مثله مثل الأسلوب المُرسل ، فقد أُغرموا في التنويع بين أساليب الكتابة، لكننا نلحظ أن بعض الرسائل غلب عليها التقطيع الصوتـي، والمعادلة بين الفقرات، مثل الظهير الذي قُدِّم به ابن عاصم لقضاء الجماعة.

٣ - <u>الأسلوب المسجوع :</u> وهو الكلام المُقفّى الذي فواصله على روي واحد، مثل فواصل الشعر، (٢) إلا أنها ساكنة الأعجاز، موقوف عليها .(٣)

وقف البلاغيون من السجع مواقف متباينة ، فقد قال أبو هلال العسكري :(٤) " واعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب، هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السجع، فإن جعلتها مسجوعة ، كان أحسن، مالم يكن في سجعك استكراه، وتنافر وتعقيد، وأكثر ما يقع ذلك في السجع، وقلما يسلم إذا طال من استكراه وتنافر". كما قال ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر: (٥)" ...وقد ذمه (أي السجع) بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى لذلك وجهاً، سوى عجزهم أن يأتوا به". وأما حازم القرطاجني فقال : (٦) " إن السجع، لما كان زينة الكلام، فقد يدعو إلى التكلف، فرأيي ألا يستعمل في جملة الكلام، وألاّ يُخلى الكلام بالجملة منه أيضاً ... ولا يحسن في الكلام جميعاً أن يكون على نمط واحد، لما فيه من التكلُّف ولِما في الطبع من الملل عليه، لإن الإتيان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد".

---

١ - نفح الطيب ٦: ١٦٠ .

٢ - أحكام صنعة الكلام ٢٣٥، المثل السائر ١: ٢٧١، لسان العرب، والقاموس المحيط مادة " سجع"، معجم البلاغة العربية ١: ٣٣٧ باب السين ٣٥٠ . و جار الله الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، ٥٣٨هـ، أساس البلاغة، تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ٢٠٣ .

٣ - حُسن التوسل ٢٠٦ .

٤ - الصناعتين ١٥٩ .

٥ - ١: ٢٧١ .

٦ - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب أبو الخوجة تونس ١٩٦٦، ص ٣٨٨-٣٨٩ .

طغى هذا الأسلوب على الأساليب الأخرى، لما فيه من إيقاع موسيقي، محبب للنفس، حتى أصبح زيًّا من أزياء البلاغة، التي يجهد الكُتَّاب أنفسَهم للتمكن منه، وقد وضعوا له شروطاً، منها ما قاله عبد القاهر الجرجاني : (١) "... فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ، ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ... وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلِّم، إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه، أو ما هو لحسن ملائمته – وإن كان مطلوباً – بهذه المنزلة وفي هذه الصورة". أما ابن الأثير فقد شرط بعض الشروط منها "أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة، طنانة، رنانة، لاغثة ولا باردة(٢) " و " أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين، دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها". (٣)

يختلف الأسلوب المسجوع عن الموازنة، أن فيها الاعتدال الموجود في السجع، ولا يشترط تماثل فواصلها كالسجع. فيقال : " كُلُّ سجع موازنة، وليس كل موازنة سجعاً ".(٤)

كان الأسلوب المسجوع هو الشائع في عصر بني الأحمر، فيما ينسج الكتاب من رسائل، لذلك يَعسر علي المرء أن يجد كاتباً غرناطياً لا يسجع. وقد تعددت أفانينهم فيه، وجاءوا بضروب مختلفة، مبرزين مقدرة فَذّة في ذلك، وقد عاب هذا الأسلوب بعض الباحثين في كِتابة الرسالة الديوانية حيث يقول: "... وخلال حركة الجَزْر هذه توقّف شعر الاستصراخ أو كاد، وحل مكانه نَثْر مسجوع سخيف، يفتعله الكُتّاب في الرسائل الرسمية، طافح في الزينة المفتعلة، والصناعة المنهكة،لا يحرك مشاعر،ولا يثير انفعالاً، ولا يحسن تصوير الأحوال والأحداث." (٥) لكن هذا الحكم نسبي، لا نستطيع تعميمه على الكتابة الديوانية كلها. فقد جاءت بعض رسائل الاستنجاد والاستصراخ تتدفق عاطفة صادقة، تثير المشاعر والأحاسيس، عمد الكاتب فيها على تصوير حالة الخوف والذعر والقلق التي تنتاب الأندلسيين أدق التصوير، يخرج منها زفرات ممزوجة بالألم والمرارة.

ومن وجوه السجع التي وردت في الرسائل الديوانية، تعادل مقاطع الكلام، بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر، مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه، (٦) "... واعلم أن السجع إنما هو

---

١ – أسرار البلاغة ٧ .

٢ – المثل السائر ١: ٣٧٦ .

٣ – المصدر نفسه ١: ٣٧٩ .

٤ – المصدر نفسه ١: ٣٧٨ .

٥ – د. الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٠، صفحة ٣٠٦ .

٦ – كتاب الصناعتين ٢٦٢ .

الاعتدال، والاعتدال مطلوب في كل الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع." (١) ففي الرسالة التي بعثها أبو الحجاج يوسف الأول إلى سلطان المغرب بغرض الهناء والعزاء، معوّلاً على السلطان الجديد في مساعدة الأندلس، ضد أعدائها، والذبّ عن حياضها، كون مُلْكه "... مقتبل الشباب، جديد الأثواب، عريق الأنساب، أصيل الأحساب." (٢) نلاحظ أنه وازن بين ألفاظ الفقرات، فجديد، وعريق، وأصيل، على وزن واحد وأثواب، وأنساب، وأحساب، على وزن واحدٍ أيضاً، مع اتفاق هذه الفقرات على روي واحد وهو الباء. كما ورد في رسالة لسان الدين بن الخطيب الذي هنأ فيها الجمهور بفتح أطريرة "فتح هني، وصنع سنيّ، ولُطف خفيّ، ووعد وفيّ." (٣) فإن فتح وصنع ولطف، ووعد على وزن واحد، كذلك هني وسني، وخفي ووفي، مع اجتماعها على روي واحد. ومن ذلك ما ورد في رسالة السلطان*محمد الفقيه يخاطب سلطان المغرب: "فطول علينا بمعلوم حدك، ومشهور جَدك"(٤). فمعلوم ومشهور متوازنان، كذلك حدك، وجدك، مع الإتفاق على حرف الروي. وما في ذلك من جناسٍ أيضاً .

من الأمثلة السابقة يُلاحظ تساوي الفقرات، وقصرها، حيث اقتصر كل مقطع منها على لفظتين اثنتين، وهذا الأمر مستحبٌ في السّجع حيث "قِصرَ الفقرات، تدل على قوة التمكّن، وأحكام الصنعة". (٥)

ومن وجوه السجع التي تأتي بعد الاعتدال منزلة، أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول إذا تعذر الاعتدال(٦)، " لا طول يخرج به الاعتدال خروجاً كثيراً" (٧)، "لئلا يبعد على السامع وجود القافية، فيقل الالتذاذ بسماعها" (٨). وهذا النوع أكثر دوراناً في الرسائل من غيره. ومما جاء فيه ما ورد في رسالة السلطان سعد بن الأحمر في مخاطبة سلطان مصر "سلام كريم، طيب عميم، ينافح شذا الروض الأريج، وقد أفاد مرويّ نهره خَبَر الضَحّاك من زهره بالتخريج، ويحاسن الصبح البهيج، وقد ملأ دم شفقه، وجنة أفقه بالتضريج، يعتمد أبوابكم التي يُلقي عصا التسيار حول مشارعها رَكْبُ المُعيج، وتطوف الآمال بكعبتها طوفان الحجيج. ورحمة الله وبركاته." (٩) وفي رسالة محمد الأحنف " أما بعد حمد الله رب الأرباب، الذي نتمسّك من

---

١ – المثل السائر ١: ٢٧٥ .
٢ – نفح الطيب ٥: ٤٦٤ .
٣ – ريحانة الكتّاب ٢: ٦٣ .
٤ – الذخيرة السنيّة ١٤١ .
٥ – حُسن التوسل ٢١٣ .
٦ – الصناعتين ٢٦٣، حسن التوسل ٢١٣ .
٧ – المثل السائر ١: ٣٣٣ .
٨ – حُسن التوسل ٢١٣ .
٩ – المماليك والفرنج ١٩٢ .

ألطافه الخفية في هذا الثغر الوحيد بأقوى الأسباب، ونَقْرع في الاستنصار بمدده أكرم باب، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي اضمحل به ليل الضلالة وانجاب . "(١) ومن ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله إلى السلطان أبي سالم سلطان المغرب يهنئه فيها بتوليه المُلك: " المقام الذي عالج زمانه الزمن فشفا، وضَمِن له غريم القدر بلوغ الوطر فوفا، وأُسْدِل بإيالته على الأمة لباس الوقاية والعصمة فضفا، واستظهر للدهر بعقوده، طالباً إرث أبائه، وجدوده، فكتب عليه استقل بالواجب واكتفا".(٢)

كما عمد الكتّاب في بناء سجعاتهم إلى ضروب مختلفة، فمنها ما عُقِد على سجعه واحدة، ثم ينتقل منها إلى سجعة أخرى، ويكون مقدار الفقرات المسجوعة على الروي الواحد، حسب ما تلين له القافية، فإذا ما خانته عَدَل عنها إلى سجعه أخرى، وهكذا. وهذا الضرب من السجع هو أسهل الأنواع، وأيسرها، ومن ذلك ما ورد في صدر الظهير الذي خص به محمد الأول ابن مهيب اللخمي: " هذا ظهير كريم، أظهر العناية الحافلة، لمستوحيها ومستحقّها، وأجراه من الرعاية الكاملة على الحُب طرقها، أمر بإحكامه، والتزام العمل بفصوله وأقسامه، الأمير عبد الله محمد بن يوسف بن نصر، نصر الله أعلامه وأدام لإقامة القسط العدل ايامه، لوليه العليّ المكانة، وصفيه المليء بإثرتي المعرفة والديانة، الحري بما اختصه - أيده الله - من الحفظ لمرتبته السامية والصيانة، للشيخ الفقيه ... أبي بكر ... -أدام الله عزة جانبه، ووصل بالعلم والعمل ارتقاء مراتبه-.. "(٣).

يُلاحظ في هذه القطعة أن الكاتب لم يلتزم سجعةً بعينها،بل بنى قطعته على عِدة سجعات، الميم والنون والباء، دون أن تظهر عليه علامات التكلف، وإن كان قصد إلى ذلك قصداً.

وقد يعقد الكاتب مقطعاً كاملاً من الرسالة على رويٍّ واحد. ومن ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله إلى سلطان تلمسان يهنئه فيها بمُلكه:" أما بعد حمد الله مجدّد العهود، ومُنجز الوعود، ومطلع نجوم السعود، ومخول الآباء ميزات الجدود، ومتمم الأمل ومكمل المقصود، الذي أعادكم إلى ملككم، والعود أحمد، إعادة الفضل والجود، وبسر عليكم مرامه على طول الحَوْم على الورود، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله، مصطفاه من هذا الوجود، نبي الرحمة الهامية العهود،وصاحب المقام المحمود،الصادر بالآيات البينات الزاكية الشهود،والمعجزات الثابتة العقود،شفيع الخلائق في اليوم الموعود،وداعيهم على بصيرة من ربّه إلى دار الخلود،فمن

---

١ - المصدر نفسه ١٨٢ .

٢ - ريحانة الكتّاب ١: ٢٨٩-٢٩٤ .

٣ - الإحاطة ٢: ٤٢٠ .

اعتصم في حبْله، أو آوى إلى طلبه تمسك بالسبب المشدود، ولجأ إلى الظل الممدود. والرضا عن آله واصحابه السادة والأسود، الركّع السجود، الذين جمعوا في نَصره بين الوفا والعهود، وفرقوا بين الصوارم والغمود، ورفعوا قبة ملّته، مؤيدة الطنب سامية العمود، والدعاء لسطانكم بالعز الصافي الورود، والسعْد الضافي البرود." (١) لقد أطال الكاتب في اعتماده على سجعة واحدة في هذه القطعة . مما جعله يتكلف بعض التراكيب. كي يوافق بها السجعة المعقودة.

كما استخرج الكتّاب في رسائلهم سجعتين داخليتين من كل سجعة، كضربٍ آخر مما تفننوا فيه في إعمال السجع. ومن ذلك ما ورد في رسالة محمد الفقيه في فتح قيجاطة. "من الأمير فلان، ايده الله ونصره ... إلى ابننا الذي نمنحه الحب والرضا ... محمد والى الله تعالى اسعاده، وتولى بالتوفيق، والإرشاد سداده، وأطلع عليه من أنباء الفتوح، المبشرة بالنصر الممنوح، ما يكمل من بغيته في نصر دين الإسلام ويسني مراده .

أما بعد حمد الله، الذي جعل الجهاد في سبيله أفضل الأعمال. الذي يُقَرِّبُه إلى رضاه. وندب إليه، بما وعد من الثواب عليه، فقال يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ... والصلاة والسلام على نبيه ورسوله ومجتباه، لهداية الخلْق ، لسلوك سبيل الحق ، والعمل بمقتضاه."(٢)

يتضح من النص أن الكاتب استخرج في كل مرة سجعتين داخليتين .. من كُلّ سجعةٍ أصيلة، ففي المرة الأولى استخرج سجعتين على حرف الحاء "الفتوح الممنوح" داخل السجع المعقود على الدال. كذلك فعل في المرة الثانية حين استخرج "إليه وعليه"، واستمر في المرة الثالثة في استخراج سجعتين على حرف القاف "خلق ، حق" ففي كل مرة بعد أن يأتي بالسجع الداخلي يعود ثانية إلى ما جعله أساساً لبناء سجعته .

ومن ذلك ما ورد في صدر رسالة سعد بن الأحمر إلى سلطان مصر: " الأبواب التي اعتلى في العز معراجها، وتجلّى في سماء البسيطة، وأفق الأرض المحيطة، شمسها المنير وسراجها، وعُلم بإرشادها وتأييدها للجهاد وإمدادها ، طريق الخيرات ومنهاجها، وقام بإمْرَة الحرمين الشريفين شاهدها على الفخار واحتجاجها." (٣) في هذا النص استخرج الكاتب سجعتين داخليتين في كل سجعة أصلية، فقد بنى سجعته على حرف الجيم، ثم استخرج في المرة الأولى سجعتين على حرف الطاء -البسيطة والمحيطة- ثم عاد ثانية إلى حرف الجيم. ليستأنف استخراج سجعتين أخريين على حرف الدال -إرشادها وإمدادها-ويعود بعدها إلى حرف الجيم.

---

١ - ريحانة الكتّاب ١: ٢٧٠ والرسالة في ١: ٢٦٩-٢٧٢ .

٢ - الإحاطة ٢: ٤٦٦ .

٣ - المماليك والفرنج ١٩١ .

ومن ذلك ما ورد في الظهير الذي قُدّم فيه ابن عاصم لقضاء الجماعة وأمور أخرى، في ذِكْر مآثره "... وإلى مرتبته تنتهي مراتب الاختصاص، فيمن حاز فضلاً، وزيّن حَفْلاً، وشَرُف ندياً. واستكمل همما، واستحمل قلماً، واستخدام مشرفياً. فلله ما أعلى قدر هذا الشرف، الجامع بين المُتّلد والمُطّرف، السابق في الفضل أمداً قصيّاً. الحالُ من الاصطفاء مظهراً، الفارع من العلاء منبراً، الصاعد من العزّ كرسيّاً ".(١) نلاحظ في هذا النص أن الكاتب لم يترك موضعاً إلاّ واستخرج منه سجعتين داخليتين، فقد اعتمد حرف الباء المشدّدة مركزاً لسجعته، ثم أخذ يستخرج بالسجعات الأخريات. ففي المرة الأولى استخرج سجعتين على حرف اللام "خصلاً ، حفلاً"، وفي المرة الثانية على حرف الميم " همَمَا، قلماً"، وفي المرة الثالثة على حرف الفاء "الشرف، المطرف"، وأخيراً على حرف الراء "مظهر ، منبراً". وهذا الضَّرب من السجع يتردد كثيراً في الرسائل الديوانية، على تفاوت وفوره من رسالة لأخرى، حسب ما تسعف الكاتب مقدرته، وقريحته، في تعمّل هذا الضَّرب. مع بروز ظاهرة التكلف -غالباً- عليه. (٢)

وهناك ضَرْبٌ آخر من السّجع ظهر في بعض الرسائل (٣)، وهو استخراج ثلاث سجعات داخل السجعة الواحدة بدلاً من اثنتين، وهذا الضرب من السجع لم يتأتّى إلا لمن حَذِق الصّناعة، وتفقّه فيها. وهو أشدُّ صعوبةً من سابقَيه، لحاجته إلى عارضة كبيرة من البلاغة واللغة. ومن هذا النوع ما ورد في رسالة الغني بالله إلى سلطان المغرب يهنئه بشفائه من مرض ألمَّ به :(٤) "المقام الذي شَفَيَ المَجْدُ والكَرَمُ بشفائه، وعاد جَفْنُ المِلّة بأنباء عِصْمته المستقيلة إلى إغفائه، ويلقي السرور ضيف البشارة المختالة، من خبر راحته في أجمل الشارة، باحتفائه واعتفائه، وثبت للدين الحنيف، ما فرَّج به من التعريف، دليل السعد المنيف، وقد تطرق القياس الجلي إلى انقضائه، فعاد مَوْرِد اليُمْنِ إلى صَفائه، وتبرَّأ الدهر من ذنبه وعاد إلى وفائه. "(٤). ففي هذا النص بنى الكاتب سجعته على الهمزة، واستمر عليه قليلاً، ثم جاء بثلاث سجعات على حرف الفاء، لكنه قَصُرَ به النَّفَس، فعاد إلى السجعة الأصلية، دون أن يعود إلى هذا الضرب. كما يلاحظ مدى التكلّف التي بدى علىهذه التراكيب والعناء في سَبْكها.

وثمة ضرب آخر من التصعيب في السجع، اشد تعقيداً، وتكلفاً، وهو أن تُبنى السجعة على حرف بعينه ثم ينحرف عنه الكاتب إلى عِدّة سجعات متباينة، وبعدها يعود إلى ما ابتدأ به من السَجْع. ومن ذلك ما ورد في الظهير المخصوص بابن عاصم: "هذا ظهير كريم إليه انتهت

---

١ - نفح الطيب ١٥٦ .　　٢ - انظر صفحة (١٠٧) و صفحة (١١٩).

٣ - انظر صفحة (١١٩).

٤ - ريحانة الكتّاب ١: ٣٢١ .

الظهائر شرفاً علياً ... فهو وإن تكاثرت المرسومات وتعددت، وتوالت المنشورات وتجدّدت، أكبر مرسوم تمَّم في الاعتقاد نظراً خطيراً، وأحكم في التفويض أمراً كبيراً، وأبرم في الاستخلاص عَزْماً أبيّاً. اعتمد بمسطوره العزيز، واختصّ بمنشوره الذي تلقّاه اليُمْن بالتعزيز، مَنْ لم يزل بالتعظيم حقيقاً وبالإكبار خليقاً، وبالإجلال حَرِيّا. فهو شهير لم يزل في الشُهْرة سابقاً، هاد لم يزل بالهدى ناطقاً، بليغ لم يَزَلْ بالبلاغة درياً ... فما أشرف الملك الذي اصطفاه، وكمّل له حق التقريب ووفّاه، وأحلّه قرارة التمكين، ومَنّ اختصاصه بالمكان المكين، فسبق في ميدان التفويض وشأى، ورأى من الأنظار الحميدة ما رأى ، صادعاً بالحق إماماً علَماً، موضّحاً من الدين نهجاً أمَمَا، هادياً من الواجب صراطاً سوياً. بانياً للمجد صرحاً مشيداً، مُشْهِراً للعَدْل قولاً مؤيداً، مبرماً للخير سبباً قويّاً. فلله تعالى يصل لمقام هذا الملك الذي طلع في سمائه بذراً دونه البدور، وصدراً (١) تلوذ به الصدور. سَعْداً لا تَمْطله الأيام في تقاضيه، ونَصْراً يمضي به نَصْل الجهاد، فلا يزال ماضيه، على الفتح مبنيًا. ويوالي له عِزّاً عن حُرَم الدين، ويمنحه تأييداً، يُصبح في أعناق الكفر حديث سيفه قطعياً." (٢)

يتضح من هذا النص أن الكاتب راوح في سجعاته، جاعلاً روياً واحداً قفْلاً لها، وهو الياء. فما أن يذكر السجعة الأولى يتبعها بعدّة سجعات متباينة، يعود بعدها إلى الروي الأصلي، متدرجاً بذلك من الصعب إلى الأصعب في كثرة السجع الداخلي، ففي المقطع الأول يتبع السجعة أربع سجعات، كل اثنتين على روي واحد. "تعددت، تجددت" ثم "خطيراً، كبيراً"، وينتهي بالروي الأصلي، ثم يبدأ من جديد في إعمال السجع الداخلي بمثل ما عمل في المقطع الأول "العزيز، التعزيز" و حقيقاً، خليقاً"، وينهي المقطع بالروي الأصلي. لكنه يَثْقُل عليه الأمر، فيعود لاستخراج سجعتين اثنتين في الفقرة الثانية : "سابقاً ، ناطقاً". مع المحافظة على الروي الأصلي في خَتْم المقطع . ثم يعود بعد ذلك ليحشُد عِدّة سجعات في المقطع الذي يليه، فيستخرج ثمانية سجعات جديدة، "اصطفاه، وفاه" و "التمكين، المكين" و "شأي و رأي" و"عَلَماً، أمَمَاً"، وينهي المقطع بسجعة على الروي الأصلي، وهكذا يستمر إلى نهاية النَص.

كما يبدو على الكاتب الاغراق في التكلُف، مُتعسّفاً في التراكيب، مما أدى إلى شحوب منظر المعاني والصور، خاصة حين يُكثر من السجع الداخلي. كما أن المُباعدة بين السجعة الأصلية وأختها، تجعل القارىء يفقد نشاطه، وتؤدي به إلى الملل، بسبب قطع حبل التدَفُق الموسيقي المُتولّد من السجع عادة، ولرُبما أذهب حلاوته من نفس القارىء، وكأن الكاتب يريد أن يدلّل على مبلغ تفننه وجَوْدة ترسّله في هذا النص .

---

١ - هكذا ورد في نفح الطيب، وصوابه "بدر وصدر" لإنه فاعل .
٢ - نفح الطيب ٦: ١٥٥-١٥٦

الاقتباس والتضمين :

كان كتاب بني الأحمر يميلون إلى تضمين رسائلهم بما تيسّر لهم من الموروث الثقافي العربي الإسلامي، من اقتباس قرآني، أو استشهاد بحديث نبوي شريف، أو تضمين للشعر، أو استعمال لمثل سائر، كلٌ حسب ما يقتضيه الحال. وما يناسب المقام.

القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف :

الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ركن رئيس من أركان الكتابة الديوانية: فلا "يجوز أن يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم، والأخبار النبوية الشريفة، فإنها معدن الفصاحة والبلاغة" (١)، "وقد تقوم الآية المُستشهد بها في بلوغ الغرض، وتوفيّة المقاصد، مالا تقوم به الكتب المُطوّلة". (٢)

كان القرآن الكريم مَرْتعاً ينهل منه الكتّاب، ويدبّجون فيه رسائلهم ، وقلّما نجد رسالة ديوانية، إلا وهي موشحة بآية قرآنية كريمة، سواء بنصها الكامل، أم جاء بها الكاتب بطريقة بارعة تنم عن مهارة فائقة وأدرجها في كلامه ، لتبدو كأنها جُزءٌ منه، مستحضراً آية مناسبة لموضوعه، مواتية لسياق كلامه. لذلك بدا الأثر القرآني واضحاً جلياً في رسائلهم. وقد اتخذ الكتّاب منحيين اثنين في الإفادة منه، أولهما تضمين الآية بنصها الكامل أو جزء منها، والآخر حلّها مع المحافظة على شيء من ألفاظها،(٣) "لعدم القُدرة على مماثلتها، ومشابهتها". (٤)

ومما ورد من اقتباس قرآني، مع الإشارة لوجود الآية، والتنبيه لها، في رسالة السلطان محمد الفقيه إلى سلطان المغرب "... ونحن نستغيث بالله العظيم، وبملائكته المسوّمين، ثم بكم على الكافرين فقد قال تعالى، وهو أصدق القائلين:[قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويُخْزِهم، وينصركم عليهم، ويشفِ صدور قوم مؤمنين]. (٥)(٦) وفي رسالة للسلطان محمد الفقيه في فتح قيجاطة: "أما بعد حمد الله الذي جعل الجهاد في سبيله أفضل الأعمال، .. وندب إليه بما وعد من الثواب عليه، فقال :[يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال] (٧) تنبيهاً على محل الثقة، بان الفئة القليلة من أوليائه، تغلب الفئة الكثيرة من أعدائه، وتدارك دين الإسلام بإنجاز وعده في قوله: [ولينصرن الله من ينصره] (٨) على الرغم من ظنّ أنه خاذلنا، تعالى الله عن خذلان جُنده".(٩)

---

١ – المثل السائر ١: ١٢٤ . ٢ – حُسن التوسل ٧٦ .

٣ – ابن الأثير ، ضياء الدين، الوشي المرقوم في حل المنظوم ، تحقيق د. جميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٨٩، ص ١٧٥ . والمثل السائر ١: ١٧٠ .

٤ – الوشي المرقوم ١٧٤ . ٥ – سورة التوبة ١٤ . ٦ – الذخيرة السنية ١٤١ .

٧ – سورة الأنفال ٦٥ . ٨ – سورة الحج ٤٠ . ٩ – الإحاطة ٢: ٤٦٦ .

ومن ذلك ما ورد في رسالة سعد بن الأحمر إلى سلطان مصر : "..... فنحن نستغيث بنصرتكم، فنقول : ياولي المسلمين ... نحن والله مقيمون في سفط واحدٍ من الحيات ... فحسبُنا الله ونعم الوكيل، كلمة المستسلمين لأمره، .... الواقفين لجموع هذا المشرك الذي لجَّ في طغيانه وكفره، اقتداءً بما أنزل الله في كتابه المبين، إذ يقول وهو أصدق القائلين : [الذين قال لهم الناس، إن الناس قد جمعوا لكم، فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفَضْلٍ لم يمسسهم سوء، وابتغوا رضوان الله، والله ذو فضلٍ عظيم](١)، (٢).

ومن طرائق تضمين القرآن الكريم، ذكر الآية دون الإشارة إليها، بل توضع في درج الكلام، سواء أكانت الآية بنصها الكامل، أم جزءٍ منها. ومن ذلك ما ورد في رسالة أبي الحجاج يوسف الاول الى سلطان المغرب يعلمه فيها بالصلح مع النصارى : "... ولا يخفى على مقامكم حاجة هذه البلاد في الوقت إلى هدنة، يُستدرك بها رمقها، لِما لقيته من جهد الحرب ، وما حلّ بها في هذه السنين من القحط والجدب، فالصلاح بحمد الله في هذه الحال ، بادي الظهور [وإلى الله عاقبة الامور] " (٣)، (٤) .

ومن ذلك ما ورد في رسالة السلطان سعد بن الأحمر : " ... ولا يأس مع روح الله، وفي الله مطمع، وقد توقف لنصرتكم قلب ومسمع، [فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده](٥) ولا يخذلنا من معونته، فأن يخذلنا فمن ذا الذي ينصرنا من بعده ، [وسيجعل الله بعد عُسْرٍ يسرا] (٦) ولا يكون كل من يخاف منه [لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً] (٧) (٨).

ومن ذلك في رسالة محمد الفقيه في فتح قيجاطة في وصف الغنائم : " ... ونقلنا على ايدي قوادنا ورجالنا، من السبايا والغنائم، ما عُدَّ ذكرُه في الآفاق كالمثل السائر [وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها] (٩)، وكيف يحصيها المُحصي أو يحصرها الحاصر". (١٠)

---

١ – سورة آل عمران ١٧٣، ١٧٤ .

٢ – المماليك والفرنج ١٩٥ .

٣ – سورة لقمان ٣١ .

٤ – نفح الطيب ٤٦١ .

٥ – سورة المائدة ٥٢ .

٦ – سورة الطلاق ٧ .

٧ – سورة الطلاق ١

٨ – المماليك والفرنج ١٩٦ .

٩ – سورة إبراهيم ٣٤ .

١٠ – الإحاطة ٢: ٤٦٨ .

والوجه الآخر في تمثّل القرآن الكريم، حَلُّ الآيات الكريمة، مع بقاء شيء من لفظها، ومن ذلك ما ورد في رسالة أبي الحجاج يوسف الاول التي بعثها الى سلطان المغرب يصف فيها النصارى : "... واعلموا أيدكم الله -أن النصارى- كما قررتم- أمة تجادل في الحق بعد بيانه" .(١) اشارة الى الآية الكريمة : " يجادلونك في الحق بعد ما تبين ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون " .(٢)

وفي رسالة اخرى من أبي الحجاج الى سلطان المغرب في عَرْض الصلح مع النصارى : "... وإلى هذا ... فقد تقدمت مطالعة مقامكم، أن ملك قشتالة، نَسَّ مَنْ يتحدّث في عقد صلح، يعود بالهدنة على البلاد ... فلما دار الحديث في هذا الحكم ، ظهر منه أنه جنح للسلم " .(٣) فقد اشار الى الآية الكريمة " وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله " .(٤)

ومن ذلك ما ورد في رسالة محمد الفقيه في فتح قيجاطة : " ... والصلاة والسلام على نبيه ورسوله ومجتباه ... صلى الله عليه وسلم، وعلىّ آله الأبرار، وأصحابه الأشداء على الكفار الذين جردوا في نصرة دينه ، صوارم العزم، وأمضوا ظباه " .(٥) اشار فيها الى الآية الكريمة : "محمد رسول الله والذين معه، أشداء على الكفار رحماء بينهم " .(٦) كما أشار الى آية اخرى في الرسالة ذاتها : "... وقد تقرر عند الخاص والعام ... أنا لم نزل نبذل جهدنا في أن تكون كلمة الله هي العليا، ونسمح في ذلك بالنفوس والأموال، رجاء ثواب الله .... وسمحنا بالطارف من أموالنا والتلاد ... واشترينا بما أنعم الله علينا، ما فرض الله على كافة أهل الاسلام من الجهاد .(٧) أشار فيها إلى الآية الكريمة " أن الله اشترى من المؤمنين انفسهم ، وأموالهم بأنّ لهم الجنة " .(٨)

ومن ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله الى سلطان المغرب ، يشكره فيها على الهدية التي بعثها، واصفاً لها : " ... ويالها من هدية اتخذ الناس يومَها عيدا، وموسماً سعيداً، وعزما رآه العدو قريبا ، وكان يحسبه بعيدا .... من كل طَرْفٍ وُسِم بالصباح منه جبين، ناش في الحلية، وهو في خصام الحرب مبين "(٩).أشار فيها الى قوله تعالى:"انهم يرونه بعيداً،ونراه قريبا "(١٠) وقوله تعالى : " ومن ينشأ في الحلية ، وهو في الخصام غير مبين" (١١).

---

١ – كناسة الدكان ١١١ . ٢ – سورة الأنفال ٥ .
٣ – نفح الطيب ٥: ٤٦٠ . ٤ – سورة الأنفال ٨ .
٥ – الإحاطة ٢: ٤٦٦ . ٦ – سورة الفتح ٢٩ .
٧ – الإحاطة ٢: ٤٦٧ . ٨ – سورة التوبة ١١١ .
٩ – كناسة الدكان ١١١ . ١٠ – سورة المعارج ٦، ٧. ١١– سورة الزخرف ١٨ .

والملاحظ أن حلّ الآيات الكريمة، واعادة صياغة معناها، كانت أكثر دورانا وشيوعا في الرسائل من الاقتباس، لما لذلك من حرية للكتّاب في التصرف في الألفاظ والتراكيب، منفكين من عناء أخذ الاية بنصها، مما يستوجب -أحياناً- تكلف بعض الجمل والعبارات التي ستدمج فيها الآية. ولربما رأى الكتّاب في ذلك أكثر ابداعا، ومقدرة على ابراز مهاراتهم ومواهبهم الكتابية.

أما الاحاديث النبوية الشريفة فكانت أقلّ استعمالا في الرسائل الديوانية، اذا ما قيست بالآيات القرآنية الكريمة، وقد فضلوا من الاحاديث ما يتصل بالسِّير والمغازي، والأحكام، لينفق منها الكاتب على سعة. (١)

ولا يشترط الاقتصار على الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، المُراد استعمالها في الرسائل" ... طلباً للاستكثار من المعاني التي تقتضيها الحوادث الطارئة، والوقائع المتجددة".(٢)

كما أن الحكم في تضمين الحديث النبوي الشريف، أو حلّه يجري مجرى الآيات القرآنية، مع تفضيل البقاء على ألفاظها عند حلّها. (٣)

ومن الرسائل التي وردت فيها الأحاديث الشريفة، رسالة السلطان محمد الفقيه الى سلطان المغرب يستنجده فيها : " فابعث باعث بعثك الى نصر مناره، واقتباس نوره، وعندك من جنود الله مَنْ يشتري الجنّات بنفسه، ويحضر الحرب بإماتة، فان شئت الدنيا، فالأندلس قطوفها دانية، وجناتها عالية، وان اردت الاخرة فها جها د لا يفتر ، وهذه الجنة اذ خرها الله لظلال سيوفكم، واحتمال معروفكم "(٤). فقد اشار في ذلك الحديث النبوي الشريف "الجنة تحت ظلال السيوف". (٥)

ومن ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله إلى صاحب تونس يشكره فيها على الهدية: "... أما بعد حمد الله الذي اخفى حكمته البالغة عن أذهان البشر فعجزت عن قياسها ، وجعل الأرواح جنودا مجندة -كما ورد في الخبر- تحن الى أجناسها" .(٦) يشير فيها الى الحديث النبوي

---

١ – حسن التوسل ٧٨ .

٢ – الوشي المرقوم ١٩٧ .

٣ – حسن التوسّل ٨٠ .

٤ – الذخيرة السنيّة ١٤١ .

٥ – الإمام البخاري، صحيح البخاري، دار احياء التراث العربي ، بيروت ٤: ٢٦، وفي موضع آخر " واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" ٢: ٢٧ .

٦ – ريحانة الكتّاب ١: ١٨١ .

الشريف : " الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منهـا ائتلـف، ومـا تنـاكر منهـا اختلـف". (١) وفـي الرسالة نفسها يصف غزو قرطبة : " ... فأعملنا اليها السُـري والسـير ، وقدنـا إليهـا الخَيْـل، قـد عَقَد الله في نواصيها الخير " .(٢) فقـد أشـار إلـى الحديث النبـوي الشـريف " الخيـل معقـود فـي نواصيها الخير الى يوم القيامة " .(٣)

لقد جاءت الاحاديث النبوية الشريفة متوافقة مع الموضوع الذي ادرجت فيـه ، كمـا انهـا منسجمة مع السجع المعقود في هذه الرسائل .

الشعر :-

لم يكن الشّعْرُ كثير الدوران في الرسائل الديوانية، لما تحمله مـن طـابع سياسـي واداري، وانما اقتصر وروده على مواضع معينة، مثـل البشائر، والفتوحات والشكر والاستنجاد، بينمـا لا نجده في الظهائر الرسمية. أو المعاهـدات، ومـا شـاكلها. وقـد استحسـنوا ايـراده فـي مخاطبـة الملوك :" إلى من ضاهاهم في أبهة المُلْك . وقـاربهم فـي علـو الرتبـة ... تطريـزاً للنـثر بـالنظم، وجَمْعاً بين جنسي الكلام اللذين هما خلاصة مقاصده". (٤) إلا أنه " ربما وقع التمثيل بالشعر فـي المكاتبات عن الخلفاء والملوك إلى من دونهم وبالعكس". (٥)

كما اتخذ الكتَّاب في تضمين الشعر او نثره طرائـق متعددة، فمنهـا مـا جـاء بيت الشعر كاملا، ومنها ما جاء عجزه أو صدره. ومنها ما جاء بمعناه وادرج في الكلام، مع المحافظة علـى بعض ألفاظه، إلا أنهم اجازوا في حلّـه، وصياغتـه بألفـاظ غير لفظـه (٦)، علـى خـلاف مـا هـو موجود في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريـف .

ومن الرسائل التي وردت فيها الأبيات الشعرية، رسالة محمد الفقيه الى سلطان المغرب : "أمـا بعد فان الله تعالى أيد بالاتفاق والائتـلاف، وانعـم علـى عبـاده بدولتكم السـنية، واظهـار جنودكـم المرينية الذين هم في حرب الأعادي أولو بأس شديد :

---

١ – صحيح مسلم بشرح النـووي، دار احيـاء الـتراث العربـي، بيروت، طـ ٣، ١٩٨٤، ١٥: ١٨٥، وصحيـح البخاري ٤: ١٦٢ .

٢ – ريحانة الكتّاب ١: ١٩٨ .

٣ – صحيح البخاري ٤: ٣٣-٣٤، وفي صحيح مسلم ١٣: ١٦ "الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة".

٤ – صُبح الأعشى ٦: ٢٩٥ .

٥ – المصدر نفسه ٦: ٢٩٥ .

٦ – المثل السائر ١: ١٣٢ .

مرينَ جنودُ الله أكْبَرَ عصبةٍ   فهم في بني أعْصارهم كالمواسم

مُشَنَّفةٌ أسماعُهم بمدائحٍ   مسوّرةٌ أيْمانُهم بالصَّوارِمِ " (١)

ومن ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله إلى صاحب مكة، يعلمه فيها بجملةٍ من الفتوحات:"... وقد ظهر لنا أن نوجه إلى المدينة المقدسة ... رسالة تعرف بهذه البركات الهامية... وأنتم تعلمون في توفيّة هذه الأحوال ورعايتها وابلاغها إلى غايتها، ما يليق بحسبكم الوضّاح ... "فأنتم خير من ركب المطايا   واندى العالمين بطون راح. "(٢) فقد أخذ الكاتب بيت جرير في مدح عبد الملك بن مروان (٣) وابدل اللفظة الأولى في البيت "ألستم" بلفظة أخرى على الوزن نفسه "فأنتم" كي يتناسق السياق، مع مراعاة عدم الاخلال بالوزن العروضي.

ومن ذلك رسالة الغني بالله الى سلطان تونس، يصف الخيول المهداة : "وقرطاسي حقه لا يجهل، متى ترقُ العين فيه تسهل (٤)، إنْ نُزِع عنه جلُه فهو نَجْم كلُه".(٥)

وفي موضع آخر من الرسالة يقول : " ... فكم بين الشاهد والغائب، والفروض والرغائب، وفرق بين الاثر والعيان، غني عن البيان، وشتان بين الصريح والمشتبه، ولله در القائل : " خذ ما تراه ودَع شيئا سمعت به " (٦)، (٧).

ومن الرسائل التي يدور فيها الشعر محلولا، رسالة سعد بن الأحمر الى سلطان مصر:"...أما بعد حمد الله الذي اوضح لنا من التعاون على البر والتقوى، سُبُلاً شريفة الآثار،وجعل التوكل عليه كفيلاً بإقالة العثار ، وأدرك الثار ، ونظم النثار...الذي وصّى بالصبر، وجعله مقدمة

---

١ – الذخيرة السّنية ١٤١ .

٢ – صُبح الأعشى ٧: ٥٧-٥٨ .

٣ – شرح ديوان جرير، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص ٧٤ . والبيت من قصيدة مطلعها :

أتصحو لم فؤادك غير صاحٍ   عشية همَّ صحبك بالرواح

٤– عجز بيت لامريء القيس، وصدره: "ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه . انظر : شرح ديوان امريء القيس ، دار بيروت ، ودار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ٥٩

٥– ريحانة الكتاب ١: ١٨٦ .

٦– صدر بيت لأبي الطيب المتنبي ، وعجزه : "في طلعة البيت ما يُغنيك عَنْ زُحلِ". انظر ديوان المتنبي، بشرح العُكبري، ضبطه وصححه ووضع حواشيه مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، أُعيد طبعه عام ١٩٧٨م ، ٣ : ٨٠ .

٧– ريحانة الكتّاب ١: ١٨٧ .

الايثار، اذ ومضت بروق السيوف في سُحُب النَّقع المُثار ". (١) أشار فيه الى بيت بشار بن برد الذي يقول فيه : (٢)

كأن مُثار النَّقع فوق رؤُوسنا وأسيافُنا لَيْلٌ تهاوى كواكبُه

وفي وصف قرطبة من رسالة الغني بالله الى صاحب تونس : "ثم تأهبنا إلى أم القرى الكافرة ... قرطبة ، وما أدراك ماهية، ذات الأرجاء الحالية الكاسية ... حيث هالة بدر السماء قد استدارت من السور المشيَّد البناء دارا .. وفلك الدولاب، المعتدل الانقلاب، قد استقام مدارا، ورجّع الحنين اشتياقا الى الحبيب الأول، وادكارا". (٣) يشير إلى بيت أبي تمام :

نَقّل فؤادك حيثُ شئت من الهوى ما الحُبُّ إلاّ للحبيب الأول (٤)

وفي كل هذا نجد ان الكاتب في افادته من الشعر، قد وافق بينه وبين السجعة المعقودة، غير أن المُستحبُّ في تضمين الشعر" أن يوافق الكاتب بين قافية البيت والسجعة، اذا كان البيت له، ليُعلِم بأن هذا الشعر له، وإذا ضَمّن أشعار غيره، خالف السجع والقافية وهذا أحسن . يجب أن يمتثله من أراد إحكام صنعة الكلام". (٥)

الأمثال العربية القديمة : -

كان للأمثال العربية حظ في الرسائل الديوانية، وكانت غايتها التمثل بها ، بما تحويه من تجارب كبيرة ، تجعل الأمور مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مَضمونة إلى نتائجها ،وتصريف القول فيها . إذْ " المثل مقرون بالحجة" (٦) . وقد ذكر القلقشندي أنه " اذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال الشائع استعمالها، انقادت إليه معانيها. وسيقت إليه ألفاظها في وقت الاحتياج الى نظائرها من الوقائع والاحوال،فأودعها في مكانها، واستشهد بها في موضعها".(٧) إلا أنه لا يُقرّ بجواز تبديل ألفاظها عند الاستعمال " لأنها بذلك قد عُرِفَت واشتُهِرت ".(٨)

---

١ - المماليك والفرنج ١٩٢ .

٢ - ديوان بشار بن برد، تحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر .، ١٩٧٨ ، ١ : ٣٣٤

٣ - ريحانة الكتّاب ١: ١٩٦-١٩٧ .

٤ - ديوان أبي تمام بشرح التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر ١٩٦٥، ج ٤ : ٣٠٣

٥ - أحكام صنْعة الكلام ٦٢ .

٦ - د. بدوي طبانة ، معجم البلاغة العربية، دار العلوم للطباعة والنشر ، ط ٢، ١٩٨٢، ٢: ٨١٦ .

٧ - صُبح الأعشى ١: ٣٥٣-٣٥٤ . ٨ - المصدر نفسه ١: ٣٥٤ . كما أن علي بن خلف لم يقرّ تبديل الألفاظ ، مواد البيان ١٨٧

كما أنّ شهاب الدين الحلبي لم يُقرّ تغيير الألفاظ، لكنه أجاز حلّها شريطة الاضافة إليها. (١)

ومن هذه الأمثال ما ورد في ظهير لولاية مشيخة الغزاة، فمن مسوغات هذا الظهير : "...لما قامت البراهين الصادقة، على كرم شِيمه، ورسوخ قدمه، وجنى منه عند الشدة، والتمحيص، قابل بالرعي كرام نِعَمِه (٢)، وعظام (٣) خدمه، وشد اليد على عهده الذي عرفه، حين انتكث العقد،واخلق المعتقد، واستأسد النَّقَد " (٤) اشار في ذلك الى المثل القائل : " أذل من النَّقَد". (٥)

ومن ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله الى الجمهور في مجال الوعظ والارشاد:" ... فمن كان ذا سعة، فليقم لله بما استطاع من حقه... ومن لم يحسن الرمي فليتدرب، وباتخاذ السلاح الى الله فليتقرب، فقبل الرمي تراش السهام (٦)، وعلى العبد الاجتهاد، وعلى الله التمام". (٧)

ومن ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله الى صاحب تونس ، فمثلا يقول في معرض حديثه عن الهدية :(٨) " لو علمنا أيها الملك الاصيل ... أن الثناء يوازيها، لَكِلْنا بكيلك .. أو قلنا هي التي أشار اليها مستصرخ سلفك ... حيث شَرَق بدمعه الشَّرَق ، واتسع فيه – والحكم لله– الخَرق". يشير فيها الى المثل القائل : " اتسع الخرق على الرّاقع" .(٩)

وفي وصف قرطبة يقول : (١٠) ".... فما شئت من جو بقيل... والوطن الذي ليس فيه عمر وزيد، والفرا الذي في جوفه الصيد". ينظر إلى المثل القائل : " كل الصيد في جوف الفرا ". (١١)

---

١ – الوشي المرقوم ٥٨ .

٢ – في صبح الأعشى "كرائم" ١١: ٥.

٣ – في المصدر السابق " عظائم " ١١: ٥ .

٤ – ريحانة الكتّاب ٢: ٦٧ .

٥ – مجمع الأمثال، ١: ٢٨٤، والنَّقَد بالتحريك السّفل من الناس، وضَرْب من الغنم قِصار الأرجل قِباح الوجوه".

٦ – في مجمع الأمثال ٢: ١٠١ " قبل الرمي يراش السهم". يضرب في تهيئة الالة قبل الحاجة إليها .

٧ – ريحانة الكتّاب ٢: ٤٦ .

٨ – ريحانة الكتّاب ١: ١٨٨ .

٩ – تاج العروس مادة " خرق" ويقال المثل عند استفحال الأمر، والعجز عن اصلاحه.

١٠ – ريحانة الكتّاب ١: ١٩٨ .

١١ – مجمع الأمثال ٢: ٥٥ .

وفي وصف الحركة إلى أُطريرة (١) : " .... ثم أعملنا إلى أطريرة ... وغُدنا والأرض تموج سبياً ... وصُبح السُّرى قد حُمد من بعد المسرى". يشير إلى المثل : " عند الصباح يحمد القومُ السُّرى ". (٢)

الايجاز والاطناب :-

الايجاز والاطناب معنيان متضادان ولكل واحد منهما موضعه، لا يحسن فيه غيره، "فالحاجة الى الايجاز في موضعه، كالحاجة الى الاطناب في مكانه". (٣)

فحدُ الايجاز أن يكون اللفظ دالا على المعنى، من غير نقصان فيَمِلّ، ولا زيادة فيَخلّ.(٤) وقد عرفه ابو هلال العسكري بأنه " قصور البلاغة على الحقيقة، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل، داخل في باب الهذر والخطل، وهما من اعظم ادواء الملوك، وفيها دلالة على بلادة صاحب الصناعة ."(٥) أما الكلاعي فقد ذكر ان "الإيجاز يخاطب به أهل الرتب العالية، والهمم السامية لأن قراءة الكتب كلفة، والواجب تخفيف التكلف عن الاكابر والملوك". (٦) لكننا لا نلمح هذه السمة في رسائل بني الاحمر، التي غلب عليها الاطالة والاطناب في مخاطبة الملوك والسلاطين. إنما غلب الإيجاز على بعض الرسائل، ولا سيما ما يتعلق بالمعاهدات، التي كان هَمُّها ايصال الفكرة بأوضح العبارات، وكونها يُخاطب بها الأعاجم، ممن لا يفقهون العربية، وليس لهم حظ من البلاغة .

وبعض رسائل الاستنجاد ، مثل رسالة السلطان محمد الفقيه الذي استنجد بها سلطان المغرب، فقد جاءت الفاظها دالة على معانيها، فمثلا يقول في مقدمة الرسالة :(٧) "إلى الملك المؤيد بفضل الله العادل، الهمام، ذي الشيم، المحمودة و الاهتمام، أمير المسلمين، وناصر الدين، المجتهد في اقامة دعوة الحق ، أبي يوسف ابن عبد الحق ، نَوّر الله تعالى به الافاق، وجَمّل ببهائه الجيوش والرفاق ، من وليّه ومُحبّه في الله تعالى، المستجير برحمة الله تعالى وعونه ، والمبتهل له

---

١ – ريحانة الكتّاب ١: ١٩٢ .

٢ – أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، تحقيق د. احسان عباس ، و د. عبد المجيد عابدين، دار الأمانة، ودار الرسالة ، بيروت ط ٣، ١٩٨٣، ص ٢٥٤و ٣٣٤، ومجمع الأمثال ٢: ٣٠٤، ويضرب المثل للرجل يحتمل المشقة رجاء الرّاحة .

٣ – معجم البلاغة العربية ١: ٤٧٥ .   ٤ – الصناعتين ١٧٣ .

٥ – احكام صنعة الكلام ٩١   ٦ – المصدر نفسه ٩١   ٧ – الذخيرة السنيّة ١٤٠ .

بالدعاء في ائتلاف كلمة الإسلام ، وصلاح شأنه، محمد بن محمد بن يوسف بن نصر. سلام على حضرتكم العلية ورحمة الله وبركاته . "

نجد في هذا النص أن الكاتب لم يطل في المقدمة ، بل جاءت موجزة ، قصر النعوت فيها والدعاء على عبارات قليلة تفي بالغرض ، كما قصر السلام ايضا ، ليدخل بالموضوع مباشرة . ويجري الرسالة على هذا النهج الى ان ينتهي منها .

ومن الرسائل التي اتسمت بالايجاز تلك الرسائل التي يراد اعلام الناس بها بفتح . او انتصار على العدو وتكتب من أرض المعركة، مثلُ ما كتب لسان الدين بن الخطيب عن سلطانه، الذي وصله كتابه من ارض المعركة حين فتح أُطريرة، حيث كان لسان الدين بالحضرة نائبا عنه يقول : (١) " أيُها الناس، ضاعف الله بمزيد النعم سروركم، وتكفل بلطفه الخفي في هذا القطر الغريب أموركم، أبشركم بما كتبه سلطانكم السعيد عليكم، المترادفة بين الله تعالى وسعادته نِعَمُ الله عليكم، امتع الله الاسلام ببقائه، وأيَّده على أعدائه، ونَصَره في ارضه بملائكة سمائه، وإن الله فتح له الفتح المبين، وأعز الله بحركة جهاده الدين، وبيّض وجوه المؤمنين، وأظفره بأطريرة البلد الذي فجع المسلمين بأسراهم، فجيعة تثير الحمية، وتحرك النفوس الأبيّة، وانتقم الله منهم على يده ، وبلّغه من استئصالهم غاية مقصده."

نلاحظ في هذا النص الايجاز في الدعاء، ووضوح الهدف من الرسالة، وعدم الاطالة والاطناب في ذكر نتيجة المعركة، وهو فتح أطريرة، دون التطرق الى التحضير للمعركة ، او كيفية فتح هذه المدينة .

أما الاطناب فهو : " زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة ، من غير ترديد " (٢). وقد ذكر ابو هلال العسكري أن " .. الاطناب مشترك فيه الخاصة والعامة، والغبي والفطن، والريض والمرتاض، ولمعنى ما أُطيلَت الكتب السلطانية في افهام الرعايا"(٣). وذهب الكلاعي أن موطن الاطناب" ما يكتب به الى العامة، وتقرع به آذان الجماعة، كالصلح بين العشائر، والتحضيض على الحرب، والتحذير من المعصية ، والترغيب في الطاعة، وغير ذلك مما له بال" (٤).

وكان الاطناب سمة بارزة في الرسائل الديوانية عند بني الأحمر، خاصة ما كان يتعلق بأمر جليل، كالفتوحات والبشائر والتهاني ... الخ ، مما يراد به تثبيت المعنى بنفس القاريء، أو ابراز مقدرة فنية في صوغ الرسالة يحبِّب القاريء لها . لكننا نلحظ أن هذا الاطناب في الرسائل ربما أفضى الى التطويل الذي لا فائدة جديدة فيه . وقد يكون منفرا – أحياناً–.

---

١ – ريحانة الكتّاب ٢: ٦٣ .

٢ – معجم البلاغة العربية ١: ٤٧٦ .

٣ – الصناعتين ١٩٠ .

٤ – احكام صنْعة الكلام ٩٠ .

ومن الأسباب التي أدت إلى الاطنـاب ، تلك المقدمات الطويلة ، والنعوت التي يطلقها الكتاب على السلاطين التي لا تعطي للموضوع أهمية سوى رصف هذه الألقاب، في مقدمة الرسائل، فهذا صدر رسالة سعد بن الاحمر الى سلطان مصر : " الابواب التي اعتلى في العز معراجها ... أبواب السلطان ، المعظم ، الأعلى ، الهمام ، الاشرف ، العزيز ، الخطير ، الاصعد ، الاسعد ، الامام ، الممجد ، الممدح ، الكافي ، الكافل ، الكريم ، الجواد ، المانح ، الواهب ، الأطول ، الأصول، العادل، الفاضل، الكامل، عاصب تاج الفخار، هازم الفرنج والترك، والتتار، سلطان الحرمين الشريفين، مقيم رسم الحج، كبير الملوك، حُجّة العدل، لسان الحق ، غيث الجود، ظلّ الله في أرضه، الموقر ، المبجل، المفضل، المنعم ، ملك مصر وسلطانها " (١) .

كما أن من أسباب الاطناب في الرسائل استعمال الكتّاب لكثير من المحسنات اللفظية، والبلاغية، والاطالة فيها. فمن ذلك -على سبيل المثال- ما ورد في الظهير المخصوص بابن عاصم :" .. والأقلام قد روضت الطروس وهي ذاوية، وقسّمت الارزاق وهي طاوية، شقت ألسنتها فنطقت، وقطعت أرجلها فسبقت، ويبست فأثمرت انعاما، ونكست فأظهرت قواما، و خطّت فأعطت، وكتبت فوهبت، ومشقت فرفقت، وأبرمت فأنعمت، فكم يسرت الجَبْر، وعقرت الهِزَبْر، وشنّفت المسامع، وكيفت المطامع، واقلّت فيما ارتفع من المواضع، وأحلّت لما امتنع من المراضع، فهي تنجز النعم، وتحجز النقَم، وتبثُّ المذاهب، وتحث المواهب، وتروض المراد، وتنهض المراد ، وتحرس الأكناف ، وتغرس الأشراف ، معينة لنداء هذا العماد الاعلى ، طامحة لمكانه الذى سما، واستعلى ، فيما يملي عليها من البيان الذي يقرّ بالتفضيل الملك الضلّيل، ويشهد له بالاحسان لسان حسان ، ويحكم ببري القوس حبيب بن أوس ، ويهيم بما من الأساليب عنده شاعر كِنْدَة ، ويستمطر سحبه الثرّة ، فصيح المعرّة ... ".(٢)

إن السمة البارزة على هذا النص انه يطفح بالزينة المفتعلة، في حشد كثير من الصور البيانية، مع الاطالة في كثرة التراكيب، التي تفضي بمجموعها الى غاية واحدة ، مفادها ان المخصوص بالرسالة على درجة عالية من العلم والمعرفة، وتصريف الامور. كما ان ابراز مقدرة الكاتب الادبية، كانت غايةً بذاتها، من خلال استعراضه لمجموعةٍ مما لهم باع طويل في الآداب، والعلوم، والمعارف، حتى أصبحوا مضرب مثل لِمَنْ جاء بعدهم .

---

١ - المماليك والفرنج ١٩١ .

٢ - نفح الطيب ٦: ١٥٧-١٥٨ .

الجناس :

الجناس هو ما استعمله الكاتب للفظتين متآلفتي الحروف، مُختلفتي المعنى، ويأتي على نوعين أولهما : الجناس التام، وهو ما اتفقت فيه اللفظتان في نوع الحروف وترتيبها، وحركاتها وعددها مع اختلاف المعنى. (١) وكان هذا الضرب نادر الاستعمال في رسائل بني الأحمر، لا عناية للكتاب به، ينزعون عنه الى النوع الاخر من الجناس ،وهو الجناس الناقص، لما فيه من تفنن، وبيان واجادة .

ومما ورد في الجناس التام، في رسالة الغني بالله الى صاحب تونس : " .. فانا كتبناه لكم – كتب الله لكم امْداداً تذعن أعناق الانام – لطاعة ملككم المنصور الاعلام، عند احساسها، وآتاكم من آيات العنايات، آية تقترب الصخرة الصماء، ممن عصاها بعصاها، فتبادر بانبجاسها، من حمراء غرناطة حرسها الله " (٢) . فانه جانس بين " عصاها الاولى من العصيان والتمرد ، وبين " عصاها " الثانية التي تعني العصا الحقيقية .

ومن ذلك ما جاء في رسالة الغني بالله إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز يهنئه فيها باستلام حكم المغرب " أما بعد حمد الله ملك الملوك ومولاها .. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله .. والرضا عن آله وصحبه، وعترته وحزْبه، الذين خلفوه في امته ... فانتظمت الدولة معمور الأرض وفلاها، وجاس التوحيد مفارق الهضاب وفلاها " (٣)، فإنه جانس بين فلاها الأولى والتي تعني الأرض التي لا ماء فيها ولا أنيس وإن كان فيها كلأ، وبين فلاها "الثانية التي تعني الأرض المستوية التي ليس فيها شيء. (٤)

الضرب الآخر من الجناس هو الجناس الناقص، وهو ما اختلف اللفظان باحدى الشروط الواجب توافرها في الجناس التام، شريطة عدم التكلّف. (٥) وقد تفنن الكتاب في ضروبه، واكثروا من استعماله في مكاتباتهم، وشاع في رسائلهم، حتى كان له الحظ الاوفر من بين المحسنات اللفظية الأخرى. ومن ضروب الجناس الناقص، الشائعة في الرسائل جناس الاشتقاق، وهو توافق الحروف في اللفظة مع الاشتراك في الاشتقاق(٦) . ومن ذلك ما كتب ابو الحسن بن

---

١ – كتاب الصناعتين ٣٢١، المثل السائر ١: ٣٤٢، احكام صنْعة الكلام ١٨٣–١٨٤، معجم البلاغة العربية ١: ١٦٣.

٢ – ريحانة الكتّاب ١ : ١٨٢ .

٣ – الرّسالة في المصدر السابق ١: ٣٠٨–٣١٣ .

٤ – لسان العرب مادة "فلا" .

٥ – احكام صنعة الكلام ١٦٨، معجم البلاغة العربية ١: ١٦٤.

٦ – معجم البلاغة العربية ١: ٤٢٦ .

الجيّاب عن سلطانه في رسالة الهناء والعزاء لسلطان المغرب : " .. ولما انتهى الينا هذا النبأ الذي ملأ القلب حسرة، والعين عبرة، .. ولكنه ما أطفأ نار ذلك الوجد، وجبر كسر ذلك الفقد، إلا ما مَنَّ الله به علينا و على المسلمين، من تقلدكم ذلك الملك الذي سمت (١) معالمه، ... وبولايتكم استبشرت الأصقاع، وكيف لا تستبشر بولاية الملك الصالح، الخاشع، الاواب ، صاحب الحرب والمحراب، عدة الكلام، وعلم الأعلام ". (٢) فانه جانس بين لفظتي "الحرب" و "المحراب" الذي يرجع اشتقاقها إلى أصل واحد وهو مادة "حرب" (٣) .

ومن ذلك ما جاء في رسالة سعد بن الأحمر إلى سلطان مصر : " .. فانا كتبناه إلى أبوابكم التي تشيّد لها الصيت الحاصل، وامتد نوالها المتواصل ... من منزلنا المحبور بالانتساب لودكم والانتماء المُستَمطر بسحب مواهبكم الهامية الاهماء .(٤) " فإنه جانس بين الهامية والاهماء مع اشتراكها في أصل الاشتقاق وهو مادة "همي". (٥)

وفي رسالة محمد الفقيه إلى سلطان المغرب، يصف مآلت إليه الحال في الأندلس: " ... فقد تطاول العدو النصراني على بلاد الإسلام، واهتضم جنابها كل الاهتضام". (٦) نجد ان الكاتب جانس بين اهتضم، واهتضام العائدين الى أصل اشتقاق واحد وهو مادة "هضم". (٧)

ومن الجناس الناقص الجناس المُحرف، والذي تتوافق اللفظتان في عدد الحروف وشكلها، وترتيبها ، وتختلف في حركاتها (٨) . ومن هذا الجناس ما ورد في رسالة محمد الفقيه في فتح قيجاطة، حين وصف التحضير للمعركة: " ... وحين فجر الفجر، وأنار النهار، وقدحت به الاصباح زند الأنوار، ركبنا اليها والعساكر قد انتظمت عقودها، والسيوف قد كادت تلفظها غمودها ". (٩) فان الكاتب جانس بين " فجر" و " الفجر " وفي الرسالة ذاتها يذكر موقف النصارى من المعركة : " ... فلما رأوا من عزْمنا ما لم تتخيله ظنونهم، وأوهامهم، وصابرهم

---

١ – في نفح الطيب ٥: ٤٦٣ " سمعت" وهي لا تناسب المقام ، وقد أثبت " سمت" بدلاً منها لملائمتها للسياق.

٢ – نفح الطيب ٥: ٤٦٣ .

٣ – لسان العرب حرب، والحرب ضد السلم، والمحراب صدر البيت أو ما يقيمه الناس مقام الامام بالمسجد.

٤ – المماليك والفرنج ١٩٣ .

٥ – الهامية، كُل سائل من المطر، والإهماء المطر السائل . لسان العرب مادة "همى" .

٦ – الذخيرة السنية ١٤١ .

٧ – الهضم ، بمعنى الاغتصاب والظلم والقهر . لسان العرب مادة "هضم".

٨ – معجم البلاغة العربية ١: ١٦٤

٩ – الإحاطة ٢: ٤٦٩.

المسلمون عند النّزال، مُصابرةً عظُم فيها إقدامَهم، وثبتت أقدامهم، ألقوا بأيديهم إلى التّهلُكَة"(١) فقد جانس بين إقدامهم وأقدامهم . ومرة اخرى في وصف دخول قيجاطة : "... وحين كَمُلت الشروط حقَّ التكميل ... دخلنا القصبة -حماها اللـه- ... ورفعت على أبراجها حُمْرُ الأعلام، ناطقة عن الإسلام، بالتعريف والإعْلام " (٢). فقد جانس بين الأعلام والإعلام .

ومن ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله إلى سلطان تونس ابن تيفارجين، يقول (٣): " ... فانا كتبناه إليكم .. من حمراء غرناطة – حرسها الله – ولا زائد بفضل الله ... الا الخير الذي كسا الألطاف الجبر (٤)، والصُّنع الذي صدق الخَبَرَ والخُبْرْ " فانه جانس بين الخَبَر والخُبْرْ .

ومن الجناس الناقص، الجناس المُكْتنف ،الذي يكون فيه زيادة في الأحرف، من داخل اللفظة (٥)، ومن ذلك ما ورد في رسالة سعد بن الاحمر الى سلطان مصر في وصف طاغية النصارى: "... فهو يعاهد كلَّ يوم هذه الأرجاء المنقطعة عن منازل الإسلام، ويطرقها بالإضرار والإيلام، ويقضي على كفره، فرض الطواف بأركانها، والاستلام". (٦) فقد جانس بين الاسلام والاستلام، بزيادة حرف التاء في اللفظة الثانية .

ومن ذلك ما ورد في رسالة محمد الفقيه في فتح قيجاطة :" وحين فجر الفجر، وأنار النهار، وقدحت به الإصباح زندة الأنوار، ركبنا اليها ". (٧) فقد جانس بين "أنار" و "الانوار" بزيادة الواو في اللفظة الثانية. ومن ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله إلى صاحب تونس : "..والحَمْد لله حَمْدا مُعادا، يُقيد شوارد النِّعَم، ويَستدرُّ مواهب الجود والكرم، ويؤمِّن من انتكاث الجدود وانتكاسها" .(٨) فإنه جانس بين الجود والجدود بزيادة الدال في اللفظة الثانية.

ومن الجناس الناقص، الجناس اللاحق، الذي يتمثَّل باختلاف أحد الأحرف سواء، أكان في أوَّل الكلمة،أم وسطها، أم في آخرها. ويكون الاختلاف بتباعدِ مخارجِ الحروف.(٩) ومن ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله الى سلطان المغرب يصف فيها مقام السلطان : ".. مقام محل اخينا

---

١ – الإحاطة ٢: ٤٧٢ .

٢ – المصدر السابق ٢:

٣ – ريحانة الكتاب ٢: ٥٠٢، والرسالة في ريحانة الكتاب ١: ٥٠١–٥٠٧ وفي نفح الطيب ٦: ٣٣٣–٣٣٩.

٤ – في نفح الطيب ٦: ٣٣٤ " الحبر" .

٥ – معجم البلاغة العربية ١: ١٦٤ .

٦ – المماليك والفرنج ١٩٥ .

٧ – الإحاطة ٢: ٤٦٩ .

٨ – ريحانة الكتاب ١: ١٨٢ .

٩ – معجم البلاغة العربية ١: ١٦٤، ١٦٥و ٢: ٧٧٧ .

الذي قسم زمانه بين رفد مقسوم، ووعد بالصدق موسوم، وفضل في صحف المجد مرسوم".(١) فان الاختلاف كان من داخل الكلمة في الحرف الثاني في الالفاظ " مقسوم، موسوم، مرسوم " وتباعدت هذه الأحرف بمخرجها الصوتي.

ومن ذلك ما ورد في رسالة محمد الفقيه في فتح قيجاطه "... واننا ما قصرنا في الاستنصار، والاستنفار، ولا قصرنا عن الاعتقاد لكل من أمّلنا معونَتَه والاستظهار ".(٢) فقد اختلف حرفي الصاد والفاء في لفظتي "الاستنفار و "الاستنصار " .

وفي الظهير المخصوص بابن عاصم " ... فهو وان تكاثرت المرسومات وتعددت، وتوالت المنشورات وتجددت، اكبر مرسوم تمم في الاعتقاد نظراً خطيرا". (٣) باعد الكاتب بين حرفَيْ العين والجيم في لفظتي "تعددت وتجددت". ومما ورد من الجناس اللاحق باختلاف الحرف الأول، مع تباعد مخرج الحرفين المختلفين، ما ذكر في رسالة محمد الفقيه الى سلطان المغرب في وصف جبروت طاغية النصارى :"... وطلب منّا أن نسلِّم له ما بقي بأيدينا من المنابر والصوامع، والمحارب والجوامع، ليقيم بها الصُّلْبان، ويثبت بها الأقسة والرُّهبان". (٤) حيث الاختلاف في حرفي الصاد والجيم في "الصوامع" و "الجوامع".

ومن ذلك ما ورد في رسالة ابي الخطاب الغافقي في وصف النصارى بعد المعركة " .. وبعد تفرق شملِها، وتشعب طرقِها، في تلك اللجج وسبلها، ركَدت الريح العاصف، وسكن الموج القاصف" .(٥) حيث الاختلاف في حرفي العين والقاف في لفظتي " العاصف " و "القاصف".

ومن الجناس الناقص، الجناس المردوف، وهو ما أضيف حرفٌ في أول احدى اللفظتين.(٦) ومن ذلك ماورد في ظهير محمد بن مهيب اللخمي : " ... حين ظهرت له -أيّده الله- آثار اراثه الأصيلة، وبانت في الصّلاح والإصلاح ميامنُ مناقبه الجميلة". (٧) أضاف حرف الألف في الإصلاح، زيادة عما هو في " الصلاح".

ومن ذلك ما ورد في رسالة ابن الخطاب الغافقي عن جيش النصارى " ... وأمّا جيشه البري -دمره الله- فقصد به إلى حضرتنا -مَهّدها الله-، فما من بلد من بلادنا تصدى له في طريقه بالقتال، ودنا للنيل فيه بالإقتال، إلا انقلب عنه خاسر الصفقة " .(٨) فان الإضافة في لفظة الاقتال، حيث أضيف حرف الأول زيادة عن القتال.

---

١ – كناسة الدكان ١٥٠ .

٢ – الإحاطة ٢: ٤٦٧ .

٣ – نفح الطيب ٦: ١٥٥ .

٤ – الذخيرة السنية ١٤١ .

٥ – مجلة دعوة الحق ٩٣ .

٦ – معجم البلاغة العربية ١: ١٦٣ .

٧ – الإحاطة ٢: ٤٢ .

٨ – مجلة دعوة الحق ٩٣ .

ومن الجناس الناقص الجناس المُصحف، وهو اختلاف الحروف من حيث التنقيط (١)، ومن ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله إلى صاحب تونس " ... فإنا وصلنا كتابكم الذي حسبناه ... تميمة لا تقلع بعدها عين، وجعلنا مع حُلَل مواهبه قلادة لا يُحتاج معها زَيْن، ودعوناه من جيب الكنانة، آية بيضاء الكتابة، لم يَبقَ معها شك ولا مَيْن". (٢) فإنه جانس بين الكنانة والكتابة مع اختلاف تنقيط حروف اللفظتين بعضها عن بعض .

وفي رسالة محمد الفقيه إلى سلطان المغرب : "... فطولّ علينا بمعلوم حدك، ومشهور جدك" .(٣) فقد جانس بين "حدك" و "جدك".

ومن الجناس الناقص، الجناس المُضارع، وهو اختلاف حرف في اللفظتين مع تقارب المخرج الصوتي. (٤) ومن ذلك ما جاء في ظهير ابن عاصم، يقول الكاتب في وصف الملك الذي اصطفى ابن عاصم : " ... فما أشرف الملكَ الذي اصطفاه، وكَمَّل له حقّ التقريب ووفاه، وأحاله قرارة التمكين ، ثم بالمكان المكين ... فالله تعالى يصل لمقام الملك الذي طلع في سمائه بدراً دونه البدور، وصدراً تلوذ به الصدور، سعداً لا تَمْطُله الأيام في تقاضيه، وكفراً يمضي به كَفَلُ الجهاد، فلا يزال ماضيه، على الفتح مبنياً".(٥) ففي هذا النص جناسان مضارعان، في وضعين مختلفين، فقد جاء به في وسط الكلمة بقوله " بالمكان المكين"، وجاء به في آخر الكلمة "نصر" و "نصل" .

وفي البيعة المعقودة للغني بالله :"... الحمد لله الذي جلّ شأنا، وعزّ سلطاناً ... المريد الذي بيده تقريب الأقدار، واختلاف الليل والنهار، فإن منع، منع عدلا، وإن منح، منح إحسانا".(٦) فقد جانس بين "منع " و "منح" . بحرفي العين والحاء في آخر الكلمة. وما في ذلك من طباق .

ومن ذلك ما ورد في رسالة ابن الخطاب الغافقي : "... فلما رأى العدو رايات الإسلام، قد أطلّت، وإن غواشي الله منه قد أظلّت، طار بأجنحة غربانه".(٧) فالجناس المضارع في لفظتي "أطلّت وأظلّت".

---

١ – معجم البلاغة العربية ١: ١٦٤ .

٢ – ريحانة الكُتاب ١: ١٨٢ ، وقد وردت فيها "تميمة لا تلمع بعدها عين" وقد اثبت ما ذكر في العبر ٧: ٩٦٦ لمناسبة السياق.

٣ – الذخيرة السنية ١٤١ .

٤ – معجم البلاغة العربية ١: ٤٢٦ – ٤٢٧.

٥ – نفح الطيب ٦: ١٥٦.

٦ – ريحانة الكتاب ١: ٢١٦.

٧ – مجلة دعوة الحق ٩٣.

أما الجناس المُطلَق، فهو الذي يأتي في لفظتين مؤتلفتي الحروف، مختلفتي الاشتقاق.(١) ومن ذلك في رسالة محمد الفقيه في فتح قيجاطة، "... ألقينا إلى الثقة بالله تعالى وحده، يَد الاستسلام، وشَمَّرنا عن ساعدِ الجد، والاجتهاد، في جهاد عبدة الأصنام". (٢) فإنه جانس بين الاجتهاد والجهاد، مع اختلاف مصدر اشتقاقهما.

ومن ذلك ما ورد في رسالة محمد الفقيه في استنجاد سلطان المغرب : "... وقد وطأ الله لك مُلكاً عظيماً، شكرك الله على جهادك في سبيله، وقيامك بحقّه، واجتهادك في نَصر دينه وتكميله."(٣) فقد جانس بين الجهاد والاجتهاد أيضا.

الطباق :

هو الجَمْع بين متضادين، أي معنيين متقابلين في الجُملة، بأن يكون بينهما تقابل وتنافٍ، ولو في بعض الصور، سواءً أكان التقابل حقيقيا، كتقابل القدم والحدوث، أو اعتبارياً كتقابل الإحياء والإماتة. (٤) والطباق مرادف للبعير أو الفرس بسيره بـ "وضع رجله في مَوضع يده." (٥)

ويقتصر الطباق على المطابقة بين لفظين، واشترطوا فيه التقابل : "فلا تجيء باسم مع فعل، ولا بفعل مع اسم". (٦)

ومن ذلك ما ورد في رسالة محمد الفقيه : "... أما بعد، فإن الله تعالى أيَّد دينه بالاتفاق والائتلاف، وحرَّم مسالك الشتات والاختلاف" .(٧) فقد طابق بين أيَّد، وحرَّم ، مطابقة الفعل للفعل، كما طابق بين الشتات والاتفاق، وبين الائتلاف والاختلاف، مطابقة الاسم للاسم .

ومن ذلك ما ورد في رسالة أبي الحجاج يوسف الأول إلى سلطان المغرب، بغرض الهناء والعزاء "... أما بعدَ حمد الله الواحد القهّار ... والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المُختار، الذي نهتدي بهديه الكريم في الإيراد والإصدار، والإحلاء والإمرار، في الشدة والرخاء، والسراء والضراء، .... فإن كتبناه ... كتب الله لكم عوائد النّصر ... من حمراءِ غرناطة – حرسها الله تعالى- عندما تحقق لدينا النبأ الذي فتّ في الأعضاد، ...

---

١ – معجم البلاغة العربية ١: ١٦٤–١٦٥.

٢ – الإحاطة ٢: ٤٧٣.

٣ – حسن التوسّل ١٩٩، الصناعتين ٣٠٧.

٤ – معجم البلاغة العربية ١: ٤٤٧ .

٥ – أساس البلاغة ٢: ٢٧٥ .

٦ – حسن التوسل ٢٠٠ .

٧ – الذخيرة السنية ١٤١ .

والخطب الذي ضاقت له الأرض بما رحبت، وأمَرت الدُنيا بما عذبت، من وفاة محلّ أبينا أكبر ملوك المسلمين. (١)

فإنا نستخلص من هذا النص كثيراً من الطبقات التي وردت فيه، سواءٌ أكانت مطابقة الإسم للإسم كالإيراد والإصدار، والإحلاء والإمرار، والشدة والرخاء، والسراء والضراء. أو مطابقة الفعل للفعل كضاقت، ورحبت، وأمرت وعذبت.

كما أننا نلمح اطراد الطباق، وشيوعه في رسائل العزاء والهناء بمجملها، للطبيعة التي تُنسج من أجلها الرسائل التي تتطلّب هذا النوع من الألفاظ .

ومن ذلك ما ورد في رسالة محمد الفقيه في فتح قيجاطة : " ... فالحمد لله على هذه النِّعمة التي استحدثت للقلوب استبشارا، وخفضت علم التثليث، ورفعت للتوحيد منارا". (٢) فقد طابق بين "خفضت" و " ورفعت" مطابقة الفعل للفعل.

ومن ذلك في رسالة سعد بن الأحمر إلى سلطان مصر : " ... هذا العدو المشرك صاحب قشتالة –قصمه الله– ... تملك في العام الفارط مدينة جبل الفتح من بلادنا ... وملأهم بقوم يعبدون أوثانهم، ... أصيب منهم المسلمون بالمصيبة العظيمة، والفجيعة المُقعدة، المُقيمَة".(٣) فإنه طابق بين "المُقعدة" و "المُقيمَة" مطابقة الاسم للاسم .

المُقابلة :

تعني المقابلة بالألفاظ والمعاني مَعا، فهي أشمل وأعم من الطباق، فيؤتى بالكلام ثم مقابلته بمثله، في اللفظ والمعنى على سبيل الموافقة أو المخالفة. (٤)

ومن ذلك ما ورد في رسالة الغني بالله الموجهة إلى الجمهور، بغرض الموعظة، وأخذ العبرة مما سلَف، والأخذ بالأسباب قبل استفحال الأمر:" ... واعتبروا بمثلات ما دَهَم مَنْ تقدّم من أهل البلاد والقواعد، فذهولكم عنها غريب، وتفكّروا في منابرها التي كان يعلوها واعظٌ وخطيب، ومطيل ومطيب، ومساجدها المتعددة الصفوف والجماعات، المعمورة بأنواع الطاعات، وكيف أخذ الله فيها بذنب المُترفين من دونهم، وعاقب الجمهور بما أغمضوا عيونهم، وساءت بالغفلة

---

١ – نفح الطيب ٥: ٤٦٣ .

٢ – الإحاطة ٢: ٤٧٣ .

٣ – المماليك والفرنج ١٩٦–١٩٧ .

٤– حسن التوسل ٢٠٢–٢٠٣ ، مواد البيان ٢٠٥ ، وقد نسب ذلك الى قدامة بن جعفر .

عن الله عقبي جميعهم، وذهبت النقمات بعاصيهم، ومَنْ داهم في أمره من مطيعهم، وأصبحت مساجدُهم مناصبَ الصُلْبان، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الآذان، هذا والناس ناس، والزمان، زمان" (١). فالكاتب في ذلك قابل بين صورة المساجد والمنابر، وكيف كانت مأهولة، يتردد اسم الله فيها، وكيف أصبحت مقراً لصلبان النصارى، وبدل أن يُرفعُ الاذان، تدق النواقيس. مستحثا الناس على أخذ أسباب القوة والمنعة لئلا يصيبهم ما أصاب هؤلاء الناس.

ومن ذلك ما جاء في رسالة أبي الحجاج يوسف الأول في العزاء بسلطان المغرب : ".... ولما انتهى إلينا هذا النبأ الذي ملأ القلب حسرة، والعين عبرة، وتوارت شتى الأنباء ، وغلب اليأس فيها على الرجاء، ... ولكنه ما أطفأ نار تلك الوَجد ... إلاّ ما منّ الله به علينا وعلى المسلمين، من تقلدكم ذلك المُلْك، ... وبولايتكم استبشرت الأصقاع". (٢) ففي هذا النص قابل الكاتب صورة بصورة، صورة القلق والألم والحسرة التي انتابت الناس بوفاة السلطان الراحل، ثم قابلها بصورة الاستبشار، والفرح التي غطت على تلك الرزيّة .

العكْس والتبديل :

العَكْس هو "أن تعكس الكلام، فتجعل الجزء الأخير منه، ما جعلته في الجزء الأول، وبعضهم يسميه التبديل".(٣) وقد عده شهاب الدين الحلبي من المُشبّه بالتجنيس. (٤) ويأتي على ضربين أحدُهما عَكْس الألفاظ، وثانيهما عكس الحروف .

ومن ذلك ما ورد على عكس الألفاظ في ظهير ابن عاصم : " وعلى ما أعلى المقام المولوي من مكانه، وقضى به من استمكانه، واعتمد من ابرامه، وابرم من اعتماده، ومهد من اكرامه، وكرم من مهاده، واختص من علاه، وأعلى من اختصاصه، واستخلص من حُلاة، وحلا من استخلاصه، ووفى من تكرُمه، وكَرُم من وفائه، واصطفى من مجده، ومجد من اصطفائه ... أشار أيّده الله باستئناف خصوصيته وتجديدها. " (٥) فإنه أعمل العكس والتبديل بين الألفاظ في الجملة الواحدة، فوضع الأولى محل الثانية والثانية محل الأولى، مع ما في ذلك من إطالة تبدو مملّة، ومُتكلّفة .

---

١ – الإحاطة ٢: ٥٩–٦٠ ، والرسالة في الإحاطة ٢: ٥٤–٦٤ .

٢ – نفح الطيب ٥: ٤٦٣ .

٣ – الصناعتين ٣٧١ . وقد سمّاه صاحب مواد البيان " التبديل" ، مواد البيان ص ٢٣٩.

٤ – المثل السائر ١: ٣٥٧ .

٥ – نفح الطيب ٦: ١٦٠ .

ومما ورد على عكس الحروف فقد اشترطوا فيه أن يساوي وزنه تركيبه، غير أن الحروف تتقدم وتتأخر. (١) ومن ذلك ما ورد في رسالة أبي الحجاج يوسف الأول إلى أحد الأمراء المرينيين : " .... معظم إمارته الرفيعة الجانب، المُثنى على مالها من السّير الفاضلة المذاهب ... والمكارم التي تشهد بها مواقف الجِلاد، وظهور الجياد، وصحائف الكتب، وصفائح الجلاد، الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبي الوليد بن نَصر." (٢) فإن الكاتب أعمل التقديم والتأخير في أحرف لفظتي "صفائح" و "صحائف" .

ومن ذلك ما ورد في ظهير ابن عاصم، بشأن العلماء والفقهاء الذين "... فيه أمضوا أحكامهم . واعملوا في الأباطيل احتكامهم، وكتبوا الرسوم، وكبتوا الخصوم." (٣) فقد أعمل الكاتب التأخير والتقديم في أحرف لفظتي "كتبوا" و "كبتوا" .

وفي الظهير المخصوص بابن مهيب اللخمي، حين يُذكر سبب هذا الظهير ، وما أبداه من أمور جعلته يستحق هذا الظهير، والدعاء له بـ : " ... ووصل بالعلم والعمل ارتقاء مراتبه" (٤) فابدل حروف "العلم" و "والعمل".

الجُمل الدعائية :

كثرت الجُمل الدعائية في رسائل بني الأحمر، حتى لا يكاد الدارس يجد رسالة ديوانية واحدةً تخلو من هذه الجُمل. سواءً أكانت مستقلة بذاتها، أم جاءت على شكل جُمل معترضة. وكانت هذه الجُمل تختص بالأفراد والجماعات والأماكن . فما أن يُذكر السلطان المُرسل، أم المُرسل إليه، إلاّ ويعترض له بالدعاء بمعنى الفعل الذي سبقه : " وأمر - أعلى الله أمره" (٥). "فأصدر له -شكر الله تعالى اصداره. وعمر بالنصر داره". (٦) وربما لم يرتبط الدعاء بالفعل، كقولهم "أيدّه الله" (٧) ، و "اسماه الله" (٨)، و "أبقاه الله". (٩)

---

١ – الصناعتين ٣٢١ ، المثل السائر ١: ٣٦٠ .

٢ – ريحانة الكتاب ١: ٢٨٦–١٨٧، والرسالة في ريحانة الكتاب ١: ٢٨٦–٢٨٩، وفي صبح الأعشى ٧: ٦٢ .

٣ – نفح الطيب ٦: ١٥٩.

٤ – الإحاطة ٢ : ٤٢٠ .

٥ – المصدر السابق ٢: ٤٢٠ ، ريحانة الكتاب ٢: ٦٤، ٢: ٧٨ .

٦ – ريحانة الكتاب ٢: ٦٣.

٧ – الإحاطة ٢ : ٤٢٠.

٨ – نفح الطيب ٥ : ٤٦٠ .

٩ – العبر ٧ : ٩٦٠ .

أما الدعاء لغير المسلمين فيكون بـ " أكرمكم الله بتقواه " (١)، وما في معنى ذلك، إن كانت الرسائل موجهة إليهم، أما إذا ورد ذكرهم في الرسائل المتبادلة بين المسلمين، فيدعى عليهم، وليس لهم، بـ "دمّرهم الله" (٢)، أو "أهانهم الله" (٣)، أو "قصمه الله" (٤) لسلطانهم، أما جيشهم فيدعي عليه بـ " دمّره الله". (٥) أو بما هو في معنى ذلك.

أما في ذكر المسلمين فيدعي لهم بدوام العزة، فيكون الاعتراض على شكل -أعزّهم الله- (٦)، وإن كان المذكور شخصاً بعينه اعترض له بـ "دام عزه" (٧) و "أعزّه الله" (٨)، و "أدام الله عزته" (٩) ... إلخ. وإن كان المدعو له متوفى"، فيكون الاعتراض على شكل : "رضي الله عنه" (١٠)، و "رحمة الله عليه" (١١)، و "قدس الله ارواحهم". (١٢) أمّا المدن - فما أن تذكر -غالبا- إلا واعترض لها على شكل دعاء ، كقولهم "حرسها الله" (١٣)، و "ووالى الله الدفاع عنها" (١٤)، و "حماها الله" (١٥)، و "عصمها الله" (١٦) وما في معنى ذلك، غير أننا لم نلحظ في الرسائل التي بين أيدينا الدعاء للمدن الإسلامية التي احتلها النصارى، إنما كانت ترد بذكر اسمها فقط دون الدعاء لها . (١٧)

---

١ - انظر خلاصة تاريخ الأندلس ٣١٦ - ٣١٧ .

٢ - مجلة دعوة الحق ٩٣ .

٣ - المصدر السابق ٩٣ .

٤ - ريحانة الكتاب ١: ٣٦٧ .

٥ - مجلة دعوة الحق ٩٣ .

٦ - الإحاطة ٢: ٤٧٣ .

٧ - الإحاطة ٢: ٤٢٠ .

٨ - نفح الطيب ٥: ٤٦٠، ٤٦١ .

٩ - الإحاطة ٢: ٤٢١ .

١٠- نفح الطيب ٥: ٤٦٢ .

١١ - ريحانة الكتاب ١: ١٤٧ .

١٢ - المصدر السابق ١: ٣٧٨ .

١٣ - نفح الطيب ٥: ٤٥٩، ريحانة الكتاب ١: ١٤١ ، ١: ٣٦٢ .

١٤ - صبح الأعشى ٨: ١١٢ .

١٥ - المماليك والفرنج ١٨٣، نفح لطيب ٥: ٤٦٤، ريحانة الكتاب ١: ١٤٧ .

١٦ - ريحانة الكتاب ١: ٣٦٤ .

١٧ - انظر الإحاطة ٢: ٤٧٢ .

أما الجُمل الدعائية المستقلة بذاتها، فقد غلب عليها الاعتدال، بين الاطناب والإيجاز، وغالباً ما يكون المخصوص بها المُرسل إليه، وعادة ما يكون موضعها في خطبة الرسالة، بعد الحمد لله والصلاة والسلام على الرسول -صلى الله عليه وسلّم- والرضا عن آله وأصحابه. وفي نهاية الرسالة.

ومن ذلك ما ورد في رسالة محمد الأحنف: " أما بعد حمد الله رب الأرباب ... "والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ... والرضوان على آله وصحبه ... والدعاء لأبوابكم الشريفة، باتصال السعد الذي تخضع له صيد الرقاب، وتتلى على توالي السنين وتداول الأحقاب". (١). وفي نهاية الرسالة : " والله تعالي يبقي شرف تلكم البواب عاليا، ويجعل سعدها متواليا". ومن ذلك رسالة ابي الحجاج يوسف الأول إلى سلطان المغرب بغرض العزاء والهناء : "... أما بعد حمد الله الواحد القهّار، ... والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المختار، ... والرضا عن آله وصحبه وأوليائه وحزبه ... والدعاء لمحل أبينا والدكم ... -قدس الله روحه وبرد ضريحه- بالرحمة التي تتعهد روضته، التي هي أذكى من الروض المعطار، والرضوان الذي يتبوأ به مبوأ صدقٍ في الملوك المجاهدين الأخيار، ولمقامكم الأعلى بسعادة المقدار، وتمهيد السلطان، وبلوغ الأوطار." (٢)

ومن ذلك رسالة السلطان سعد بن الأحمر : " أما بعد حمد الله ... والصلاة والسلام على سيدنا محمد .... والرضا عن آله واصحابه ... والدعاء لأبوابكم، أبواب المواهب المستهلة الأمطار، والصلوات الشهيرة الأخطار، والمفاخر البعيدة المطار، باتصال السعادة التي يهيم بذكرها حادي القطار، في جميع الأقطار، وإعلاء المظاهر المعمورة بالقنا الخطار، المتأرجة عن شذا النصر المعطار. " (٣) وفي نهاية الرسالة : "والله تعالى يصل لكم سعادة ظلها مديد، وركنها شديد" .

ومن ذلك في رسالة الغني بالله إلى سلطان المغرب، من باب تبادل المعلومات، والتباحث فيما يخص العدوتين : " أما بعد حمد الله الذي نصب للمجازاة قسطاساً وميزاناً ... والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ... والرضا عن آله وأصحابه ... والدعاء لمقامكم بالنصر، الذي يعني في الأعداء صارِماً وسِنانا، والعز الذي يسمع دعوة الحق إعلانا، والصُنْع

---

١ – المماليك والفرنج ١٨٢ .

٢ – نفح الطيب ٥: ٤٦١ .

٣ – المماليك والفرنج ١٩١ .

الذي يروي أحاديث العناية الإلهية، صحاحاً حساناً". (١) وقد استحسن الكلاعي الاقتصاد في الدعاء للسلطان، لإن الإطناب دليلٌ على ضعف مادة الكاتب، وبلادة صناعته. (٢) كما أشار أبو هلال العسكري إلى الاطناب في الدعاء، حيث يقول : (٣) "... وليس يَحسن منه -أيضا- تكرير الدعاء في صدر الكتاب والرقاع، عندما يجريه من ذكرٍ للرئيس، فإن ذلك مَشغلَة وكُلفة."

وقد بقيت الجُمل الدعائية سنة مُطردة في رسائل بني الأحمر، سواءٌ أكانت في مخاطبة الملوك، أو الأشخاص، أو الرعية، منذ بداية دولتهم حتى انتهاء أمرهم، والقضاء على دولتهم، الذي انتهى بانتهائها حكم المسلمين للأندلس.

---

١ - ريحانة الكتاب ٢: ٩ والرسالة في الريحانة ٢: ٨-١٣ .

٢ - أحكام صنعة الكلام ٧٢ .

٣ - الصناعتين ١٥٧ .

الخــاتمــة

حظيت الرسائل الديوانية في عصر بني الأحمر بعناية كبيرة، بسبب أهميتها، فقد كانت الوسيلة الاعلامية، التي تعبر بها الدولة عن سياساتها الداخلية والخارجية. وتحاول بها تثبيت دعائمها، من خلال بث الدعاية لها واظهارها بمظهر القوي، والمتمسك بمباديء الدين لذلك امتزجت المسحة الدينية، بالمسحة الأدبية في هذه الرسائل.

كما حظي ديوان الانشاء بهذه العناية، وقاموا بترتيبه، ووضعوا الخطط اللازمة له، وخصّوا كُلّ خُطّةٍ من هذه الخطط بمهام محددة، تختلف عن المهام التي تختص بها الخطط الأخرى، وأصبح لكل خطة من هذه الخطط مفهومها الخاص، فمثلا نجد أن خطة العلامة، تختص بكتابة العلامة السلطانية التي توضع في نهاية الرسالة، دلالة على انتهائها، وصدورها عن السلطان، وقد فرقوا بينها وبين الخاتم السلطاني، الذي هو اشارة المُلك، كما فرّقوا بينها وبين شعار الدولة آنذاك "ولا غالب الا الله".

كما أضافوا خُطّة الكتابة إلى الوزارة، وسُمّي بذلك مَنْ يتولى هذه الخطة بذي الوزارتين، لذلك فقد تخيّروه من أعلى الطبقات في المجتمع، ومَنْ عُجِم عوده، وأثبت اخلاصه للدولة، حتى كادت هذه الخطة تختص ببعض البيوتات دون غيرها.

كما ضمّوا إلى ديوان انشائهم عدداً من الكتاب ممن رقّ اسلوبهم، وراق نهجهم، وملكوا من الكتابة خير زمام، ومسكوا فيها ناصية الاتقان وضروب البلاغة والبيان .فقد أثروا فن الرسالة الديوانية في الأدب العربي عامة، وفي الأدب الأندلسي على وجه الخصوص، وأصبح لهم مدرستهم الكتابية التي تميزوا بها، أمثال لسان الدين بن الخطيب، وأبي الحسن بن الجيّاب، و أبي عبد الله بن زمرك.

وقد تنوعت اساليب الكتابة عندهم من مُرسل، ومتّوازن، ومسجوع، وإن كانت هذه الأساليب ربما امتزجت معا في الرسالة الواحدة، وقد كان الأسلوب المسجوع هو الأكثر شيوعاً عندهم، وقد تفننوا في ضروبه، ودبجوا رسائلهم به، حتى جاء في كثير من الأحيان بصورة معقدةٍ ومتكلفة، ربما أفضت إلى النفور منها، شأنهم في ذلك شأن كتّاب الأقاليم الإسلامية الأخرى، حيث كانت هذه السمة شائعة فيها.

كما جاءت "أما بعد" متصلةً فيما بعدها، وكانت لازمةً للحمدلة، فيُقال: "أما بعد الحَمْد لله"، مثلما جاء الدعاء للسلطان المخصوص بالرسالة بعد الحمدلة، والصلاة على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، والترضي عن الصحابة، كما جاء في نهاية الرسالة في أغلب الأحيان.

كما اتخذوا نمطا أدبياً معيناً، التزموا فيه في كتابة رسائلهم، من بسملة وحمدلة، وعرض للموضوع وخاتمة، لا يلوون على غيره، ولا مندوحة لهم عنه.

كما اتكأوا في كتابتهم - في كثير من الأحيان - على التراث العربي الإسلامي، من قرآن كريم -حيث كان له الحظ الوافر في الرسائل، حتى لا تكاد تخلو رسالة منه-، وحديث نبوي شريف، او استعمال لمثل سائر، أو بيت شعر.

وتبين أن سمة الاطناب، وتدبيج الرسائل بالمحسنات اللفظية، والبديعية عندهم كانت هي الغالبة على كثير من الموضوعات، مثل التهاني، والبشائر، والفتوحات، والظهائر الرسمية... وما شاكل ذلك. في حين ان سمة الايجاز اقتصرت -غالباً- على الرسائل التي تصدر من أرض المعركة، ورسائل المعاهدات مع الدول الاخرى.

أما المحسنات اللفظية، والبديعية فشاعت عندهم، وغلبت على كثير من رسائلهم، على تفاوت استخدامها من رسالة لأخرى، حسب ما تسعف الكاتبَ قريحتُه، ومقدرتُه على تعمُّل ذلك.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله ت ٦٣٧هـ :

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي و بدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.

- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله ت ٦٣٧هـ :

المفتاح المنشا في حديقة الإنشا، تحقيق هلال ناجي، الموصل ١٩٨٣م.

- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله ت ٦٣٧هـ :

الوشي المرقوم في حل المنظوم، تحقيق د. جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٩م.

- د. احسان عباس :

تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٠.

- أحمد أمين :

ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م.

- د. أحمد دراج :

المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري، دار الفكر العربي، ١٩٦١م.

- د. أحمد سليم الحمصي :

ابن زمرك الغرناطي؛ سيرته وأدبه، مكتبة الرسالة ودار الإيمان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

- أحمد عبد الرحمن السماوي :

رحلة مصورة إلى بلاد الأندلس، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

- ابن الأحمر ، أبو الوليد اسماعيل بن يوسف ٨٠٧هـ :

مستودع العلامة ومُستَندع العلاّمة، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٦٤م .

- ابن الأحمر ، أبو الوليد اسماعيل بن يوسف ٨٠٧هـ :

نثير الجُمان في شعر مَنْ نظمني واياه الزمان، تحقيق د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٦م.

- ابن الأحمر ، أبو الوليد اسماعيل بن يوسف ٨٠٧هـ :

نثير فرائد الجُمَان في نَظْم فحول الزمان، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٧م.

- اسماعيل باشا البغدادي :

ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، طُبع بعناية وكالة المعارف الجليلة، ومطبعتها البهيّة ، ١٩٤٥م.

- اسماعيل باشا البغدادي :

هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، منشورات مكتبة المثنى، بغداد.

- أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين :

الأغاني، مصور عن طبعة دار الكتب المصرية.

- امرؤ القيس :

ديوان امرىء القيس ، دار بيروت، ودار صادر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٨م.

- إميليو غرسيا غومس :

مع شعراء الأندلس والمتنبي، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي، نشر مكتبة وهبة ، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م.

- الإمام البخاري :

صحيح البخاري، دار احياء التراث العربي ، بيروت.

- د. بدوي طبانة :

معجم البلاغة العربية، دار العلوم للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

- ليفي بروفنسال :

أدب الأندلس وتاريخها، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥١م.

- ليفي بروفنسال :

حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

- بشار بن برد :

ديوان بشار بن برد ، تحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٨م.

- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله ٧٧٩هـ :

رحلة ابن بطوطة، تحقيق طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م .

- البغدادي ، عبد القادر بن عمر ١٠٩٣ هـ :

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، طبعة غير محققة .

– البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز:

فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق د. احسان عباس، و د. عبد المجيد عابدين، دار الأمانة، ودار الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.

– البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز:

جغرافية الأندلس وأوروبا، من كتاب المسالك والممالك، تحقيق د. عبدالرحمن علي الحجي، دار الارشاد، بيروت، ١٩٦٨.

– البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز:

معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى الشقّار مطبعة لجنة التأليف الترجمة ، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٥م.

– ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين ت ٨٧٤هـ :

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد محمد امين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ .

– ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين ت ٨٧٤هـ :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للترجمة والطباعة والنشر، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

– أبو تمام ، حبيب بن أوس :

ديوان أبي تمام بشرح التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر ١٩٦٥م.

– التنبكتي، أبو العباس أحمد بن أحمد :

نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طبع عباس بن عبد السلام بن شقرون بالفحامين، مصر، الطبعة الأولى،١٣٥١هـ . وهو هامشٌ على كتاب الديباج المذهب لابن فرحون.

- التنسي، محمد بن عبد الله بن عبد الجليل ت ٦٩٩هـ :
نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان، تحقيق نوري سودان، فرانس شتايز بفسبادن ١٩٨٠م.

- الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر ، ٢٥٥ هـ :
البيان والتبيين ، دار الفكر للجميع ، ١٩٦٨م.

- ابن جبير، ابو الحسين محمد بن أحمد :
رحلة ابن جبير، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٩م .

- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن :
أسرار البلاغة في علم البيان، علّق حواشيها محمد رشيد رضا، عن نسخة الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

- الجرجاني،علي بن محمد الشريف الجرجاني، ت٨١٦هـ :
التعريفات، تحقيق د.عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة.

- جرير بن عطية الخطفي :
ديوان جرير ، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

- الجزري، محمد بن العمري :
غاية النهاية في طبقات القرّاء، تحقيق جو تهلف برجسترسر، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠م.

- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس ٣٣١هـ :
الوزراء والكُتّاب، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٣٨م.

– الحريري، القاسم بن علي :

مقامات الحريري، دار صادر ، بيروت ١٩٩٢م .

– الحسن بن محمد السائح :

منوعات ابن الخطيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٩٨٧م.

– الحلبي ، شهاب الدين محمود ٧٢٥هـ :

حُسن التوسُّل إلى صناعة الترسل. تحقيق اكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٠م.

– الحموي، ياقوت بن عبد الله ٦٢٦ هـ :

معجم البلدان، تحقيق فريد بن عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م .

– الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٨٦٦هـ :

الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م .

– الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٨٦٦هـ :

صفة جزيرة الأندلس، عني بنشرها ليفي بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة ، ١٩٣٧م .

– ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الاشبيلي :

قلائد العقيان، ومحاسن الأعيان. تحقيق د. حسين يوسف خريوش ، مكتبة المنار للطباعة والنشر ، الزرقاء – الأردن ، الطبعة الأولى. ١٩٨٩م .

– الخفاجي، شهاب الدين محمود بن محمد بن عمر، ١٠٦٩هـ :

شفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل، تحقيق د. محمد عبد المنعم الخفاجي ، المطبعة المنيرية بالأزهر، الطبعة الأولى، ١٩٥٢ م.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد ٧٧٦هـ :

  الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف، مصر.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد ٧٧٦هـ :

  الإحاطة، نصوص لم تنشر، تحقيق عبد السلام شقور، كلية الاداب، المغرب ، ١٩٨٨م.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد ٧٧٦هـ :

  أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد ٧٧٦هـ :

  ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨١م. وبذيله التاج المُحلّى في مساجلة القدح المعلى.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد ٧٧٦هـ :

  ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، تحقيق د. محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، الطبعة الثانية، ١٩٧٣ م.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد ٧٧٦هـ :

  الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه في الأندلس من شعراء المائة الثامنة ، تحقيق د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣م.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد ٧٧٦هـ :

  كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق د. محمد كمال شبانة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهره.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد ٧٧٦هـ :

  اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، تحقيق لجنة احياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠ م.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد ٧٧٦هـ :

  مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد الأندلس والمغرب، وهي مجموعة من رسائله، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨م .

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد ٧٧٦هـ :
نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتعليق د. أحمد مختار العبادي، مراجعة د. عبد العزيز الأهواني، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ودار النشر المغربية.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ٨٠٨هـ :
التعريف بابن خلدون، ورحلته شرقاً وغرباً، تحقيق محمد بن تاويت الطّنجي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ٨٠٨هـ :
العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦م .

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ٨٠٨هـ :
المقدمة، تحقيق على عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، الطبعة الأولى، ١٩٥٨م .

- ابن خلدون، ابو زكريا يحيى :
بُغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٠ .

- ابن خلكان، أبو العباس، شمس الدين أحمد بن محمد ٦٨١هـ :
وفيات الأعيان، وأنباء ابناء الزمان، تحقيق د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.

- ابن خير الإشبيلي، أبو بكر محمد ت ٥٧٥هـ :
فهرسة ما رواه عن شيوخه، وقف على نسخها وطبعها فرنسشكة قدراه زيدين، وخليان رباره طرغوه، المكتب التجاري، بيروت، مكتبة المثنى، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٦٣م.

- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد ٧٤٨ هـ :
تذكرة الحفّاظ ، دار الكتب العلمية، بيروت .

- الزبيدي، محمد مرتضى :
تاج العروس من جواهر القاموس، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بن غازي.

- ابن الزبير ، أبو جعفر أحمد ٧٠٨ هـ :
صلة الصلة، مكتبة خياط، بيروت، وهي نسخة مصورة.

- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ٥٣٨ هـ :
أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود،دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ :
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة القدس، القاهرة ١٣٥٤هـ .

- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى ت ٦٨٥هـ :
المُغْرِب في حُلَي المَغْرِب، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف ، القاهرة، الطبعةالثالثة، ١٩٧٨م.

- السلاوي ، أبو العباس أحمد بن خالد : ١٧٢٩م
الاستقصا في اخبار المغرب الأقصى، تحقيق محمد وجعفر الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م .

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن :
بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر ، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

- الأمير شكيب أرسلان :

الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، المطبعة الرحمانية، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٣٦م .

- الأمير شكيب أرسلان :

خلاصة تاريخ الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت،١٩٨٣ م.

- الشوكاني، محمد بن علي ت ١٢٥٥هـ :

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع، دار المعرفة، بيروت .

- ابن شيث القُرشي، عبد الرحمن بن علي ٦٢٥هـ :

معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨م.

- الصفدي، صلاح بن أيبك :

الوافي بالوفيات، تحقيق أسد بن إبراهيم وأيد لكن البندقدار، دار النشر، فرانس شتايز، فسبادن.

- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى ٣٣٦ هـ :

أدب الكتّاب، تحقيق محمد بهجت الأثري ، ١٣٤١هـ .

- د. الطاهر أحمد مكي :

دراسات أندلسية، في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

- ابن عاصم، أبو يحيى محمد بن محمد ٨٥٧هـ :

جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق د. صلاح جرار، دار البشير للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٩ .

- عبد الحي الكتاني :

نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية، دار الكتاب العربي، بيروت .

- د. عبد الرحمن علي الحجي :

التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨ م.

- د. عبد العزيز الأهواني :

الزجل في الأندلس، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧م.

- د.عبد العزيز عتيق :

الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦

- ابن عذاري، أبو عبد الله أحمد بن محمد ت ٦٩٥هـ :

البيان المُغْرِب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب، نشرة امبروسي هويسي مراندة، مساهمة محمد بن تاويت، ومحمد ابراهيم الكتاني .

- العسقلاني، شهاب الدين أحمد ٨٥٢هـ :

الدُرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة .

- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل :

كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٢م.

- علي بن خلف الكاتب :
مواد البيان، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية، طبع بالتصوير عن مخطوطات (فاتح ٤١٢٨)، مكتبة السليمانية، استنبول.

- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي ١٠٨٩هـ :
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدس القاهرة ، ١٣٥٠هـ .

- د. عيسى الناعوري :
رحلة في ربوع الأندلس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧١م.

- الغزال، محمد بن مهدي :
نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد،تحقيق اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٤م.

- الفاسي، على بن أبي زرع :
الأنيس المُطْرِب، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢م.

- ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي ٧٩٩ هـ :
الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة.

- ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى :
التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق د. سمير الدروبي، جامعة مؤته، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

- الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧هـ :
معجم القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م

- الفيكـونت دو شاتوبريان :
آخر بني سراج ، مترجمة ومذيلة بخلاصة تاريخ الأندلس ، الامير شكيب ارسلان ، مطبعة المنار ، مصر ١٩٢٤ م.

- ابن القاضي، أحمد بن القاضي المكناسي :
جذوة الاقتباس في ذكر مَن حل من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٤م.

- ابن القاضي، أحمد بن القاضي المكناسي :
درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م.

- ابن القاضي، أحمد بن القاضي المكناسي :
لقط الفرائد، تحقيق محمد الحجي، دار الرباط للتأليف الترجمة والنشر، الرباط ، ١٩٧٦م، وهذا الكتاب ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات.

- القبتوري، أبو القاسم خلف بن أبي الأصبغ ت ٧٠٤هـ :
رسائل ديوانية من العهد العزفي، تقديم وتحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة، المكتبة الملكية، الرباط ، ١٩٧٩م.

- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، ٢١٣هـ :
أدب الكاتب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٦٣ م .

- قدامة بن جعفر، أبو الفرج بن قدامة بن زياد :
الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق د. محمد حسن زبيدي ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، دار الرشيد للنشر، بغداد.

- حازم القرطاجني :
منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب أبو الخوجة تونس ١٩٦٦م.

- القلصادي، أبو الحسن علي الأندلسي ٨٩١هـ :

رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٨م.

- القلقشندي، أحمد بن علي ٨٢١هـ :

صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرحه وعلق عليه نبيل خالد القطب،

دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م .

- القلقشندي، أحمد بن علي ٨٢١هـ :

مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، وزارة الارشاد ،

الكويت ،١٩٦٤م.

- كارل بروكلمان :

تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي، دار العلم الملايين،

الطبعة الخامسة، ١٩٦٨م.

- ج . س. كولان :

الأندلس، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت،

دار الكتاب المصري القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

- مؤلف مجهول :

الذخيرة السنية في الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوارقة، الرباط

١٩٧٢م .

- مؤلف مجهول :

نبذة العصر في دولة بني نصر، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار حسان

للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٤ م، ويُنْسَبُ الكتاب إلى علي بن أبي زرع الفاسي.

- المتنبي ، أبو الطيب احمد بن الحسين :

ديوان المتنبي بشرح العكبري، ضبطه وصححه ووضع حواشيه مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، أُعيد طبعه ١٩٧٨م.

- مجمع اللغة العربية ، القاهرة :

المعجم الوسيط، نشر دار عمران، الطبعة الثانية.

- محمد بن أحمد بن يوسف ، ت ٣٨٧هـ :

مفاتيح العلوم، تحقيق إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.

- د. محمد رضوان الداية :

الأدب الأندلسي والمغربي ، مطبعة خالد بن الوليد ، دمشق ١٩٨٠ -١٩٨١م.

- محمد عبد الله عنان :

الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، مطبعة الخانجي القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦١م.

- محمد عبد الله عنان :

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المُتنصرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.

- د. محمد عبد المنعم خفاجي :

الأدب الأندلسي، التطوُر والتجديد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

- د. محمد عبده حتاملة :

التنصير القسري لمسلمي اسبانيا في عَهْد الملكين الكاثوليكيين، ساعد في طبعه الجامعة الأردنية، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م .

- د. محمد عبده حتاملة :

محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، مطابع دار الشعب، عمان، ١٩٧٧م.

- محمد قنديل البقلي :

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

- د. محمد كمال شبانة :

يوسف الأول بن الأحمر سلطان غرناطة ، لجنة البيان العربي، مطبعة الرسالة، القاهرة ٩٦٩م.

- محمد ماهر حمادة :

الوثائق السياسية والادارية في الأندلس، وشمال افريقية، دراسة ونصوص، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

- محمد بن محمد مخلوف :

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دارالكتاب العربي، بيروت.

- المرادي، أبو بكر محمد بن الحسن :

كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق د. سامي النشار، دار الثقافة ، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

- الامام مسلم :

صحيح مسلم بشرح النووي، دار احياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤م.

- المقدسي، شمس الدين عبد الله بن أحمد بن أبي بكر البنا البشادي:

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مكتبة خياط ، بيروت .

- المقَّري، شهاب الدين احمد بن محمد ١٠٤١هـ:
أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق احياء التراث الاسلامي المشترك بين المغرب والإمارات العربية المتحدة، ١٩٧٨ .
- المقَّري، شهاب الدين احمد بن محمد ١٠٤١هـ:
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت ، ١٩٦٨م .

- د. منجد مصطفى :
الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، جامعة الموصل، ١٩٨٨م.

- ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم :
معجم لسان العرب، دار صادر، بيروت.

- المَوْصلي، موسى بن حسن ٧٠٠هـ :
البُرْد الموشَّى في صناعة الإنشا ، تحقيق د. عفيف سيد صبرة ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.

- الميداني أبو الفضل، أحمد بن محمد النيسابوري ت ٥١٨هـ :
مَجْمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. دار القلم، بيروت .

- النباهي، أبو الحسن بن عبد الله :
المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

- شهاب الدين النويري، أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣ هـ :
نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، مطابع كوستاتسماس وشركاه ، القاهرة .

- هناء دويدري :

لسان الدين حياته وأدبه، وأثر المشرق فيه، جامعة دمشق، كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها، ١٩٨٧م. وهذا الكتاب رسالة جامعية.

- د. وائل أبو صالح :

الجواري في الأندلس، منشورات دار القلم، رام الله، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

- الونشريسي :

وفيات الونشريسي، تحقيق محمد الحجي، دار الرباط للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٦م. وهو ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات.

- يوسف فرحات :

غرناطة في ظل بني الأحمر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعةالأولى، ١٩٨٢م.

- أبو الحجاج يوسف الثالث :

ديوان ملك غرناطة، تحقيق عبد الله كنون، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م.

المجلات والدوريات :

- مجلة دعوة الحق، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، الرباط . العدد ٢٤٩ .

ـ مجلة المورد، بغداد، المجلد الثالث، العدد الرابع.

ABSTRACT

CHANCERY WRITING IN GERANATEH KINGDOM AT BANU AL-AHMER DECADE

Prepared by : Abd el - Haleem Al-Hroot .

Supervised by : Prof. Abdel Kareem Khalifah .

This research is aiming at studying the Banu Al- Ahmer epistolography in Geranateh .

My approach to such a study may be set (up) as follow :

A-In the preface, I discussed the geographical and historical extension of Banu Al-Ahmer in addition to the obstacles and dangerous events faced them whether from their neighboring , the Christian countries, or from the minorities who ever tried to destroy the country .

The first chapter is devoted to study the concept of the chancery writing and its importance with special reference to the compositions issued from Banu al-Ahmar chancery which was signed by the Sultani mark.

It is also discussed in this chapter the functions of the secretaries and scribes in the buearue of Banu Al-Ahmar and their qualifications.

In the second chapter I tried to classify the chancer practice into the following subjects : ٤٣٩٥٩٦

a- Al- Tahani (Congratulations).

b- Al- Fotohat (Conquests) .

c- Thanks of presents .

d- Agreements and confirmation of agreements.

e- Al- Zaha'ir (Official appointments) .

f- Condolences .

h- Prophetic practice .

k- Addressing people in various matters .

The third chapter dealt with three of the distinguished secretaries in the era of Banu Al- Ahmar focusing on their distinguished style in writing these secretaries are :

1- Abu- al- Hasan bin al- Jayyab

2- Lesan Al- Din b. Al-Khatib

3- Abu Abdullah b. Zamrak .

The fourth chapter is devoted to discuss the epistolary format of Banu Al-Ahmer and their technique .